حسن نجيلة

ملامح من المجتمع السوداني

الجزء الثاني

الناشر
إدارة النشر الثقافي
مصلحة الثقافة
وزارة الثقافة والإعلام
الخرطوم

اهداءات ٢٠٠٢

أسرة الدكتور/ ماهر مهران

القاهرة

ملامــح
من المجتمع السوداني

الطبعة الأولى
١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م

حسن نجيلة

ملامح من المجتمع السوداني

الجزء الثاني

الناشر
إدارة النشر الثقافي
مصلحة الثقافة
وزارة الثقافة والإعلام
الخرطوم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

عندما أصدرت الجزء الاول من كتابي «ملامح من المجتمع السوداني» وعدت القراء باصدار الجزء الثاني منه وقد بذلت ما بذلت من جهد في اعداده وتهيأت لطبعه فأخذت أسعار الورق وتكاليف الطباعة تتزايد وتتضاعف بسرعة مما أعجزني عن تقديمه للطباعة فتركته على مضض وتزداد الصعوبات يوما بعد يوم حتى أصابني اليأس من طبعه وتقديمه للقارىء وفاء لوعدي، وشاء الله أن تمتد اليه يد كريمة هي يد ـ مصلحة الثقافة ـ وزارة الثقافةوالاعلام وتولت عنيمشكورة أعباء طباعتهفأزاحت عني هما كان يضنيني ومهما سجلت من عبارات الشكر فلن يفي ذلك بحقها وهي تبذل ما تبذل في اداء رسالتها الثقافية في مختلف المجالات ، وما أشك في ان القارىء متى وجد في هذا الكتاب قدرا من الفائدة سيشاركني التقدير لهذا العمل .

كان الجزء الاول قد قصصت اكثره لتسجيل « لقطات » ادبية وفنية ووطنية منذ تخرجت الافواج الاولى في كلية غردون حتى نهاية العشرينات، وهذا الجزء الثاني خصصت اكثره لفترة الثلاثينات حيث صار دور الخريجين أكثر وضوحا في المجتمع وحيث صارت قبضة المستعمرين يصيبها قليل من التراخي حتى سمحت في أواخر الثلاثينات بقيام مؤتمر الخريجين الذي كان بداية لسفور الحركة الوطنية بعد سنوات قليلة من انشائه .

وكانت فترة الثلاثينات التي ضم بعض معالمها هذا الكتاب فترة ازدهار للحركة الادبية نثرا وشعرا مع تخلف في فن القصة الذي صار له اليوم شأن في عالم الثقافة ولقد كان التعبير بالشعر والتأنق فيه من

أظهر سمات هذه الفترة وقد سجلت بعضه بمناسبته هنا .

وقد صدرت في الثلاثينات مجلات أدبية كان لها أكبر الاثر في بعث وتنشيط الحركة الادبية ، اولها « مرآة السودان » للمرحوم سليمان كشه أعقبتها بعد توقفها « مجلة النهضة السودانية » للمرحوم محمد عباس ابو الريش ثم أعقبتها « مجلة الفجر » للمرحوم عرفات محمد عبد الله الذي كان من اقطاب جمعية اللواء الابيض وللمشتركين في ثورتها واستطاع ان يهرب الى مصر حتى عاد الى السودان في الثلاثينات واصدر هذه المجلة « الفجر » التي كانت لها اهمية بالغة في تلك الفترة لانها كانت تعالج بجانب قضايا الادب بعض القضايا الوطنية والاجتماعية باسلوب شجاع ولكنها لم تكن تلقى كل التأييد من القارىء المثقف في بعض ما كانت تثير في هذه القضايا ولكنها بغير شك كانت قوة فعالة في تحريك النشاط الثقافي والاجتماعي والوطني حتى عند مخالفيها احيانا .

انني لم أقدم في الجزء الاول ولا الجزء الثاني هذا دراسة أكاديمية ولكني أضع بعض اللوحات التاريخية من هنا وهناك ربما تكون عونا لمن يقومون بالدراسات الاكاديمية لتاريخنا المعاصر في فتراته المختلفة ، ولقد دعوت في كتابي الاول اخواني الذين عاشوا جانبا هاما من تاريخنا المعاصر وقد أوشكت أن تتلاشى معالمه ان يقوموا بتسجيل ما لديهم من معلومات عن احداث كانوا من اقطابها وفاء لحق وطنهم عليهم وانني لاكرر هذا النداء ويحزنني ان عددا غير قليل من هؤلاء قد انتقل الى رحمة الله دون ان يسجل شيئا من التاريخ الوطني الذي شارك فيه مشاركة فعلية وأسأل الله ان يبقي منهم طول العمر والنشاط الفكري ليكتبوا ما يمكن ان يكتب من التاريخ المعاصر : وهو تاريخ حافل حاشد بكل ما يستحق الكتابة .

وقبل ان أضع القلم أرى لزاما علي ان أشكر وأثني على وزارة الثقافة والاعلام التي لولاها لما امكن صدور هذا الكتاب .

فالحمد لله رب العالمين .

دماء في سبيل الحرية

اسم استقر في أذهاننا ونحن اطفال نعيش في تلك المدينة الصغيرة « سنجه » التي اختارها الانجليز لتكون عاصمة لمديرية الفونج عندما احتلوا السودان وقسموه اداريا الى مديريات ومراكز .

وهي تتوسط اقليما اشتهر آنذاك بغاباته الكثيفة وأمطاره الغزيرة خريفا التي كانت مورد الرزق الوحيد لسكان هذا الاقليم ، فهم اما زراع في هذا الخريف موسم زراعتهم الوحيد اذ لم يكونوا يعرفون الزراعة الآلية واما رعاة تجد بهائمهم فيه الكلأ موفورا والماء متدفقا في كل مكان فتنعم بهذا الرزق الميسور وينعم الرعاة بحياة رغدة لوفرة الالبان ...

وفي طفولتنا كنا نعرف ان المسيحيين في سنجه يدفنون موتاهم في مقبرة ابو رفاس ، ولم يكن في سنجه من المسيحيين غير الاحباش الوافدين من أثيوبيا وكانوا يعملون على نقل الماء من النهر على ظهور الحمير في « اخراج » واسعة من الجلد ويبيعونها للسكان في المدينة الصغيرة التي لم تعرف هذا الماء المصفى الذي يدخل المنازل عن طريق هذه الانابيب الجديدة ، وكان هناك من المسيحيين الحكام البريطانيين الذين يسكنون في منازل جميلة احيطت بالحدائق الغناء كنا نطلق عليها « السرايات » .

... ولم نشهدهم يموتون بيننا الا مديرا واحدا حدثنا آباؤنا انه سقط عن حصانه فدقت عنقه ودفن هنا .

وكانت المقبرة المسيحية تقع وسط غابة كثيفة الاشجار وعلى بعد من المدينة لا تقوى عليه سيقاننا الغضة كما كانت هـذه الغابة التي تحيط بالمقبرة تخيفنا !

وكبرنا بعض الشيء ، ونحن في المدرسة الاولية تواصينـا جماعة ، ان نرى المقبرة المسيحية ، وذهبنا ... وبقلوب واجفة اجتزنا الغابة الكثيفة ثم وقفنا امام المقبرة نجيل عيوننا ونحن مبهورون ... كانت عالما سحريا بالنسبة لنا فقد شهدنا كثيرا من مقابر اهلنا وقد أهيل عليهـا التراب فقط ، اما هنا ، فأبنية لطيفة تعلو الارض في ارتفـاع أطول من قاماتنا القصيرة ... وطفنا حول القبور ذات الاسوار والمباني بعض الشيء كأنا نطوف بحديقة منوعة الازهار !

وعدنا لاهلنا نتحدث عن جمال مقبرة ابو رفاس وانها لا تشبه مقابرنا المتربة ... ولكن بقي سؤال يحير عقولنا الصغيرة يومذاك ، لـم سميت مقبرة ابو رفاس ؟!

ومضت السنون تباعا ، وكبر الصغار وتفتحت العقول لتفهم احداث الحياة : وعرفنا من هو ابو رفاس وما قصته في هذه الارض ...

في سبتمبر عام ١٨٩٨ انتصر جيش المستعمرين بقيادة اللورد كتشنر وهزم جيش السودان بقيادة الخليفة عبد الله الذي كان يحكم السودان مدى ١٤ عاما باسم الثورة المهدية ، بعد ان انتقل الى جوار ربه موقد نارها محمد احمد المهدي الذي أجلى الاتراك عن حكم السودان وانفرد بحكمه عام ١٨٨٥ ، وقضى نحبه بعد عام واحد من حكمه للبلاد .

وبانتصار جيش المستعمرين وقعت البلاد تحت سيطرة حكم جديد عرف بالحكم الثنائي اسما « الانجليزي المصري » ، والانجليزي فعـلا بسبب ضعف مصر ووقوعها هي نفسها تحت سيطرة الانجليز .

وبالرغم من انتصار جيش الاستعمار ، وسيطرة الانجليز ، وما بذلوه من جهود لكسب قلوب الناس الا انهم لم ينعموا بالاستقرار ، فقد كانت ثورات من جموع الشعب تهب في مختلف الاقاليم لمقاومة الحكم الجديد .

وكانت كل هذه الثورات تشتعل باسم الدين ، فما كان السودانيون وكثير من الشعوب الاخرى في تلك الفترة يعرفون هذه التعابير الجديدة ... الاستقلال ... الوطنية ... الاستعمار ... القومية .. كان المفهوم الوحيد المستقر في أعماق قلوبهم انهم قوم مسلمون وان ارضهم ارض اسلامية ، ولا يجوز ان يسلموا ارضهم للانجليز غير المسلمين ولا يجوز ان يخضعوا لحكمهم لذات السبب ... وهو مفهوم دعمته في مشاعرهم الثورة المهدية التي قامت على هذا الاساس ...

ونحن في عام ١٩٠٤ ، في مدينة سنجه الصغيرة التي اختارها الانجليز عاصمة لمديرية الفونج احدى المديريات الخمسة عشر التي قسموا عليها السودان ، وهي ترقد وادعة على الشاطيء الغربي للنيل الازرق ، ولما يمضي على الاستعمار في هذه الارض غير ست سنوات والناس قريبو عهد بالثورة المهدية ، واكثر سكان المنطقة من انصارها وما زالت تعتمل في قلوبهم جذوتها متقدة .

وجاء الانجليز باسلوب جديد في الحكم لم يعهده اولئك الناس البسطاء الكارهون لحكم « الكفار » اذ اخذوا يوزعون اراضي الزراعة النيلية لبعض محاسيبهم من السودانيين ممن أنسوا فيهم الولاء .

عبد الله ود الحسن شيخ من شيوخ قبيلة كنانة التي كانت تسكن مدينة سنجه وتعمرها وتفلح ارضها قبل ان يجيء هؤلاء « الكفار » ومحاسيبهم ... أحس بان حقه وحق اهله في الارض قد سلب ، بجانب ما كان يشعر به من كره عميق لحكم الكفار ... وامتلأ قلبه حقدا وسخطا ... اذن لا بد من قارعة !..

واخذ عبد الله يدعو قبيلته سرا للثورة ضد هذا الحكم الجائر ، وصار يعبيء الرجال ويعدهم للقارعة ... بعضهم استجاب وبعضهم نفر ، فقد خرجوا قريبا من القارعة الكبرى يوم لقوا جيش الاستعمار في جبال كرري قرب ام درمان ، فحصدهم هذا السلاح الجديد الماضي الذي جاء به جيش المستعمرين ولم يكونوا على علم به ...

وفي قرية على الشاطيء الشرقي من النيل قرب مدينة سنجه كان يسكن رجل من قبيلة الجعليين ، اسمه آدم احمد عبد القادر ، وكان على قدر من الذكاء والصلاح وبه طموح لقيادة ثورة عارمة ضد هؤلاء الحكام الجدد ، وكان يعلم ان الناس لن يجتمعوا حوله الا اذا قادهم باسم الدين ... لقد جمع محمد احمد المهدي الناس حوله عندما نادى بانه المهدي المنتظر ، وبهذا تبعوه وقادهم لحرب الاتراك حتى حرر البلاد واقام حكومة المهدية ...

ان آدم احمد عبد القادر يعلم انه لا يستطيع ان يزعم انه « المهدي » فان من حوله من السكان من آمنوا بمحمد أحمد المهدي من قبل وحاربوا معه ، وسيرفضون دعوته لو قال انا المهدي المنتظر ، ولكن ماذا لو ادعى لهم انه « عيسى » الذي يقال انه يظهر بعد المهدي ليطهر الارض من الفساد ؟ وأي فساد شر من هذا الذي ابتلي به الناس اذ تولى حكمهم غير المسلمين وجاروا على حقوقهم ؟.. فليقل للناس انه عيسى المنتظر ارسل اليهم ليطهر ارضهم من هؤلاء الحكام الفجرة ...

واعلن دعوته ... واستجاب له بعضهم من سكان القرية وبعض القرى المجاورة ... وبلغت دعوته ثائر قبيلة كنانة عبد الله ود الحسن الذي كان يمهد للثورة سرا ... واهتزت نفسه فرحا ، فها هو ثائر آخر بالقرب منه يلتقي معه في الوسيلة والغاية ... فليسرع اليه وليعملا معا لاشعال نار الثورة على الكفرة الحاكمين ...

والتقى الثائران وسرعان ما تفاهما ، ولم يضيعا الوقت ، اذ اخذا يجمعان من آمـن بدعوتهما للثورة ، ويطوفان بالقرى يحفزان الناس للحرب ٠

وبلغ الخبر حكام سنجه الانجليز ٠٠ وعلموا ان ثورة فـي طريقها للانفجار ، وامر الانجليز نائب المأمور المصري القبطي اليوزباشي زكي أفندي أبو رفاس أن يقود حملة من جنود البوليس المسلحين لقمع الثورة ولكنهم خوفا من مغبة الانفجار امروا جماعة من السودانيين الموالين لهم من العمد والمشايخ ان يصحبوا الجنود وقائدهم ، ليكونوا بمثابة انصار سلام ، فيتدخلوا لاخماد الثورة بنصح قادتها وتحذيرهم ، واعلان العفو عنهم ان هم تركوا ما أقدموا عليه وعادوا لحياتهم العادية دون اراقـة دماء ٠

وسار الركب آنف الذكر من مدينة سنجه حتى بلغ غابة كثيفـة قرب قرية « طيبة » التي لا تبعد اكثر من عشرين كيلومترا عن سنجه وهناك التقوا بالثوار ولم يكن عددهم كبيرا وقد تسلحوا بالاسلحة البيضاء ـ الحراب والسيوف والمدى ـ وبرز لهم الثائران آدم احمد عبد القـادر وعبد الله ود الحسن ، وخاطبهما اولا العمد والمشايخ بالرسالـة التي حملوها ، ونصحوا ما شاء لهم النصح ، ووعدوا وأوعدوا ٠٠٠ ولكن الثوار قد عقدوا العزم على تنفيذ مخططهم مهما كان الثمن ، فلم يستمعوا للنصح ولم يستجيبوا له ٠٠٠

وفي هجمة قوية صادقة أردوا قائـد الحملة اليوزباشي زكي قتيلا وأثخنوه طعنا بالسيوف والرماح ، وهجموا على الجنود والعمد والمشايخ الذين ولوا الادبار في لحظات ! وتركوا قائدهم مجندلا على الارض !٠٠ والعجيب ان الهلع أصاب الجنود في تلك الهجمة فبالرغم من انهم يحملون البنادق والرصاص ، والثوار ليس في أيديهم غير السلاح الابيض فروا منهم ولم يطلقوا رصاصة واحدة !

وظل الثوار في مكانهم يتدارسون موقفهم بعد ان انتصروا فـي هذه الجولة ، وما من شك في أنهم قدروا ان موقعة اخرى ستدور بينهم وبين جيش الحكام ، ولعلهم قد أملوا خيرا أن يجذب اليهم هذا النصر عددا كبيرا من المؤيدين الذين ترددوا في الانضمام اليهم اولا ... كما حدث ذلك لمحمد احمد المهدي عندما انتصر في اول موقعة دارت بينه وبين جيش الاتراك في الجزيرة ابا وكان جيش المهدي كهؤلاء لا يحمل غـير الاسلحة البيضاء وكان جيش الاتراك الذي ارسل اليه من الخرطوم عـلى البواخر النيلية يحمل احدث الاسلحة التي عرفت انذاك من بنادق ومدافع ، ومع ذلك فقد انتصرت قوة المهدي الصغيرة العدد البدائية السلاح عـلى تلك القوة المسلحة بالاسلحة الحديثة وغنمت كل اسلحتها وكان هذا النصر حافزا قويا ليهرع الالوف نحو الجزيرة ابا حيث كان محمد احمد المهدي ليبايعوه وينضموا الى الثوار ... وقد أكد لهم هذا النصر حقيقة الدعوة الدينية التي حمل لواءها محمد احمد المهدي ... ألم ينتصر السلاح الابيض فقط على قوة حربية ضخمة مزودة بالاسلحة الحديثة ؟ تلك اذن عناية الله يضفيها على المهدي المنتظر وفيها كانوا يتمثلون .

وقف ثوار سنجه حيث هـم يخططون الى ما بعد هذه الجولـة واليوزباشي زكي مضرجا بدمائه منكفئا على الارض وقد فارق الحياة ، والقوة التي كانت ترافقه ولت الادبار هلعا وجبنا ...

ولم يطل بهم الوقوف ، فان القوة الهاربة ، تصدى لها احد العمد الذين كانوا يرافقونها وقد استرد صوابه بعد ان فر مع الهاربين بادىء بدء ، وقف هذا العمـدة أمام الجنود وصاح فيهم الى أين الفـرار وقائدكم قد قتل ؟ وماذا تقولون للمسئولين في سنجه ؟.. وقال الجند : ولكن ليس لدينا أمر بالضرب !.. فقال : وما جدوى الامر وقد بدأكم الثوار وقتلوا قائدكم ؟ عودوا اليهم واضربوهم ...

ورأى الجند الا مفر من العودة وقد أقنعهم منطق العمدة ، فعادوا

الى الثوار الذين كانوا قد أمنوا واطمأنوا . وبينما هم في غفلتهم انطلق رصاص الجنود كالجراد يحصدهم حصدا ، وفي بضع دقائق كانوا كلهم صرعى على الارض وقد بغتوا بالضرب ... وكان عددهم بضعة وعشرين رجلا دون الثلاثين . وكان عـدد الجنود يقاربهم ... مع فارق بنوعية السلاح .

وحمل الجنود جثة اليوزباشي زكي « ابو رفاس » [1] وعادوا بها الى سنجة ، وفي احتفال رسمي شيع هذا الجثمان ووري الثرى في اول مقبرة للمسيحيين في سنجة .

وسمح لاهل القتلى ان يحملوا جثثهم ويواروها . وفي القسم الشرقي من مدينة سنجة دفن قائدا الثورة عبد الله ود الحسن ، وآدم احمـد عبد القادر . قريبا من مقبرة اليوزباشي زكي ...

واندرس قبرا الرجلين الثائرين ، وقامت حولهما احياء جديدة ، وقل من يعرفهما الا من بقي من الشيوخ وما اقلهم عددا واياما في الحياة ، اما شباب المدينة ومن يجيء بعد هذا فلن يعرف من أمرهما شيئا ، ولن يكون حتى لهذا الاثر الضئيل من وجود ...

وستبقى قصة هؤلاء الثوار الذين قاوموا الاستعمار الجديـد على ضعف الحيلة وبدائية الاسلوب مثلا حيا لاصالة هذا الشعب الابي الذي يأبى الاغلال ويفنى في سبيل الحرية .

---

(١) اجلالا لذكرى ابائنا واجدادنا الذين لم يستكينوا للاستعمار منذ ان وطئت اقدامه ارضنا فأخذوا يواجهونه بالعنف مستشهدين غير عابئين بالفارق العظيم في القوة المادية ففي كل منطقة بالسودان كانت ثورة وشهداء في سبيل الحق وقد ذكرت هنا قصة صغيرة تماثل مئات القصص البطولية لاولئك الابطال الذين لم يعد لهم ذكر في التاريخ وهم جديرون بالخلود ليعرف ابناؤنا ان الجهاد وان تنوعت اساليبه كان متصلا وليس جديدا .

شهيد الوطنية :

الملازم اول عبد الفضيل الماظ

طويل فارع القوام ممشوقه ، اسود اللون ، على خده الايسر ندوب اتخذت شكلا مربعا ، يشع الذكاء من عينيه الواسعتين ، صارم النظرات ، حلو الحديث ... يتمتع بصفات خلقية ممتازة .

هكذا وصفوا لي الشهيد الملازم اول عبد الفضيل الماظ احد الضباط الخمسة الذين اشعلوا ثورة عام ١٩٢٤ في صفوف الجيش ووجهوا الى قوات الاستعمار الانجليزية رصاص نيرانهم التي حصدتهم حصدا ...

من هو عبد الفضيل ؟ وكيف نشأ ؟ وكيف شق طريقه في دروب هذه الحياة التي انتهت به حيث قتلته قنابل المستعمرين في مدينة الخرطوم بعد ان روّى من دمائهم أرض وطنه في معركة غير متكافئة ؟

والده الماظ عيسى من قبيلة النوير ، لا احد يدري الان كيف اتجه الى القاهرة واتخذها مقرا له قبيل فترة المهدية ، ولكن الذي عرف عنه انه التحق بالجيش المصري جنديا عندما اخذت مصر بتوجيه وقيادة من انجلترا تعد العدة لاسترداد السودان ، بعد ان استولت عليه الثورة المهدية ... وكان من نصيب الماظ عيسى ان كان احد جنود الاورطة ١٢ السودانية التي كونت في القاهرة مع فرق اخرى سودانية ومصرية وانجليزية بقيادة اللورد كتشنر اعدت لاسترداد السودان .

وفي القاهرة تعرف الماظ عيسى الى اسرة من قبيلة مورو التي تسكن اصلا المديرية الاستوائية في جنوب السودان ، واختار فتاة منها زوجة له ، ولا احد يدري شيئا عن هذه الاسرة من المورو وكيف نزحت الى القاهرة ؛ ولولا وجودهم في القاهرة لكان مستحيلا على رجل من النوير أن يتزوج فتاة من المورو !

وتحركت قوات الجيش متجهة نحو السودان وبينها ١٢ جي اورطة السودانية التي تضم الجندي الماظ عيسى ، ترافقه زوجته وطفلها الصغير عبد الفضيل وهو في نحو الثالثة من عمره .

وانتهت معركة كررى بين جيوش كتشنر وجيوش الخليفة عبد الله بانتصار الغزاة ، وقد استبسل جيش الخليفة عبد الله في الدفاع عن ارض الوطن وسجل المعجزات ...

وتنقل الطفل عبد الفضيل مع والده بين عدة مدن سودانية وفق تنقلات فرقته العسكرية ، فاقام فترة في دنقلا ، واخرى في الابيض وثالثة في تالودي بجبال النوبة التي أحبها عبد الفضيل وقضى فيها ـ فيما بعد ـ اكثر سني خدمته العسكرية .

نحن الآن في مدينة واو عام ١٩٠٨ ، حيث انتقلت فرقة الماظ عيسى الى هناك ، ودخل عبد الفضيل الكتاب المخصص لتدريس ابناء الجنود ، وكان المدرس مصريا ، وظيفته الرئيسية ، امام الاورطة ، فهو يصلي بالجنود اماما ، ويقوم بعمل المأذون ، ويصلي على الموتى ، ويلقن القسم على المصحف امام المجالس العسكرية ، وكان هذا الرجل يختار عادة من خريجي الازهر الشريف ، وكان يخصص لكل أورطة واحدة ...

ويقول زملاء عبد الفضيل انه كان تلميذا ذكيا نشطا ، برزت فيه صفات القيادة فوكل اليه المدرس مهمة « عريف التلاميذ » ... « الالفة كما نقول » ويقول رفقاؤه انه كان يحملهم الى رحلات للغابة ، ويهيب بهم ان

يشهدوا التمرينات العسكرية التي كان يجريها آباؤهم الجنود ، وما تكاد تنتهي فترة هذه التمارين ، حتى يجمع عبد الفضيل التلاميذ ويدربهم عسكريا مثلما يفعل القواد !

وكانت الجندية تسري في دمه ، فقد ولد في بيت جندي ، وتفتحت عيناه ومشاعره بين الجنود ، وتشربت طفولته وصباه بروحها ...

وظل يتدرج في مدرسة الفرقة ، وفي المقدمة دائما ، حتى تم اختياره ليلتحق في ابريل عام ١٩٠٩ بمدرسة الصناعة التي كانت فرعا من كلية غردون التذكارية التي أقيمت في الخرطوم ، وقد اختار عبد الفضيل قسم الحدادين والتحق به ، واقبل على دراسة (الحديد) بنفس الروح التي عرف بها من جد وحرص على التفوق ، وزادت فرحته عندما تم نقل فرقة والده العسكرية الى ام درمان وصار من الميسور له ان يخرج من الداخلية في عطلة الاسبوع ليقضي يوما مع اسرته ...

وفي غضون عام ١٩١١ ، توفي المساظ عيسى والده ، واهتزت نفس الصبي للكارثة التي لم يكن يتوقعها ، وهو وحيد ابويه ، ووالده هو الشخص الذي كان يعتمد عليه في هذه الفترة التي ما يزال فيها طالبا ...

وتوجه عمه الملازم بلال علي سعيد ــ عقب انتهاء ايام المأتم ــ الى مدرسة الصناعة بالكلية وطلب من مدير المدرسة الانجليزي ان يمنح عبد الفضيل شهادة بمستوى دراسته ليتمكن من ايجاد عمل له في مصلحة الاشغال وتم له ما أراد ، والتحق بوظيفة مساعد حداد في تلك المصلحة ، ولكن طموحه ابى عليه ان يقتصر عليها ، فسعى حتى التحق بورشة صناعية في سوق الخرطوم يديرها رجل يوناني ليعمل فيها مساء ، فحصل بهذا على دخل اضافي مكنه من القيام بالتزاماته نحو والدته بعد وفاة والده ...

وماتت والدته وخلفته وحيدا ، فرأى عمه بلال علي سعيد ان يدنيه منه ليرعاه ، فجنده عسكريا بالاورطة ١٢ التي ضمت من قبل والده والتي نشأ بين جنودها طفلا وصبيا واحبها حبا جما ، ولعل هذا من العوامل الاساسية التي جعلته يقبل توجيه عمه فينفض يديه من الصناعة ليقبل على الجندية ، وكان ذلك في شهر اكتوبر من عام ١٩١١ •

وبعد ستة اشهر من التحاقه بالجندية اختير للالتحاق بمدرسة الوكلاء بلوكات امناء ، اي كاتب عسكري « بلوك امين » وكانت هذه الوظيفة يشغلها الجنود المصريون لندرة من يعرف الكتابة بين الجنود السودانيين وكان مقر هذه المدرسة مدينة الخرطوم ومدة الدراسة فيها سنتان •

وهنا برز بوضوح تفوق عبد الفضيل اذ اجتاز ثلاثة امتحانات مرة واحدة بتفوق لم يعهد قبله لاحد من الجنود ، ففي مدى ثلاثة اشهر اجتاز بتفوق امتحان مساعدي البلوك أمناء ، ثم امتحان البلوك امناء ، ثم امتحان صول تعيين ، وتخرج في ابريل عام ١٩١٤ والحق بفرقته التي كانت انذاك في منجلا ببحر الغزال ••• وتنقل بين عدة اماكن بحكم عمله •

وابتسم له الحظ في « راجا » ببحر الغزال عندما شهده اليوزباشي المصري عبد الله سلامه يدير طابورا عسكريا في فترة التدريب بحذق ومهارة ، فرأى ان يوفده الى المدرسة الحربية بالخرطوم ليتخرج فيها ضابطا ، ولما عرض فكرته هذه على قائد الفرقة الانجليزي رفض بادىء بدء ان يقره عليها ، ولكنه اخذ يرقب عبد الفضيل فتأكد من جدارته واهليته العسكرية والخلقية ، فكتب للخرطوم يرشحه للالتحاق بالمدرسة الحربية ، وقد جرت العادة على اختيار خمسين طالبا لهذه المدرسة من طلبة كلية غردون وعشرة ينتخبون من بين صف ضباط وحدات الجيش ، والتحق عبد الفضيل بالمدرسة الحربية في أول سبتمبر عام ١٩١٦ •••

وقبل ان نمضي مع عبد الفضيل في حياته المدرسية الجديدة ، نذكر

انه قد اشتهر بالشجاعة الخارقة ، ويروي هنا صديقه وزميله الملازم سعد مرسال هاتين القصتين ، قال : .

« ذات يوم بعد قيامنا من قرية ديم الزبير مساء لم نشعر الا وقطيع كبير من الجواميس البرية المتوحشة تعبر الطريق امامنا على مسافة عشرة امتار تقريبا ، وكانت الغابة كثيفة جدا ، والطريق ضيق تلتقيه على جانبيه أشجار عالية متشابكة ، فحبسنا أنفسنا هلعا وذعرا ، وانكمشنا حيث نحن الا عبد الفضيل الــذي وضع طلقة رصاص في بندقيتــه وتحرك خلف الجواميس داخل الغابة ليقتل عددا منها ، فاسرعنا خلفه وامسكنا بهوصرنا نتوسل اليه الا يلحق بها ونحلفه بكل عزيز لديه وهو يحاول التملص منا ليلحق بها ، واخيرا ضحك ورمانا بالجبن ، فوافقناه ، وواصلنا السير وهو يضحك من خوفنا وهلعنا !

وفي يوم اخر ونحن في مدينة واو بالجنوب خرجنا معا ، وكنا ثلاثة ، وعبد الفضيل يتوسطنا تتنزه على شاطىء نهر النيل ، وبينما نحن سائرون سمعنا اصوات صراخ من خلفنا ولما التفتنا رأينا شابين من فتية الدينكا يجريان خلفنا يصيحان .. الجاموس .. الجاموس .. ! وكان من ورائهما ثوران ضخمان في لون الجاموس يعدوان نحوهما في هياج ، فلم نشك في انهما جاموسان متوحشان ، فهربت وصاحبي باقصى ما نملك من السرعة وثبت عبد الفضل مكانه وقد تأهب لملاقاة الجاموسين ، فلما تبين له انهما ثوران عاديان ضحك منا ونادانا لنعود اليه ، كما ضحك فتيا الدينكا وقد ظهر انهما كانا يعبثان بنا ليختبروا مدى شجاعتنا ، وقد أظهروا الاعجاب الفائق بشجاعة عبد الفضيل وسخرا مني وزميلي كل السخرية ! » .

تخرج عبد الفضيل من المدرسة الحربية في اول مايو ١٩١٧ في وظيفة ملازم ثاني ، حيث نقل الى تلودي وظل بها من عام ١٩١٧ حتى عام ١٩٢٣ وفيها تم زواجه من كريمة اليوزباشي سالم ، وقد فارقت الحياة وهــي

تضع اول جنين لها ••• وتزوج بعدها شقيقتها الصغرى وشاء القدر ان يكون مصيرها نفس مصير اختها ، ماتت وهي تضع اول جنين لها ••! وأصاب عبد الفضيل حزن مرير بسبب هاتين الكارثتين •••

كان يحب القراءة ويدمنها ، ويميل كثيرا الى كتب التاريـخ فانكفأ يقرأ ويقرأ ، ساعده على ذلك خلو حياته من المباذل ، فهو مستقيم لا يشرب الخمر ولا يقترف الزنا ••• يقول اصحابه انه بفضل ادمانه القراءة صار صاحب ثقافة عالية أججت فيه الروح الوطنيـة وكراهية المستعمرين وكان يقتني في بيته مكتبة قيمة •

ولم يطق الحياة بغير زواج ، فتزوج للمرة الثالثة ، زوجته عاشت بعده عند كتابة هذا بحي بانت بأم درمـان ، وقد أنجبت له ولدا ــ جار النبي ــ حارب الانجليز تعليمه ، فعمل جنديا ، ثم صار عاملا ــ نقاشا ــ يغالب باساء الحياة مع امه في صبر وجلد •

في عام ١٩٢٣ نقل عبد الفضيل الى الخرطوم ، وكانت مصر تغـلي بالثورة تحت قيادة سعد زغلول لطرد المستعمرين عن وادي النيل ــ مصر والسودان ــ فاخذ عبد الفضيل اجازته وذهب الى القاهرة ، ويبدو انه انفعل مع ثورتها وأثرت في نفسه ، وهو الرجل الذكي الطموح الشجاع الوطني المثقف ، المدرك لمسئولياته نحو وطنه •

وعاد للخرطوم ، وتلاحقت الاحداث ••• فاغتيل السير لـي ستاك حاكم عام السودان وسردار الجيش المصري في شوارع القاهرة وهو عائد من اجازته بلندن في طريقه الـى الخرطوم مقر حكمه ، وثارت انجلترا للحادث ، واتخذته وسيلة لتنفيذ مآربها في السودان ، فقررت طرد الجيش المصري من السودان ، في اربع وعشرين ساعة ، واجلاء كـل الموظفين المصريين المدنيين عنه ، لينفرد الانجليز وحدهم بحكم السودان ، وكان على رأس الحكومة المصرية سعد زغلول فرفض المطالب الانجليزية هذه ،

فأقيل من الوزارة وحل محله زيور باشا الذي نفذها بحذافيرها تحت ستار سياسة (انقاذ ما يمكن انقاذه) •

واحدث قرار طرد الجيش المصري والموظفين المصريين من السودان رد فعل عنيف في اوساط السودانين ، فخرجت المظاهرات الهادرة تحت قيادة جمعية اللواء الابيض السرية التي كان يرأسها الضابط بالمعاش الثائر علي عبد اللطيف الذي ألقي عليه القبض وكل أعضاء الجمعية وأودعوا السجن •••

المعركة

خرج عبد الفضيل الماظ ورفاقه الضباط وهم حسن فضل المولى وثابت عبد الرحيم وسليمان محمد وعلي البنا يقودون قوة عسكرية لم يتجاوز عددها المائة جندي ، متجهين من الخرطوم الى مدينة الخرطوم بحلاي نينضموا الى القوات المصرية التي كانت تتأهب لمغادرة السودان تنفيذا لقرار الحكومة الانجليزية الذي وافقت عليه حكومة زيور باشا في القاهرة •

واعترضتهم قوة انجليزية عند شارع النيل قرب الكوبري الذي يربط المدينتين : ودارت الملحمة الدموية العنيفة ، واطلق جنودنا الرصاص واتخذوا مواقع استراتيجية مناسبة ، تحصنوا بجداول الماء في ذلك الشارع ، وكانت المباغتة عنيفة على الجنود الانجليز سقط على أثرها عشرات منهم صرعى رصاص الجنود السودانيين •

ظلت المعركة دائرة في عنف منذ الساعة الخامسة من مساء الخميس ٢٧ ــ ١١ ــ ١٩٢٤ حتى ضحوة الجمعة ٢٨ ــ ١١ ــ ١٩٢٤ •

ومنذ الفجر احس جنودنا ان ذخيرتهم آخذة في النفاذ ، فتفرقوا وهربوا ، والتجأ عبد الفضيل الى مبنى المستشفى العسكري القريب من موضع الموقعة وأخذ الذخيرة التي يريدها من المخزن التابع للمستشفى

العسكري ، واعتلى مبنى المستشفى متخذا من احدى غرفه قاعدة يطلق منها قذائفه من (المكسيم) الذي كان يحمله ... كانت قذائف مكسيم عبد الفضيل هي الوحيدة التي استمرت في المعركة تحصد الجنود الانجليز حصدا وقد عجزوا عن الاقتراب منه .

خلت الخرطوم من السكان يوم الجمعة ، وأصاب الهلع سكانها ففروا الى الغابة المجاورة ، اذ كان الرصاص يهدر من الجانب الشرقي منها . رصاص مكسيم عبد الفضيل الذي بقي وحده يواصل المعركة ، تقابله القوات الانجليزية في الخرطوم باسرها ..! الساعات تمضي والجنود الانجليز كلما حاولوا الاقتراب من المستشفى صدتهم نيران عبد الفضيل ... عجزوا عن الوصول اليه ! وفي منتصف النهار ... ولم يبق في الخرطوم كلها غير عبد الفضيل يصارع وحده القوات الانجليزية التي تجمعت حوله بكل عتادها الحربي ... في منتصف النهار أمرت طابية الخرطوم الانجليزية انتطلق قنابل مدفعيتها الثقيلة على المستشفى العسكري لتهده على البطل المنفرد بالمعركة ... وهد المستشفى عليه ، ولما كشفوا الانقاض عنه وجدوه منكفئا على المكسيم وقد احتضنه بكلتا يديه ... كأنه ما يزال يواصل المعركة ..! وكان في الثامنة والعشرين من عمره الغض ... وكان عمر ابنه الوحيد آنذاك عامين !

في يوم ١٢ ــ ٨ ــ ١٩٦٦ ، احتفل شعب العاصمة المثلثة بيوم الجندي السوداني ، واقيم نصب تذكاري للبطل عبد الفضيل الماظ حيث أدار المعركة ببسالة فذة ضد جنود الاستعمار ، وسار الطابور العسكري تتقدمه الموسيقى ،وتدافعت جموع الشعب ، ووقف الرجال الرسميون وعلى رأسهم السادة رئيس واعضاء مجلس السيادة والوزراء وكبار رجال الدولة يكرمون ذكرى جنودنا الشهداء ، ويهتفون بحياة عبد الفضيل .

وبين الجموع الزاخرة ، كان يسير جار النبي عبد الفضيل الماظ في زيه

العسكري القديم الذي كان يرتديه في عهد الجندية ، ليسير مع الركب الذي جاء يحيي ذكرى والده ... لم يحس به احد ، ولا يدري أي من هذه الآلاف الهادرة ان ابن البطل حرمه الاستعمار من التعليم ، وانه يعيش عاملا متواضعا يجاهد للعيش بشق الانفس .

وهناك في دار متواضعة بحي بانت ، كانت امه — زوج البطل الشهيد — منهمكة — والآلاف تهتف بحياة زوجها البطل — كانت منهمكة في (عواسة الكسرة) — الكسرة الخبز السوداني — لتبيعها لطالبيها ، كما اعتادت ان تفعل كل يوم لتحصل على لقمة عيش هي وابنها العامل .

اسرة عبد الفضيل

عاشت زوجته وولده في شظف من العيش ، واخيرا منحتها الحكومة المصرية ... وكان الشهيد ضابطا في قواتها حتى استشهاده — معاشا شهريا في سنة ١٩٥٣ قدره ثلاثة جنيهات أي بعد استشهاده بثلاثين عاما !! ثم رفع الى خمسة جنيهات في عام ١٩٥٦ ثم استقر المعاش عند الرقم ١٣ منذ عام ١٩٥٧ .

وفي يوم ٦ — ٩ — ١٩٦٩ عقد مجلس ثورة مايو برئاسة جعفر محمد نميري جلسة أصدر فيها القرار نمرة « ٩ » الذي رفعت فيه رتب شهداء الوطنية الضباط الخمسة الذين ضحوا بارواحهم من اجل هذا الوطن وهم : —

١ — علي عبد اللطيف
٢ — عبد الفضيل الماظ
٣ — حسن فضل المولى
٤ — سليمان محمد
٥ — ثابت عبد الرحيم

ومنح المستحقون للمعاش من اسرهم على اساس هذه الرتبة العسكرية العالية .

وهو تكريم أريد به تقدير الوطن الغالي لتضحياتهم الغالية .

وللتاريخ أسجل ان الضابط سيد فرح كان زميلا لهم في تلك الملحمة التاريخية وكان يلازم عبد الفضيل الماظ في المعركة حتى نفذت ذخيرتهم . ثم استطاع ان ينجو ويفلت من الاعدام رميا برصاص الانجليز على النحو الذي رواه لي وسجلته في الفصل التالي .

نجا من الاعدام رمياً بالرصاص واختفى
ولحق بجيش البطل عمر المختار

كنت أتأمله ، وقد شارف الستين من عمره وما زال ممشوق القوام يتدفق حيوية ونشاطا ، وقد ارتدى الزي السوداني البسيط ••• وما كدت أبدأ الحديث معه راجعا به القهقرى ليروي طرفا من ذكرياته التاريخية ، حتى بدا التأثر واضحا ، ولكنه سرعان ما تدفق في حديثه مجيبا على أسئلتي في صراحة ووضوح •

سألته اولا عن وطنه الصغير ونشأته فقال :

ـ ولدت في دلقو بالمحسس عام ١٩٠٠ ووالدي فرح صالح عمدة دلقو وقد ظلت أسرتي تحتل منصب العمودية بالوراثة ـ وقد أتممت تعليمي الاولى في مدرسة دلقو • ولالتحاقي بكلية غردون القديمة ـ القسم الابتدائي ـ قصة عجيبة صنعتها الاقدار ، فما كان في عهدنا وفي مثل مدينة دلقو الصغيرة من يقدم على التعليم في الخرطوم • والقصة ان كان لجدي صلة تعارف باللورد كتشنر عندما مر بجيشه من هناك غازيا السودان ، فتعرف الى جدي ، وفي زيارة له لمنزل جدي بعد ان تم له فتح السودان طلب منه ان يقدم له احد ابنائه ليوصي بتعليمه في الكلية ، ولم يكن لجدي ولد في سن التعليم ، فقدمني له بوصفي حفيده المناسب للتعليم • وأكملت

مرحلة تعليمي الابتدائي ورغبت في الالتحاق بالكلية الحربية ووقفت عقبات دون ذلك ذللتها توصية كتشنر !

وصحت وقلت له : لو كان كتشنر يعلم ما تفعل بامبراطوريته في السودان لتركك مع اهلك في دلقو !

قال وهو يشاركني الضحك ـ انه تخرج ضابط برتبة الملازم ثاني أول عام ١٩٢٢ وقد تأخر عن التخريج مع زملائه الذين يذكر منهم: ابراهيم عبود والمرحومين محمد بخيت علي وعبد الرحمن الفكي وآخرين ...

قفزت به الى احداث ثورة ١٩٢٤ وسألته عن الدوافع التي حدت بهم الى الالتحام الدموي مع القوة الانجليزية ... وهل كان الالتحام على تدبير مسبق ؟ ام جاء نتيجة موقف مفاجىء ؟

وصمت قليلا يستجمع اشتات ذكرياته وقال :

ـ الحديث هنا قد يطول ولكني سأحاول الايجاز ... تذكر ان الانجليز عقب اغتيال ستاك باشا حاكم عام السودان وسردار الجيش المصري ـ وهذا لقبه الرسمي ـ في شوارع القاهرة ان ارسلت حكومة انجلترا الى حكومة مصر انذارا من بين بنوده ان يخرج الجيش المصري من السودان في ظرف ٢٤ ساعة ، وكان الضباط السودانيين يتبعون الجيش المصري هذا وكانوا يقسمون يمين الولاء عند تعيينهم لجلالة ملك مصر . فلما عرفنا هذا الانذار الذي أحدث ضجة كبيرة ـ وكانت مظاهرات اللواء الابيض تجوب الشوارع هاتفة بحياة مصر وسقوط الانجليز كان لكل هذه الاحداث رد فعل عنيف في نفوسنا نحن الضباط السودانيين التابعين للجيش المصري كما قلت . أخذنا نحن الذين كنا في الخرطوم مع فرقنا العسكرية تتشاور فيما يجب عمله وأذكر اني التقيت بعبد الفضيل الماظ وتحدثنا طويلا وتم الاتفاق بيننا ان نخرج ونذهب للخرطوم بحري لننضم الى الجيش المصري المرابط هناك ونربط مصيرنا به . وتم الاتفاق،

انا وعبد الفضيل الماظ والضباط ثابت عبد الرحيم ، وحسن فضل المولى وسليمان محمد وعلي البنا وانضم الينا ٦٣ جنديا سودانيا ــ وخرجنا في الموعد المحدد في طابور عسكري نحمل اسلحتنا والجبخانة التي تمكنا من الحصول عليها • وسرنا بشارع الشاطىء حتى بلغنا سراي الحاكم العام فوقفنا امامها وهتفنا بسقوط الانجليز ، وكان الحرس الانجليزي امــام السراي ولم يحرك ساكنا ــ واذكر ان السوق اغلق ابوابه عند تحركنا وتوقفت حركة المرور حيث مررنا • وسرنا من امام السراي بعــد ترديد الهتاف الداوي بطريق الشاطىء حتى بلغنا المستشفى العسكري ــ وزارة الصحة الآن ــ وكان ذلك نحو الساعة الثالثة من ظهر يوم الخميس ٢٧ نوفمبر ١٩٢٤ ــ وشاهدنا من بعيد قوة من الجيش الانجليزي تتحرك نحونا من امام مباني كلية غردون واخذت تقترب منا ــ الى هذه اللحظة لم يكن في تخطيطنا الدخول في معركة حربية معهم ، ولكننا ايضا كنا نتوقع الشر منهم •

ووقفنا ننتظر ، ويظهر ان القوة الانجليزية التي كانت تتكون من نحو ٨٥٠ جندي وضابط كانت تريد اخافتنا لنستسلم ونرجع اعقابنا ، فأطلق جنودها النار طلقات نارية في الهواء لاخافتنا ــ في هذه اللحظة اصدر الينا الضابط عبد الفضيل الماظ الامر بان ننزل بسرعة الى جدول المطر المحفور على حافة الطريق لنحتمي به ونضرب في المليان ، ونفذنا الامر فــي سرعة خارقة ، وبينما كانت القوة الانجليزية تقف مكشوفة امامنا فانهمر رصاصنا عليها مفاجأة ، وكان عبد الفضيل يمطرها من مدفعه الرشاش ونحن وكل الجنود ضربنا في المليان بدون تردد وفي دقائق تساقطوا قتلى بالمئات وانسحب من بقي حيا وما اظنه كان يزيد عن ١٥٠ عسكري ، واستمرينا في المعركة حتى انتهت ذخيرتنا قرب منتصف الليل ــ وقد اصابتني رصاصة فــي ذراعي •••

وهنا طلبت من عبد الفضيل ان يعبر النهر عائما ليتصل بالقوات المصرية

المرابطة في بحري ليخطرها بما حدث ولتشاركنا الموقف جرياه رفض عبد الفضيل ذلك وطلب مني ان اقوم ــ انا بهذا الاتصال ، ودخلنا الى المستشفى العسكري عبد الفضيل ليحصل على مزيد من الذخيرة ليواصل المعركة ، وانا غيرت ملابسي العسكرية بملابس ملكية من احد التمرجية في المستشفى وقصدت النهر وأخذت أعوم حتى بلغت شاطىء الخرطوم بحري ...

هنا سألته هل القوات المصرية في بحري كانت كثيرة العدد بحيث يمكنها ان تدخل المعركة ضد القوات الانجليزية ؟

فاجاب كانت هناك قوات كافية فعلا ــ خمسة بلوكات تتقدمها (الطوبيجة) وكلها كانت تحت قيادة ضابط مصري كبير اسمه (القائمقام رفعت) وكان رفعت متأهبا للمعركة وقد رفض ان يطيع الامر الذي أصدره له الانجليز بمغادرة السودان مع قواته تحقيقا للانذار المعروف وقد رد عليهم بانه لا يتلقى التعليمات منهم وانما من الملك فؤاد رأسا ...

قلت : ماذا حدث بعد وصولك لبحري واتصالك بالضباط المصريين؟

اجاب : اتصلت بهم وحدثتهم بالواقعة وبالموقف كله ، ولكن مع الاسف فان الملك فؤاد كان قد أرسل بالطائرة ضابطا مصريا كبيرا اسمه (امين هيمن) يحمل امرا منه للقائمقام رفعت بتنفيذ امر مغادرة السودان في الموعد المحدد له ــ ولم يكن بد من الانصياع لهذا الامر الملكي ــ وقد حدثنا امين هيمن هذا بان الانجليز هددوا الملك فؤاد وان قواتهم تحاصر قصره حتى كتب هذا الامر ...

واصبحت في موقف حرج وكان لا بد من ان أرافق الجيش المصري فقدم لي الضابط ملابس جندي مصري وركبت معهم القطار حتى حلفا ثم بالوابور الى الشلال والى هنا لم تتعرضني مشكلة الا انه ما كادت الباخرة تبلغ بنا الشلال حتى شاهدنا الضابط الانجليزي المعروف سبنكس

باشا المسئول عن الامن في مصر ومعه قوة من الجنود رابط عنـد موقف الوابور وعرفنا أنهم لا بد من ان يكونوا يبحثون عني وان الخرطوم قد أبرقتهم بتفتيش الجنود بعـد ان فشلوا في العثور علي في كـل انحاء السودان ــ والعاصمة بوجه خاص حتى منزلنا في دلقو حوصر عدة مرات وأقلقوا أهلي بالتفتيش المستمر كما علمت فيما بعد !

قلت : وكيف استطعت ان تنفذ من سبنكس باشا وقوته ؟

ــ وضحك بصوت مرتفع ، وقال : اعملنا التفكير بسرعة انا واصدقائي الضباط المصريين ، واهتديت الى ان خير وسيلة للاختفاء ان اتخلى عن لباس الجندية وان أرتدي زي البحـارة الذين اعتادوا ان يجروا حبال الوابور حتى ترسو على الشاطيء وهي المحاولة الوحيدة التي يمكن ان اخلص بها ــ وفعلا ارتديت ملابس البحارة ونزلت معهم النهر وحملت على اكتافي الحبال التي تجر الوابور الى الشاطيء في الوقت الذي اخذ فيه الضابط الانجليزي وجنوده يفتشون الضباط والجنود واحدا بعد واحد بطريقة دقيقة جدا ، وقد التبس عليهم اخر ضابط مصري اسود اللون فظنوه (سيد فرح) فاعتقلوه وربطوه بالقيود الحديدية وعادوا به لمصر ثم تبين لهم اخيرا خطأهم !..

وتسللت من الشاطيء وانا بزي البحار (جلباب لبني اللون) وذهبت برجلي الى مدينة (اصوان) واعد لي احد الضباط المصريين تذكرةلركوب القطار من اصوان حتى بني سويف ونزلت بتعليمات مـن الاصدقـاء المصريين ــ عند ضابط مصري ــ ومنه اتجهت بتخطيط منهم الى القاهرة على ان انزل في محطة امبابه ، وهناك لقيني شخص متفق عليه ، والتعليمات التي كان يحملها الي أن نمشي برجلينـا من امبابه حتى سيدنا الحسين في القاهرة وبعد اختفاء هنا وهناك ، رأى اصدقائي الضباط ان خير مكان أختفي فيه منزل ضابط في الحرس الملكي اسمه (خليل صابر الكاشف)

ولكن اوشك امري ان ينكشف ، فقد كان الانجليز واعوانهم يبحثون عني في كل مكان لينفذوا في حكم الاعدام رميا بالرصاص ... وقد لفت (امين هيمن) الذي جاء للخرطوم بامر الملك نظر ضابط الحرس الذي كنت أختفي في منزله بان الشبهات اخذت تحوم حول داره ، فغادرت دار ذلك الصديق الشهم وسافرت مشيا على الاقدام من مكان الى مكان حتى قررت اخيرا ان انضم الى ثوار ليبيا الاحرار الذين كانوا يحاربون الطليان المستعمرين لبلادهم ، وكنا على علم بانباء هذه الثورة بقيادة عمر المختار .

سرت برجلي مدة عشرة ايام ، اسير بالليل وأختفي بالنهار وقد ارتديت زي (اعرابي) وكان كل ما معي مبلغ ١٢ جنيها مصريا فقط ... واعانني ضابط مصري كنت اعرفه من السودان فاخذني معه وكان في دورية ــ الى واحة جغبوب ــ باعتباري اعرابيا مسكينا يستحق مساعدة الترحيل ... وواصلت السير بعدها حتى وصلت الجبل الاخضر في ليبيا حيث كـان يعسكر الثوار الليبيون بقيادة عمر المختار الذي رحب بي كثيرا وقضيت سنة كاملة اعمل سكرتيرا له .

ثم قدت سرية حربية من الثوار ، وكنت قد رقيت الى منصب البكباشي الى موضع يسمى (سرت) واوشكنا ان نقع في كمين ايطالي نصب لنا اذ أحطنا بقوات من الجانبين ... ولكن الله نجانا ، فانسحبنا الى منطقـة تقع على بعد نحو ثلثمائة كيلو من سرت على حدود السودان الفرنسي ، وقد ظللت أعمل في صفوف ثوار ليبيا من عام ١٩٢٥ حتى عام ١٩٣١ .

وافاض في الحديث عن تلك الفترة التي ساهم فيها مع ثوار ليبيا . وكنت استمع اليه في شغف وكنت ايضا افكر في هذا النضج المبكر لتفكير ثوار ١٩٢٤ . وكيف انهم وضعوا اللبنات الاولى لتحقيق معنى الوحدة الثورية العربية ، وان هذه الشعارات التي يرفعها اليوم الثوار العرب في كل مكان ، كانت حقيقة ماثلة حية نابضة لدى ثوار ١٩٢٤ .

وسيد فرح بعـــد ان يشعل نار الثورة مـــع رفاقه ضد الانجليز في السودان ويروي بدمائهم ارض بلاده ، ثم يضطر للاختفاء يتجه بكل طاقاته ليشترك في ثورة اشقائه العرب في ليبيا ضد الاستعمار الايطالي ويرى في هذا الاشتراك امتدادا طبيعيا لثورته في السودان ضد الاستعمار الانجليزي فالاستعمار واحد ، والعرب اشقاء عليهم ان يتحملوا معا مسئولية الكفاح ضد هذا الاستعمار •

كنت أستمع لسيد فرح يحدثني عن كفاحه مع ثوار ليبيا وأنا مبهور بهذه المعاني السامية التي تجسدت امامي وقد حسبتها وليدة مشاعر اليوم مع هذا البعث العربي الجديد •

وقد انتهت ثورة البطل عمر المختار اذ تغلبت عليه ايطاليـــا بوفرة جيوشها وعتادها ، وشنق الشيخ البطل عمر المختار في الصحراء حيث كان يصول ويجول بشجاعة فذة مع قواته اليسيرة العدد والعتاد وبعد ان هز كيان الجيش الايطالي هزا وأفزعه رعبا ، وكان لصدى شنقه أثر عميق في قلوب العرب والمسلمين وانصار الحرية في كل مكان •

وعبر عن ذلك أمير الشعراء أحمد شوقي بك في القصيدة التي رثاه بها وجاء في مطلعها :

ركزوا رفاتك في الرمال لواء يوحي الى جيل الغد البغضاء

وعاد سيد فرح الى قرية من قرى صعيد مصر متنكرا مرسلا لحيته كثة وافتتح دكانا صغيرا في القرية بعد ان أنس اليه اهلها وتسمى باسم مستعار وتزوج من ريفية هناك ، وظل في هذه القرية محبوبا من اهلها ومن جاورهم حتى تم توقيع المعاهدة المصرية الانجليزية المعروفة في عام ١٩٣٦ • وكان من بين بنودها العفو عن جميع السجناء السياسيين •

قال لي سيد فرح انه فوجىء بجريدة الاهرام تحمل خبر الافراج عنه

مع سائر السياسيين في السجون والمعتقلات والهاربين وفوجيء ايضا اهل القرية باعلانه لشخصيته الحقيقية وشاركوه الفرحة ، وعندما قرر السفر بالقطار الى مصر احتشدوا في المحطة رجالا ونساء لتوديعه ، وفي مصر استقبلته الصحافة المصرية بترحاب بالغ ونشرت صوره في ملابسه التي كان متنكرا بها مرسلا لحيته وحيته في اعزاز واكبار ، واكرمتـــه حكومة مصر وكانت مكونة من حزب الوفد المصري الذي وقع المعاهدة ، وقابله مصطفى النحاس باشا رئيس الحكومة وتم تعيينه لمديرية اسوان ، وظل يعمل في هذا المنصب حتى حدثت ظروف في اول قيام ثورة الجيش المصري في يوليو ١٩٥٣ . وأدت تلك الظروف الى احالته للمعاش .

وفي خلال فترة تعيينه مديرا لاسوان جاء للسودان عدة مرات والتقى في فرحة ــ كما قال لي بمن وجدهم على قيد الحياة من زملائه ثوار عام ١٩٢٤ ومن اهله واخوانه وعارفيه وقد انتقل الى جوار ربه بعــد هذا رحمه الله .

في طريقه لمصر ليتعالج

عندما نشبت ثورة ١٩٢٤ الوطنية لم أكن ــ وابناء جيلي ــ في السن التي تسمح لنا بالمشاركة الفعلية في احداثها ولكننا كنا نتتبع اخبارها بوعي لا بأس به اذ كانت حديث الناس من حولنا تستأثر بكل اهتمامهم وتقديرهم وكان اسم علي عبد اللطيف على كل لسان يرددونه بكل معاني الاعجاب والاحترام ، وكان أقصى امانينا ان نرى هذا البطل الذي اشعل نار الثورة ضد الانجليز .

ونعرف ان البطل أودع سجن كوبر هو ورفاقه وسيموا ألوانا من العذاب كان ذلك في عام ١٩٢٤ ، ثم رأى الانجليز امعانا في تعذيبه وتعريضه لخطر يقضي عليه ان نفوه عام ١٩٢٥ الى سجن واو ببحر الغزال ومعه من اصحابه عبيد حاج الامين الذي كان يعتبر « دينمو » الثورة . والضابط علي البنا الذي نجا باعجوبة من حكم الاعدام رميا بالرصاص مع رفاقه الضباط الثلاثة الذين نفذ فيهم حكم الاعدام رميا بالرصاص فعــلا في الخرطوم واستبدل الحكم عليه بالسجن ، ومحمد الخليفة عبد اللهالتعايشي ومحمد عبد البخيت ، واذا ما علمنا ان السجون في شمال السودان كانت في حالة سيئة للغاية فانا نستطيع أن نتصور كيف كان حال السجن في واو ببحر الغزال وكان ايضا من مرامي الانجليز في هذا الوضع ان تقتلهم الامراض المنتشرة هناك مع ضعف وسائل الوقاية فيها او انعدامها . ومع

الاسف العميق فقد أصيب البطل عبيد حاج الامين سكرتير جمعية اللواء الابيض وهو في سجن واو بالحمى السوداء وقضت عليه في عـام ١٩٣٢ وهنا احس الانجليز بسوء مغبة فعلتهم فأطلقوا سراح بقية السجناء الا علي عبد اللطيف فقد نقلوه مرة اخرى الى سجن كوبر بحجة انه اصيب بلوثة في عقله وانهم يريدون الحفاظ عليه كأنهم اوصياء او امناء على حياته وما كانوا يحملون له غير الحقـد والكراهية ، وفي عام ١٩٣٦ أبرمت المعاهدة الانجليزية المصرية التي كان من بـين بنودها العفو عن جميع المسجونين السياسيين ولكن علي عبد اللطيف ابقي في سجن كوبر حتى عام ١٩٣٨ اذ طلبت مصر ان ينقل اليهـا لتتولى رعايته والاشراف على صحته .

وفي هذا العام ١٩٣٨ كنت أعمل مدرسا بشندي وكان النادي في هذه المدينة يجمعنا كل مساء موظفين وتجارا واخرين وكان من بين من يتردد على النادي القائمقام يوسف سلامة طبيب المستشفى وكان من عادة الانجليز ان يضعوا المستشفيات ـ على قلتها ـ حيث توجد قوة عسكرية وكان الاطباء في هذه المستشفيات حتى تلك الفترة اكثرهم من اللبنانيين وكانوا يحملون رتبا عسكرية بحكم عملهم في مستشفى يعد عسكريا ، ويوسف سلامة هذا رجل طيب المعشر على قدر من الثقافة العربية وقد نشأت بينه وبين اكثر رواد النادي علاقة ود واحترام وفي هذا العام ـ ١٩٣٨ انتهت مدة خدمته فاقام له النادي حفل وداع تكريما له وكان قد أعد لسفره مكانا في (الاكسبريس) الذي يمر بمحطة شندي في طريقه الى حلفا ليواصل سفره بعدها الى لبنان عن طريق مصر ، وفي يوم الحفل وصلتـه برقية مستعجلة من المصلحة الطبية تطلب منه ان يحضر للخرطوم ومنها يأخذ قطار (الاكسبريس) في تاريخ حدد له الى حلفا ، وظننا ان المصلحة الطبية تريد هي ايضا ان تكرمه لانه كان اخر طبيب لبناني يغادر السودان بعد ان قضى سنينا طوالا يعمل في مستشفياته .

وفي اليوم الذي حدد له للسفر من الخرطوم كنا جماعة مـن معارفه من رواد النادي نقف على رصيف المحطة في انتظار القطار الذي يقله لنودعه وكان الوقت في نحو الساعة العاشرة ليلا .

وعندما وقف القطار واقتربنا من عربة الدرجة الاولى . هالنا ان اسرع بالنزول من بابي العربة جنديان مسلحان يحرسانها ويمنعان مـن كانوا على الرصيف من الاقتراب منها فدهشنا لذلك ، ونزل الدكتور يوسف سلامه وجاء الينا ورأى الدهشة تتملكنا ونحن نسائله عما نرى .

فقال لنا : ان سر استدعائي للخرطوم هو ان اصحب علي عبد اللطيف من الخرطوم بحري حيث جيء به من سجن كوبر حتى ابلـغ بـه القاهرة ويستلمه مني المسئولون هناك .

وبينما هو يتحدث الينا برز من نافذة القطار رجل اسود اللون يلبس (جلابية) بيضاء نظيفة جدا ، حاسي الرأس مستدير الوجه .

فقال الدكتور : هذا هو علي عبد اللطيف .

ولولا الحراسة لدنونا منـه لنحييه بكل مشاعر المحبـة والتقدير والاحترام .

والتفت الينا علي عبد اللطيف وسألنا بصوت جهوري : هل هذه شندي؟

فأجبنا عن بعد : نعم .

فقال : اين فلان وذكر لنا اسما لم يعرفه اي منا مع اننا نعرف سكان شندي معرفة جيدة .

والتفت كل منا يسأل الاخر ان كان يعرف هذا الاسم فعجزنا عـن معرفته ولم نستطع الرد على سؤاله ، وظل وهو برهة قليلة يتطلع مـن نافذة القطار الى الناس وما بدا له من بيوت المدينة ثم عـاد الى مقره داخل القطار .

وسألنا الدكتور يوسف سلامه :

ــ هل صحيح ما قيل بان به لوثة عقلية ؟

فقــال :

ــ كان طول رحلته معي من الخرطوم حتى الآن يتحدث حديثا طبيعيا لا لوثة فيه ، ولكن كانت تبدر منه مرات تصرفات والفاظ غــير مستقيمة التفكير •

فسألناه عن أمثلة لذلك •

فقــال :

حدث ان قدم له (جرسون) القطار العشاء ووضعه عــلى المنضدة الملحقة (بالقمرة) ولكن (الجرسون) نسي او تعمد ان يقــدم الطعام دون ان يضع معه (الشوكة والسكين) ليتناول بهما ــ وكان الطعام على الطريقة الافرنجية ــ فنظر علي عبد اللطيف الى الطعام الذي وضع امامه ولحظ خلوه من (الشوكة والسكين) فصاح غاضبا في (الجرسون) بصوت مرتفع وقال له : (انك تحتقرني ••• انك تهينني •••) ثم قذف بالطعام كله على ارض المكان وهو ثائر شديد السخط بدرجة غير عادية••• هذه واحدة •••

اما المرة الثانية : ــ لقد اردت الخروج من باب (القمرة) وكان يجلس قريبا منه فلما دنوت صاح بي (لا تقترب مني ••• لا تلمسني ••• فانا رجل مقدس) •

فرجعت الى مكاني •

واقول انه لمن متصوفة الوطنية الذين تتجلى فيهم قداستها • وحتى تحرك القطار من شندي وودعنا صديقنا الطبيب لم نر على عبداللطيف مرة اخرى يطل من النافذة ، وانا ما زلت اشعر في تلك الدقائق اليسيرة التي رأيته فيها وسمعته يسألنا عن شخص مجهول لدينا بعد ان ادرك انه في

شندي هذه الدقائق اليسيرة كان لها أثر عميق في نفسي وما زال وجهه وصوته تترسب ذكرهما بالاعماق .

وما كادت تشرق شمس اليوم التالي حتى أخذنا نسأل عن الشخص الذي ذكر علي عبد اللطيف اسمه وعجزنا عن معرفته ، فعرفنا ان هذا الشخص كان جنديا يعمل مع علي عبد اللطيف عندما كان ضابطا مع الجيش في مدينة شندي ، وانه ترك الجندية وفتح محلا (للغسيل والمكوى) ثم توفاه الله منذ سنوات قبل سؤال البطل عنه ، فعجبنا لهذا الوفاء النادر فان علي عبد اللطيف لم ينس على بعد العهد الجندي الذي كان يلازمه ويخدمه .

وواصل القطار رحلته وحملت الينا صحافة مصر الاستقبال الحماسي الذي كان ينتظره بمحطة القاهرة من السودانيين والمصريين على السواء ولكن السلطات المسؤولة قدرت ما يمكن ان يسببه له هذا الاستقبال الحماسي من انزعاج واضطراب فأنزلته من القطار قبل ان يبلغ القاهرة وحملته بالسيارات الى المستشفى الذي خصص له لعلاجه وظل موضع الرعاية ومحاولات العلاج حتى توفاه الله في اواخر الاربعينات ودفن في مقبرة بالقاهرة ولكن عندما تسلمت الحكم ثورة يوليو ١٩٥٢ وكان على رأسها اتذاك اللواء محمد نجيب حتى قررت نقل رفاته من هذه المقبرة الى مقبرة الشهداء وتم ذلك في مشهد رسمي وشعبي تقدمته ثلة من الجنود ومشى فيه كل المسئولين وعلى رأسهم نجيب وزملاؤه وتبعتهم جماهير من الشعب المصري والسودانيين الذين كانوا بمصر ، ودفن في مقبرة الشهداء حيث ما زال مرقده واضحا .

وقد حملت لنا الصحافة المصرية أنباء هذا المشهد الوطني وعدة صور له .

وأخيرا وجد علي عبد اللطيف الهدوء والسكينة الابدية في مقبرة الشهداء بالقاهرة . رحمه الله .

تعصف به ريح الشمال

الزمان : عام ١٩٢٨

المكان : كلية غردون القديمة

الطالب علي كباشي بالسنة الثالثة قسم القضاء يمثل قضيـة المأساة التي عاشها ابناء ذلك الجيل في أقسى الظروف التي عرفهـا السودان تحت نير الاستعمار •

طوبى لابناء هذا الجيل وهم يتلقون العلم وعلم الحرية يخفق فوقهم•• وهم ينتقلون بين معاهد العلم في شتى انحاء العالم اينما اتيحت لهـم الفرص دون صد او تنكيل •

طوبى لهم !•• فقد باعد الزمن بينهم وبين تلك الفترة القاسية المريرة عندما كان الاستعمار يهيمن على هذه البلاد وينشر بين ربوعها جوا مخيفا من الارهاب والكبت والرعب !

ولا يتيح فرص التعليم الا في الحدود الضيقة التي أرادها ، فقد بنى سدا منيعا بين طلبة الكلية وبين التطلع الى معاهد العلم خارج السودان والى مصر بالذات التي كانت قلوبهم تهفو اليها بحكم الجوار ووحدة اللغة والدين والمشاعر وما نالته من تقدم فكري وحضاري ، فقـد كانت بحق قبلة آمالهم جميعا •

ولكن جزع الأنجليز وثاروا ثورة عنيفة عندما اخترق هذا السد لاول مرة طالبان سودانيان جسوران هربا الى مصر في منتصف العشرينات ليلتحقا بمدارسها ، فحرموا عليهم العودة للسودان ، ومنعوا اهلهماوذويهما من امدادهما باي عون مادي وأقاموا من حولهم العيون لترصد ان كانوا يرسلون بطريقة ما اي عون مادي لاولئك الذين اخترقوا السد وهربوا لمصر لتلقي العلم !.. وتلك هي جريمتهم الشنعاء التي أثارت المستعمرين وجعلتهم يقفون منهم ومن اهلهم هذا الموقف الصارم خوفا من أن يحذو حذوهم اخرون من الطلبة ... وأحكموا الرقابة على السد حتى لا يخترقه طالب جسور آخر !.. ولقد اخترقه الطلبة الجسورون مرات ومرات ، ثم اشتد ضغط الشعب باسره عليه عندما شمله الوعي وعزم عـلى استرداد حريته حتى لم يبقى للسد وبناته المستعمرين من أثر !

لو قيل لي ولابناء جيلي في العشرينات والثلاثينات اننا بعد ثلاثين عاما فقط سنطرد الانجليز من بلادنا وننعم بالحرية كاملة شاملة ، لعددنا ذلك حلما عذبا ومطلبا عسير المنال . ولكن المعجزة قد تحققت ، ولن يدرك أبناء هذا الجيل انها معجزة حققها هذا الشعب الابي ، الا اذا فتحت له صفحات ذلك التاريخ الاسود في تلك الفترة الرهيبة ورأى من خلالها كيف لقـي ابناء الجيل السابق من عنت وقسوة في اولى محاولاتهم لنشر الوعي .

في عام ١٩٢٨، وقد قضت اربع سنوات فقط على ثورة١٩٢٤ والانجليز ثائرون على الطبقة المتعلمة ــ على قلتهاــ بوصفها هي المحرك والمنفذ لتلك الثورة كان طلبة كلية غردون يجلسون في غرف الدراسة ، وقد قسموا ــ على قلة اعدادهم الى اقسام وفق الوظائف التي سيتخرجون لملئها فيمكاتب الحكومة .

كان بعض الطلبة قد تمكنوا من اختراق السد الحديدي كما ذكرت وهربوا الى مصر منتهزين فترة العطلات المدرسية ذات الاربعة اشهر ...

وكان على الكلية مدير استعماري بغيض اسمه يودال ... وكان لا يفتأ دائما يتحدث عن الطلبة الهاربين شاتما ولاعنا ومحذرا من الاقتداء بهم مذكرا بسوء المصير الذي ينتظر الهاربين !

في هذا الجو كان يجلس بين تلاميــذ السنة الثالثة « قسم القضاء الشرعي » ولم يكن هناك قسم للحقوق لتخريج قضاة مدنيين اذ ان هذه الوظيفة كانت محتكرة للقضاة الانجليز وحدهم ، كان يجلس في السنة الثالثة قضاة طالب اسمه علي كباشي من ابناء منطقة مركز ابو زيد ... وكما ذكرت وكان الطلبة يتحرقون شوقا لمصر طلبا للعلم في معاهدها بعد ان رأوا ان الكلية لا تقدم لهم تعليما يذكر ، وكانوا ينظرون في تقدير واعجاب للعدد القليل الذي تمكن من الهرب لمصر مخترقا الستار الحديدي المضروب عليهم ويرون فيهم ابطالا مثاليين ... وكان علي كباشي متأثرا بهذا الشعور السائد ، كان ينظم الشعر وهي الهواية الادبية التي كـان يمارسها اكثر الطلبة .

وذات يوم خطر له ان يعبر عن مشاعره هذه في ابيــات من الشعر ، يحملها شوقه الى الشمال « مصر » وان يحيي فيها اخوانه الابطال الذين هربوا والتحقوا بمدارس القاهرة ... واستطاع ان ينظم عــدة ابيات حملها هذه المشاعر .

كانت هناك في القاهرة في تلك الفترة مجلتـان ادبيتان يتهافت على الاطلاع عليهما كل مثقفي العربية ، احدى المجلتين «السياسة الاسبوعية» التي كان يصدرها حزب الاحرار الدستوريين المناوىء لحــزب الوفــد المصري ويشرف على تحريرها الكاتب المصري المقتدر المغفور له محمد حسين هيكل صاحب التأليف المعروف ومنها كتابه « حياة محمد » الذي كان عند صدوره موضع اهتمام وتقدير كل قراء العربية ، وصاحب قصة « زينب » التي تعد اول محاولة جادة للقصة المصرية الطويلة ... والمجلة

الثانية « البلاغ الاسبوعي » وكان يصدرها حزب الوفد المصري وكان من بين كتاب السياسة الاسبوعية اللامعين الدكتور طه حسين وكان في اوج شبابه ونشاطه كما كان من المع كتاب البلاغ الكاتب الشاعر ــ عباس محمود العقاد ــ وكان العقاد كاتب الوفد الاول .

وكنا ككل الشباب العربي المتعلم نرقب في شوق وصول هاتين المجلتين لنشتريهما ونقرأهما سرا ، فقد كان محرما علينا في الكلية قراءة الصحف المصرية ، ومن يعثر عنده على صحيفة مصرية يعاقب عقابا صارما ... الى هذا المدى كانوا يحاربون الثقافة العربية ممثلة في صحافة القاهرة التي تحمل مشعل تلك الثقافة ، ولم تكن في السودان غير جريدة واحدة هي « حضارة السودان » وهي جريـــدة الحكومة الرسمية وان كانت تحمل اسماء السادة الثلاثة السيد علي الميرغني والسيد عبد الرحمن المهدي والشريف يوسف الهندي كأصحاب امتياز لها ــ وهي الجريدة الوحيدة المسموح للطلبة بقراءتها علنا !

ولكنا كنا نتخذ الوانا من الحيل لنحصل على السياسة الاسبوعية والبلاغ الاسبوعي حال وصولهما للخرطوم يحملهما القطار مرتين فـــي الاسبوع ولم تكن هناك طائرات للسفر والنقل بعد .

وخطر للطالب علي كباشي ان يرسل قصيدته تلك لمجلة البلاغ الاسبوعي لنشرها في باب « ديوان الشعر » الذي تفرد له مكانا خاصا بين صفحاتها ... ولم يكن يدور بخلده ان قصيدته ستحظى بالنشر وانه سيترتب على هذا النشر النتائج السيئة التي حدثت فيما بعد .

ونشرت المجلة القصيدة ... واستطاع مكتب حكومـــة السودان في مصر ــ وهو مكتب يختار له دائما احد الانجليز الذين عملوا بالادارة في السودان ــ فعرفوه جيدا ــ ان يتصل بادارة المخابرات في الخرطوم ويحمل اليها انباء هذه القصيدة السياسية ، فقد كان من اولى مهامه ان يراقب

النشاط السياسي للسودانيين في كل المجالات لحصره وتوقيع العقوبات الصارمة على مرتكبيه !

وقبيل وصول القطار الذي يحمل الصحف ... جاء رجال المخابرات الى الكلية ليفتشوا عن كلي كباشي بعد ان أخطروا المدير المستر يودال بهذا الحدث الضخم ... وعرف الطالب وهم يتقدمون نحوه في الداخلية بانه سيفتش وبسرعة قذف باصول القصيدة الى طالب آخر كان بجانبه ، وشعر هذا بخطورة ما يحمل كأن الورقة ثعبان سام يتلوى بين يديه وليس قرطاسا من الورق ! فسارع الى غرفة مجاورة في الداخلية .

لم يجد جنود التفتيش شيئا عند علي كباشي فتركوه وانصرفوا لينتظروا في الغد وصول مجلة البلاغ الاسبوعي وهي تحمل « جسم الجريمة » كما يقولون لينكلوا به كما يشاؤون .

وفي منتصف النهار والطلبة جلسوا على مقاعدهم يستعدون الى مدرسيهم وفي السنة الثالثة قضاة كان يجلس ثمانية طلبة هم كل طلبة الفرقة ... جاء رسول مدير الكلية المستر يودال الى الفرقة ليستدعي علي كباشي للمثول بين يديه .

قطار حلفا يتهادى داخلا محطة الخرطوم ، ولا يدري احد من راكبيه ان القطار يحمل كارثة تحل بطالب في السنة الثالثة بقسم القضاة الشرعيين ولم يبق غير عام ونصف ليتخرج في وظيفة مساعد قاضي شرعي كبداية لمستقبله .

وجاء رجال المخابرات مسرعين بعد ان حملت اكياس البريد من القطار الى مكاتب البريد ليفحصوا اكياس الصحف المصرية ، وامتدت ايديهم الى مجلة « البلاغ الاسبوعي » ووقعت أعينهم على قصيدة علي كباشي ... واسرعوا بها الى المستر يودال مدير الكلية ووضعوها بين يديه ... وتحدث دهاقنة الاستعمار من مكتب السكرتير الاداري « ما يعادل وزير

الداخلية الآن » بالتليفون الـى المستر يودال منددين بمسلك الطالب مهاجمين ادارة الكلية على تهاونها في مراقبة الطلبة وتخويفهم من الاتجاه نحو الشمال !٠٠

الطالب عـلي كباشي يسير نحو مكتب مدير الكلية المستر يودال وبجانبه حارسه الصول فضل المولى الضخم الذي يخافه الطلبة ويسخرون منه في آن واحد ! فهو الذي يتولى توقيع عقوبات الجلد عـلى التلاميذ « بالتيله » وكان يوقعها في قسوة وعنف ٠

الطلبة في الاقسام منهمكين في الدروس ، ولا علم لهم بما يدور حتى الآن ٠٠٠ الطالب علي كباشي يقف امام المستر يودال الذي يحدق النظر فيه مبديا احتقاره وسخطه ، ثم ينهال عليه بسيل من الشتائم ، يعقبها باعلان قراره بفصله من الكلية فصلا نهائيا ! وترحيله في نفس اليوم بالقطار الى اهله في كردفان !٠٠ ويهم الطالب بالخروج ، فينهره ويأمره بالوقوف ٠٠٠ ثم يأمر الصول باخذه ليسجن في الغرفة العليا من مباني الكلية حتى يحين موعد أخذه للقطار بمحطة الخرطوم ٠٠٠

يساق الطالب في حراسة ليسجن حيث أمر يودال ٠٠٠ وينتشر الخبر رويدا رويدا بين الطلبة ٠٠٠ ولكن ماذا يفعلون غير ابداء الاسى والاسف؟ ويتجهون بانظارهم الى الغرفة في أعلى مبنى الكلية التي سجن فيها زميلهم ولا يستطيعون الاقتراب منها ٠٠٠ فقد كان ذلك محرما عليهم ٠

ويعلن الى كل الطلبة ان يتجمعوا في الميدان ليستمعوا الـى المدير وتجمعوا ، وجاء المستر يودال محتق الوجه ، وبادي الثورة والغضب ، ثم أخذ يخطب ـ استغفر الله ـ بل اخذ يشتم !٠٠

شتم أولئك الذين هربوا الى مصر ووصفهم بناكري الجميل ٠٠٠ الجميل الذي قدمه لهم الانجليز فعلموهم ، والى اهلهم فأمنوهم مـن خوف ! وتوجه الى الطلبة ايضا ببعض الشتائم ، ذاكرا افضال الانجليز

العميمة عليهم وعلى بلادهم ! وانهم لا يستحقونها ، وقدم قصة علي كباشي في الاطار الاستعماري الذي أراده ، وكلما ذكر اسمه شفعه باقذر الشتائم التي لا يرددها غير السوقة •

وبعد ان شتم الطلبة ، وشتم علي كباشي ، وأولئك الذين في مصر بما أرضى غروره واشبع حقده ، سمح للطلبة بالانصراف، الى الداخليات •

قطار الابيض يسير نحو الغرب يحمل الطالب علي كباشي محروسا بالجند ••• وقد ظن المسكين ان طرده من الكلية هو العقاب الوحيد الذي سيحل به ــ على قسوته عليه وعلى اسرته التي تعلق آمالا عراضا على توظفه بعد اكمال الدراسة ، وهي في هذا لا تختلف عن كل الاسر السودانية التي أرسلت أبناءها للكلية التماسا للوظيفة • ومن الابيض ارسل الطالب الى مركز « ابو زيد » مخفورا حيث أرسلت التعليمات الى مفتش المركز ليحاكمه •••

وامام المفتش ، وفي دكتاتورية غاشمة ، كان سمات كل رجال الادارة الانجليز في ذلك العهد ، حوكم علي كباشي بستة اشهر سجنا في الدرجة الثالثة مع حثالة المجرمين !

وقضى المسكين اشهر السجن ليجد نفسه بعدها محاربا في كل وجهة يتجه اليها ليعمل ••• كعادة الانجليز في ذلك العهد حيال كل من يقف امام سياستهم •••

وهذه هي ابيات الشعر التي أثارت الانجليز ، وانتم ترونها ابيات عادية المعنى ولكن الانجليز أرادوا بهذا العقاب الصارم ان يخيفوا الطلبة فلا يتشوقون الى مصر واخوانهم الذين هربوا اليها التماسا للعلم كما كان الحديث عن الحرية بالنسبة لهم جريمة نكراء ••• يقول علي كباشي :

قفي ورقاء الشمال فحدثينا   فمثلك من روى الاخبار فينا

فجودي لنـا باوصاف وحال — وعن اخواننا الخبر اليقينـا
أولئك فتية بذلوا قصارى — جهودهم وقد بذلوا الثمينا
ليحيوا امـة من بعـد موت — ويحيوا همـة العرفان فينا
ألم تروا الشعوب وقد تبارت — وفي طرق التقدم سالكينـا
وقـد عاش الجميع بلا قيود — وذاقـوا لـذة المتحررينـا
وانـا لا نزال عـلى قيـود — نعاني تحت حكـم الغاصبينـا
فحسبك ان اوطاني تنـادي — باعلى صوتهـا ـ يا منقذينـا

يا له من رعب كان يعيش فيه المستعمرون ، وهل في هـذه الابيات العادية ما يؤدي الى قسوة العقوبة على هذا الطالب من طرد من الكلية والسجن مع حثالة المجرمين ستة أشهر ؟! لولاء الرعب الذي أخفوه تحت ستار القسوة والجبروت ؟!

رجل من جزيرة توتي

توتـــي ...

جزيرة توتي ، مدينة صغيرة يفصلها النيل الازرق عن مدينة الخرطوم، ويلفها هذا النيل بذراعيه ، وقد يقسو عليها فيحاول اغراقها عندما يثور ويطغى وتعلو مياهه بفعل الامطار التي تهطل غزيرة في فصل الخريف ... ولكن اهل توتي الذين عرفوا بالشجاعة الخارقة يقاومون طغيان النيل في بسالة فذة ... انهم ينفرون الى شواطىء الجزيرة رجـالا ونساء ، شيبا وشبابا ليقيموا عليها السدود ، ويدخلوا في معركة قاسية مع الطبيعة ، فالنيل يرعد ويزبد في فيضانه ثائرا يهجم على السد الترابي ويفتح فيه ثغرات محاولا ابتلاع المدينة الصغيرة مثلما فعل بعشرات القرى والمدن التي تقع على شطئانه ابان طغيانه ... ويسرع اهل توتي الى الثغرات التي احدثها النيل في السد وينهالون عليها ردما ، وهكذا يدور الصراع المرير لايام عديدة ... النيل يثور ويهجم على السد كوحش ضار يريد الفتك بفريسته ، ويبدو له انه اوشك على الانتصار عندما يحدث ثغرات هنا وهناك ولكن اهالي توتي الشجعان سرعان ما يقلبون نصره الى هزيمة، ويسدون الثغرات في الحال ... ويبقون هكذا اياما عديدة يصلون الليل بالنهار حتى يصيب النيل الاعياء وتنحسر موجة طغيانه فيرتد عن شطآن توتي رويدا رويدا كبطل أثخن بالجراح في معركة عنيفة .

لقد صار موقف توتي البطولي كلما طغى النيل وهم بابتلاعها ، أغنية عذبة على شفاه سكان النيل كله !

وبمثل هذه الشجاعة ، بل باشد منها واكثر عنفا كان اهل توتي يجاوبون طغيان المستعمرين ، وكم لهم من مواقف ضد دهاقنة الاستعمار في الخرطوم الذين كانوا يتحرقون شوقا للاستيلاء على الجزيرة لحسن موقعها — واجلاء سكانها عنها ليبنوا في مكانها مدينة سياحية تجذب دعاة اللهو والمرح في شتى انحاء العالم .

لنعد بالذاكرة الى عام ١٩٣١ ، والانجليز يضيقون الخناق على المواطنين ويشيعون جوا من الارهاب وينكلون بكل من تسول له نفسه الوقوف امام سياستهم معارضا .

كان من عادة المفتشين الانجليز حكام المقاطعات أن يخرجوا صباح ايام معروفة من كل اسبوع في موكب رسمي على ظهور الخيل ومعهم مساعدوهم من الاداريين والمواطنين وعمدة المدينة ومشايخ الاحياء وعدد من الجنود لمضاعفة هيبة الموكب الرسمي ... وعلى كل شخص يمر بـه هذا الموكب ان ينهض واقفا ان كان جالسا ، وان يترجل ان كان راكبا ويؤدي التحية للمفتش ، ويظل واقفا رافعا يده بالتحية حتى يبتعد عنه الموكب ، فيعود الى ما كان عليه وويل للذي يتجاهل ركب المفتش فلا يقف محييا ، فان السيد المفتش يصليه الوانا من العقاب ، يبدأها اولا بسبه وتحقيره بالفاظ مهينة ، ثم يأمر الجنود بالقاء القبض عليه وايداعه السجن ، وقـد يظل المسكين في السجن اياما دون ان يسأل عنه ، وقد يطلق سراحه بعد ان يحاكمه بالجلد بالسياط او بالغرامة او بكليهما ! كل هذا لانه لـم يقف اجلالا للسيد المفتش الحاكم الانجليزي .

وبعض المفتشين يصدر في مثل هذه الحالات محاكمات غريبة ، كهذا الذي حدث لشيخ كبير باغته ركب السيد المفتش ، فلم يتوقف عن السير

ولم يؤد التحية المعروفة ايذانا بالخضوع والولاء ، فثار المفتش الطاغيةوكبر عليه ان يتجاهله ذلك الشيخ ، فامر الجند ان يلقوا عليه القبض ففعلوا ، فوضع المفتش حجرا على الارض حيث كان يقف هو ، وأمر احد الجنود ان يضع حجرا اخر بعيداً عنه ، ثم أمر ذلك الشيخ المنكود ان يجري ساعيا بين الحجرتين ، وعليه كلما بلغ الحجر الذي وضع حيث كان يقف المفتش ، ان يقف ويرفع يده بالتحية كما لو كان المفتش في ذلك المكان !.. ثم يعاود الجري الى الحجر الاخر ليبدأ مرحلة جديدة لتحية حجر المفتش !.. وأوقف احد الجنود حارسا للرجل وهو يجري بين الحجرين،ويحيي حجر المفتش كلما دنا منه ! وذهب المفتش وركبه ، وبقي الرجل يجري حتى خارت قدماه وسقط على الارض اعياء ... ولم تشفع له شيخوخته عند ذلك الفتى الانجليزي الامرد خريج جامعة اكسفورد، الذي أبطره الحكم ولقنه زملاؤه المستعمرون دروسا في اذلال الانسان لم يسمع بها في جامعته !

« مستر بن » مفتش مركز الخرطوم بحري ، الشاب الانجليزي المزهو بمنصبه والذي تتبعه جزيرة توتي الباسلة ، يخرج في موكب الصباح المعتاد ، ليذل الناس ويشبع كبرياءه وغروره ، يتظاهر بحب النظام وحمل الناس على اتباع القوانين فاذا ما وجد مخالفة يسيرة تافهة ، أرغى وأزبد، وهدد وتوعد ونكل ، والذين معه في موكبه لا يعترضون له أمرا ولا يخالفون له قولا .

ومن جزيرة توتي خرج الشيخ « علي محمد ضو » على حمار أعرج وقد حمّله بضعة مقاطف مليئة بخضروات مزرعته ليبيعها في سوق الخرطوم بحري ، وكانت هذه وسيلة رزقه في الحياة يمارسها يوميا .

الزمان عام ١٩٣١

ركب « المستر بن » يمر بشوارع سوق المدينة باحثا عن المخالفات

لمعاقبة مرتكبيها بل لاذلالهم ليتمتـع السيد المفتش بقدرته على التنكيل وليعمق في نفوس الناس الخوف من سطوته وجبروته •

الشيخ « علي محمد ضو » على حماره الظالع ، وعلى جانبيه تدلت مقاطف الخضروات وهو يمني نفسه ببيع ما يحمل والعودة لاسرته بقدر من مطالب العيش •

ركب « المستر بن » يقترب منه •• « مستر بن » يمعن النظـر في الحمار وهو يعرج بحمله والشيخ عليه •• يا لها من قسوة !•• وتتملكه عاطفة غامرة واشفاقا على الحمار !•• يا لله !•• كيف يحدث هذا الاعتداء الشنيع على الحيوان الاعرج المسكين في دولته القائمة على ازالة الجـور عن الحيوان لا الانسان !•

وثار « مستر بن » وانتفض ، وفي سعار مجنـون هجم على الشيخ الذي كان يسير غافلا عن كل شيء حوله ، ولعله كان يحسب ماذا يجني اليوم ان باع كل ما يحمل من خضار ، وماذا يؤدي بما يجني من الواجبات لاسرته وهو عائد اليهم من السوق ؟•

ونزل مسرعا عن حماره لدى سماعه صيحات المفتش الثائر المهتاج ، وسمعه يهدر قائلا : كيف تجرؤ أيها المجرم على ركوب هذا الحمار الاعرج وأن تحمّل عليه كل هذه المقاطف ؟!••

وقف ركب المفتش بجانبه ، وكلهم صامت حائر ، وقد يكون منهم من ثار في دخيلة نفسه وانفعل ، ولكنه لا بد من أن يكظم غيظه و لايبديه خوفا من أن ينكل به المفتش ، وأقل ما يفعله أن يفقـده وظيفته في زمن كانت وظيفة الحكومة مورد الرزق الوحيد الذي يتهافت عليه الناس ، وطوبى لمن يحظى بها !•

وقف الشيخ بجانب حماره يتلقى وابلا من شتائم المفتش وتقريعـه اشفاقا على الحمار المظلوم !•

ولم يشبع غرور المفتش وحاجته للبطش بالناس الذين ألقاهم القدر تحت سيطرته سيل الاقذار الذي صبه على الرجل الشيخ ، بل اتجه تفكيره الى تصرف شاذ غريب لم يسمع به أحد من قبـل على كثرة التصرفات الشاذة التي يقوم بها الحكام المأفونون ..

أمر أحد الجنود الذين كانوا يرافقونه أن يرفع السرج عن ظهر الحمار وينزل عنه مقاطف الخضر ، وأن يضع السرج على ظهر الرجل ــ الشيخ علي محمد ضو ــ وأن يضع المقاطف على ظهره أيضا كما كانت على ظهر الحمار تماما ! أي أن يحمل الشيـخ ما كان يحمله الحمار نكاية وعقابا واذلالا !

وذهل الموجودون ، لقد نفرت نفوسهم من هذا الحكم الشاذ ، ولكن السيد المفتش لا رد لحكمه .. ويتقدم الجندي لتنفيذ الامر .

ولكن الشيخ الابي ، ابن توتي الباسلة ، يعلن للمفتش رفضه للحكم ويحدجه بنظرات قاسية تجسد فيها كل غضبه ومقته ، وكرامته وعزته ، ويقف أمامه متحديا في شموخ وشمم .

ويثير الموقف فضول الناس الذين أخـذوا يتدافعون ليعرفوا ماذا حدث ، وفيم ثورة المفتش ؟

ويحتدم غضب المفتش ، فيحاول أن يضرب الشيخ بسوط في يده اذ كان يمتطي حصانا ، فقد كبر عليه موقفه ، ولكنه سمع في هذه الآونـة همهمة ترتفع الى هدير صاخب من الجمهور الذي أحاط به ، لقد تملك الناس المجتمعون صولة الغضب وهم يرون المفتش يريد اذلال الشيخ بأن يسرجه ويحمله مقاطف الخضر بدلا من الحمار ، ويهم بضربه بالسوط .. ويتبين المفتش الشر باديا على الوجوه .

وأحس المفتش بخطورة ما يحدث حوله وقد كثر تجمع الناس واستبان الغضب والثورة على وجوههم ، وقد أكبروا في الشيخ اباءه ورفضه للحكم

في شجاعة، وتحديه للمفتش الذي لم يعهد تحدي احكامه من أحد من قبل.

عجل « المستر بن » بالتحرك من مكانه خوفا من انفجار مشاعر الغضب وأمر الجنود بالقاء القبض على الرجل وايداعه السجن ، وارسال الحمار للطبيب البيطري ليرعاه !!

واقتيد الرجل الى السجن .. وازداد تجمهر الناس وسرعان ما نقل الخبر الى أهل توتي الاشاوس ، وما كان أروع ما فعلوا ، تدفقت جموعهم كالسيل الهادر ، وأحاطت بالسجن تطالب باطلاق سراح الرجل ، وطوق بعضهم المركز حيث يجلس المفتش في مكتبه ، وشملت المدينة ثورة لم تشهدها من قبل منذ ثورة عام ١٩٢٤ .

وتوالت البرقيات المستعجلة تحمل الاحتجاج والغضب الى حاكم السودان العام ، والى كبار معاونيه ـ كالسكرتير الاداري والقضائي ومدير المديرية ، وعلم هؤلاء بثورة الجماهير في الخرطوم بحري ... وأوشك الناس أن يفتكوا بالمفتش لولا ان تدخل أحد الشيوخ الاجلاء وهو عمدة توتي المغفور له الشيخ أحمد ابراهيم ، فهدأ من الموقف الجماهيري قليلا وأسرع واتصل بكبار المسئولين ليطلقوا سراح الرجل في الحال .

وأصدر السكرتير القضائي أمره باخراج الرجل من السجن الذي كانت تحاصره جموع شعب توتي وبحري ، وتسلمته الجماهير الهادرة وعادت به منتصرة الى جزيرة توتي ، بعد ان أذلت كبرياء « المستر بن » الشاب الانجليزي المغرور الذي أراد أن يعامل الانسان بأدنى مما يعامل به الحيوان .

وشعر رؤساؤه الكبار بأن تصرفه أوشك أن يحدث لهم ثورة عنيفة ما كان أغناهم عن حدوثها ، فنقلوه في نفس الوقت الى مدينة أخرى وقد تلقى درسا قاسيا ، وصفع شعب توتي غروره وكبرياءه صفعة عنيفة ردته الى صوابه ان كان له صواب !

فن كبوشيه يغزو العاصمة الوطنية

أوليس للفن في هذه الذكريات عن مجتمع الثلاثينيات ؟ بلى ان له مكانا عظيما فقد ازدهرت الاغنية السودانية في عهد الثلاثينات ازدهارا عظيما ، وضاعف في ازدهارها وانتشارها هذا الفنغراف أعجوبــة تلك الفترة الذي أخذ ينشر في المقاهي والمنازل ويدخل القرى النائية مع الجلابة والموظفين مثلما انتشر الراديو الآن وقد تسابقت شركات تسجيل الاسطوانات في عقد الاتفاقيات المغرية مع كبار المطربين أمثال ود الماحي وكرومه وسرور والامين برهان وابراهيم عبد الجليل وشقيقه التوم وعلي الشايقي وعمر البنا وأولاد بري وأولاد شمبات وحدباي وغيرهم ... ولكن قبل أن نتحدث عن ازدهار الاغنية في الثلاثينات علينا ان نرجع الى الوراء سنوات وسنوات لنقف عند جذور هذا التطور ونتتبع نموه حتى نبلغ به هذه الفترة ...

جلست الى هذا الشيخ الوقــور الذي تمرست باستثارة أشجانــه وكشف أغوار نفسه في كتابي الملامح ؟ وهو يحدجني بنظره من فــوق عويناته وأنا أنثر أوراقي أمامه وأتهيأ للكتابة وعلى فمي ابتسامة أحاول اخفاءها جاهدا فهكذا عهدت نظرته الحادة هذه كلما جذبته للحديث عن ذكرياته .

قلت له : عد بنا الى عهد صباكم الباكر ، ولنعش لحظات في أجواء الغناء والطرب فترة بعد فترة لنعرف كيف بلغت الاغنية هذا المستــوى

الرفيع في الثلاثينات ، عهد الفنغراف الذي نقلها الىأكثر بقاع السودان.

وحدق في الفضاء مليا قبل ان يتكلم ، كأنما يحاول تصعيد صـور اندست في اغوار الماضي البعيد ثم انطلق صوته فيما يشبه الهمس وهو يقول :

بعد فترة المهدية ، وبعد ان استقرت الحياة في المدن ، وكانت أمدرمان كما هي اليوم العاصمة الوطنية التي تحمل مشعل التقدم في كل مجال لا تعرف حفلات الاعراس فيها غير نغمات الطنبور منبعثة من حناجـر فنانين تخصصوا في هذا النوع من الاداء ، يدعون الى كل حفل عرس يرقص البنات على كرير حناجرهم والذي يبعث أصواتا من الصدر منغمة ولا تحتـوي على أي نوع من الكلمات ، وأحيانا كانوا يصحبون هذا الكرير بكلمات منغمة من بقايا ما كان يتغنى به في عهد (التركية) قبل المهدية وظل متصلا في فترة المهدية ..

وكانت من أشهر أغاني التركية التي ما زال مجتمع أول عهد الحكم الثنائي يغنيها مع الطنبور ، أغنيـة ينسبها للشاعـر « ود مضوي » من العليفون يقول في مطلعها :

الروبانـه كـد سحابـه
حلـوه ولينـه قامـت دابـه
فاهـا يشبـه العنابـه
فهـا حالـي حـال اليانـه

وكان أشعر طنابرة تلك الفترة فتيان من أم درمان هما : الجقير ، حسن التوم ، وصمت قليلا يستجمع ذكرياته ، وأنا أعبث بالاوراق وأحط عليها بعض الكلمات من غير انتظام ، وتركته يتحدث على سجيته ، حتى لا ينفرط عقد ذكرياته ... وعاد صوته يهمس من جديد :

كان شعراء تلك الفترة يقتصرون على انشاء الدوبيت أو الدوباي

ويتبارون في انشائه وانشاده ويعبرون فيه عن تجاربهم الذاتية ، ولا شيء سوى الدوبيت .

وفي حوالي عام ١٩٠٠ جاء الى الخرطوم من كبوشية فتى أنيق وسيم وسامته تلفت الانظار ، أسمر اللون ، على خديه وشمان صغيران « درب طير » تضاعفان من وسامته على مفهوم الوسامة آنذاك ، مربوع القامة ، ليس بالبدين ولا الهزيل يلبس قميصا يتدلى الى ما بعد الركبتين قليلا ويتلفع بثوب تدلت في أطرافه خيوط دقيقة « مبرومة » مبالغة في الاناقة، ملابسه دائما نظيفة بيضاء ، مهذب ، حلو الحديث ، رقيق الطبع ، شديد الحياء في غير تصنع ولا غرو فوالده من رجال الدين والعلم المعروفين في منطقة كبوشية ومن حملة القرآن الذين يفد اليهم الطلاب من أماكن بعيدة ليحفظوا عليه القرآن ويدرسوا العلم ، وقد تلقى هذا الفتى الوسيم الانيق القرآن وقدرا من العلم من خلوة والده ثم عشق الغناء واذ كان يتمتع بصوت رائع يأخذ بمجامع القلوب . واسم هذا الفتى « ود الفكي » ... جاء الى أم درمان يحمل فنا جديدا وصوتا أخاذا ، متحملا في سبيل ذلك نقمة والده الذي كبر عليه ان يسمع ان ابنه صار مغنيا ... رغم انه يزاول مهنة بيع الخضار في سوق الخرطوم ، فما كان الغناء يومها وسيلة للرزق بل كان المغني يقف حتى عن تناول الطعام اذ ما دعي لبيت عرس ليغني ...

قلت لمحدثي ، عهدي بالعاصمة المثلثة ان تكون دائما مبعث كل نهضة جديدة ، ولكن اليوم اعلم ان أسس النهضة الفنية جاءت للعاصمة من الاقاليم بل من كبوشية وعلى يد ود الفكي ...

قال نعم .. فقد كان ود الفكي ، اذا ما دعي لحفل عرس ترقص فيه الفتيات جلس على كرسي ، او على طرف السرير الذي يجلس عليه الطنابرة ، وقد اختار مجموعة خاصة منهم تلازمه في هذه الحفلات أذكر

منهم (الجوخ) رحمه الله وهو من شبان أم درمـان وكذلك المرحوم محمد ود حامد من حي القلعة ، والصديق بابليك .

ويبدأ ود الفكي في قرع عصوين صغيرين يحملهما في يديه ، والناس صامتون من حوله ارتقابا لسماع صوته الحلو يغني ، وقد جلست الفتيات على حصائر فرش على الارض ووجوههن متجهة الى جدار الحصيرة ، فقد كان من سوء الادب أن يتجهن بوجوههن الى حيث يجلس الرجال .. وان كن يسترقن النظر في غفلة الرجال عندما تتعلـق أبصارهم بالفتـاة الراقصة ـ الى المغنين ...

وعلى توقيع نقرات العصوين اللتين تديرهما في براعة أنامل الفنان « ود الفكي » ينبعث صوته رائعا يغني الرمية لرقصة (التقيل) التي تبدأ بها الراقصة التي يختارها العريس من بين الفتيات الجالسات على الحصير، وكان هذا الاسلوب من الاداء الذي جـاء به ود الفكي من كبوشية ، جديدا على مجتمع أم درمان والعاصمة المثلثة ... فقد كان الرقص يؤدى على كرير الطنبور دون غناء يسبقه بهذه الصورة التي حملها معه ود الفكي من (السافل) .

قال وصوته يتهدج ، الا اسمعك بعض ما كان يغنينا ود الفكي آنذاك ونحن نكاد نحفظه بأبصارنا وقلوبنـا رجالا ونساء نحقق مع كل كلمة يغنيها بذلك الصوت الذي غلب ألبابنا بروعته ... قلت : لم تعد ما في نفس ، فقد أوشكت أن أطلب منك ذلك ... واندفع ينشره متمثلا راويه ود الفكي التي أخذها عنه الفنانون من بعده في هذه (الرميات) التي تسبق أكثر أغاني الحقيبة :

عشبة البانا الماحت أغصانا
في جوفي ... واجه ... نيرانا
نفس ... جيانـا

من صوارم عشبة البانا
حادة هنديها وسانة سنانا
من سهام العين أين ملجانا
ملكـــة اعوانـــا ....
الخواص والعوام يخشو من شانا
خيالها حيانا ....
من فروع المسك فاح جانا
اتبه منه أفكاري ذهلانا
مترف جسمك وضعه اعيانا
وزهرة الورد المروي بستانا
العشوق روحه تعبانا ...
خلي من البين لاذعه تعبانا
يا كريم اكتب ليمه ويانا

قلت له : لمن هذه الكلمات التي كان يؤديها ود الفكي .. قال انها لشاعر ينتمي أيضا لقرية كبوشية اسمه حسن سالم، كان من أشعر شعراء تلك المنطقة من انه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، كان يعمـــل في صناعـــة سروج الجمال وكان ود الفكي يردد أغانيه وربما سر اعجابه به انهما من موطن واحد وان كان يغني لغيره أحيانا ... كان ود الفكي اذا ما غنى أغنية تبعه الطنابرة يكرون بحناجرهم كريرا منظما يتخلله صوت ود الفكي صافيا رائعا يردد بعض كلمات الاغنية . والعصوان بين أنامله يقرعها على نغمات الطنبور محدثا بهذا أصواتا تتفق ونغماته وكرير الطنابرة، وللفتاة التي ترقص على هذه النغمات الدور الاول من رقصتها ويسمونه (التقيل) وتؤديه مرتين ثم تجلس لتستمع مرة ثانية لود الفكي يستهل ورد قصة (الخفيف) بأغنية جديدة ، بذلك الصوت الذي اسر به قلوبنا فينشد :

روحي ملهوفة
اسمعوا وصوفة
بالنظر خلاي ستي كيوفة
نفسي يا نفسي انت مشغوفة
ارجعي وأمرك قالوا لا يشوفة
روحي عياها ...
النضير الدر من ثنياها
المسك عرفه ونشره من فاها
تأخذ الابصار ستي محياها
عني محجوبة
ابتلت عقلي بابتلا ايوبا
كادت أعضاي فرقها يذوبا
نعم للحازو الوهرة يحيوبا
السلام سيرة ...
يسري يسبق الطيرة
يوصلوا ويرضي وجهها النيرا
تقبله وتثني علينا بي غيرة

وفي هذه الحفلات الراقصة التي كان يغني فيها ود الفكي كان يتسابق الى حضورها شعراء تلك الفترة ، وهم في أعمار مختلفة ليستمعوا اليه ، وقد أخرجهم فنه الجديد عن صناعة الدوبيت التي كان شغلهم الشاغل ، كنا نرى بين شهود هذه الحفلات ابراهيم العبادي ، وكان دون العشرين بقليل ويوسف حسب الله الذي سمي سلطان العاشقين ــ وابو عثمان جقود ومحمد ود الرضي ومحمد علي بدري ــ وعمر محمد علي وغيرهم ممن صاروا فيما بعد أساطين نهضة الفن الغنائي وقد كان ود الفكي مدرستهم الاولى التي غيرت اتجاهاتهم الشعرية وجددت مفاهيمهم لها .

قلت وأنا أجمع أوراقي وقد انتهت جلستنا الاولى أرجو تتابع أحاديثك وسرد ذكرياتك فأنا في حاجة الى المزيد منها ، ولم يرد ، انما أخذ يحدق في الفضاء ولعله قد تراءت له صور الماضي بكل مباهجها وحرارة شبابها .

وأدرت في ذهني صورا في الماضي البعيد لهذا الفتى الوسيم الانيق ود الفكي يغزو العاصمة من كبوشية بصوته الساحر وترانيمه العذبة ويدخل فنا جديدا على مجتمع الطرب فتلتف حوله الارواح والقلوب ، وتتعلق به الحسان ، وتأبى عليه تربيته الدينية ان يستغل اعجاب الحسان به ليعبث بهن ويلهو ... كان فتى حييا حتى وهو يغني للبنات ليرقصن فقد حدث رفاقه انه كان قل ان يرفع بصره اليهن ... كان يغني وهو خفيض البصر ... وتعبت يداه بعصوين صغيرين ينقرهما مع بعضهما ليحدث بهذا القرع موسيقى ساذجة توائم اللحن الذي يغني به ... والفتيات قد جلسن على حصير (سباته) وقد أدرن ظهورهن للشبان الذين يحلقوا حول ود الفلكي والطنابرة ليستمعوا للغناء ويشاهدوا الرقص ... وما يكاد الفتيان يشغلون بمنظر الفتاة الراقصة حتى تبدأ الجالسات على الحصير مسارقتهم النظر وقد ستر طرف الثوب كل الوجوه الا هذه العيون التي يديرونها في سرعة خاطفة بتفحص الشبان كأنما ركبت أحداقها فوق زئبق — كما قال المتنبي — وتشجي وتسحر هذه المسارقة في النظرات الشبان فيغني شاديهم :

تسرق عيونه بشيش   والنار تقوم في قشيش
اصبح محنضل عيشي   افداك وانت تعيشي

وقد ارتدين ثياب من الحرير وغير الحرير مختلفة الالوان ، بعضهن وخاصة الشابات المتزوجات يرتدين (ثوب الزراق) وهو ثوب متواضع كان كثير الانتشار زهيد الثمن ولكن الشاعر المبدع ابراهيم العبادي جعله من الثياب الغالية حين وصف من ترتديه بقوله :

الحشمة في تـوب الزراق
حرقت قلوب الناس حراق

تزهون به وهذا يذكرنا بالشاعر القديم (الدارمي) عندما أعرض عن الدنيا وتنسك وترك فتشفع به احد أصدقائه التجار بالمدينة وقد جاء بثياب كثيرة مختلفة الالوان ليبيعها كلها فاشترتها النساء الا الاسود منها ورجاه ان يقول شيئا يجذب نساء المدينة لهـذه الثياب السوداء فأنشأ (الدرامي) أبياتا انتشرت بسرعة وقال في مطلعها :

قل للمليحـة في الخمـار الاسود
مـاذا فعلتـي براهب متعبـد

فأقبلت النساء على القماش الاسود الذي تركن أولا ليصنعنه (ولم يبق لصديقه منه شيء)

والعبادي هنا فعل ما فعله الدارمي بالامس فيجعل من (ثوب الزراق) حشمة للفتاة تحرق القلوب شغفا .

ولنتأمل هذه الراقصة التي نضت ثوب الزراق أو الحرير عن رأسها وجيدها وهي ترقص مع نغمات الطنبور وحذاء ود الفكي ماذا ترتدي من الحلى آنذاك ... فعلى شعر (الرأس) دوائر من الذهب ينظمها خيط من الحرير الاحمر ويسمون الحلية (الشريفي) وقد تدلت مـن خلف الشعر (جدلة) طويلة من الحرير الاحمر خالطت الشعر وهو يموج من خلفها تبعا لاهتزاز رأسها وجيدها وهي ترقص ... ومن الاذنين تدلى خرصان مستديران من الذهب الخالص ، وفي الانف تعلقت قطعة مستديرة من الذهب (الزمام) ارتبطت بها قطع تشبه الازهار تمتد من الانف حتى ترتبط بالاذن ويسمونها (الرشمة) وعلى العنق استدارت ... (التيلة) الذهبية تزينها الوان من السوميت الصغير ، وقد تتدلى من الجيد حتى الصدر (سبحة) من السوميت والكهرمان يرافقها (حجاب) من الجلد

والسبور الرقيقة لدفع (العين) الساحرة التي تصيب هذا المجال بسوء وفي المعصمين سواران من الفضة يجاورهما سواران اخران صنعا من سن الفيل (العاج) وقد تزاملهما حلية أخرى تدار حول المعصم رسوة من خرز أحمر مطعم بالذهب ، وفي آخر الساقين حجلان ضخمان من الفضة يصدر عنهما رنين شجي كلما احتك قدماها عن عمد ـ خـلال الرقص لتحدث هذا الرنين الذي يثير المشاهدين ، فيقفزون لحلقة الرقص طمعا في (شبال) من الراقصة قد يكون ثمنه عدة سياط يمزق ظهره (العريس) الذي لا يفارق السوط يده ••• وقد يضع شرطا مسبقا للفتيان ألا ينزل لحلبة الرقص أي منهم ليأخذ الشبال الا اذا ضربه العريس عددا معينا من السياط ••• وما أحبها وأعذبها على قلوبهم وهم يعرون ظهورهم امام الفتيات ، وسياط العريس تنهال عليهم وهم أرسى من الجبال قدما ليثبتوا لهن شجاعتهم قد يكون حجل الفتاة من الولي الاحمر ، بدلا من الفضة فيكون أكثر اثارة بمظهره الاحمر على ساقين مدحلجين سمراوين كما غنى لهذا الحجل سلطان العاشقين :

عقلي راح من لولي الحجول

ظل فتى كبوشية الاسمر الانيق يتربع وحده على عرش الغناء والطرب حتى قرابة عام ١٩١٨ وقد اختار له عددا من (الطنابرة) يسايرون الحانه واشتهروا بمرافقته في ليالي الاعراس الراقصة ولكنه لم يعد في تلك الفترة يتغنى لشعراء منطقة كبوشية وحدهم فان الجيل الناشيء من شبان شعراء العاصمة الذي كان يستمع اليه اولا في دهشة واعجاب أخذ ينشيء الاغاني ويصوغها متأثرا بما قدمه ود الفكي ، لقد زحف الى ميدان الجديد الفنية ابراهيم العبادي ، ومحمد ود الرضي ويوسف حسب الله سلطانالعاشقين كما كانوا يسمونه ومحمد علي عثمان بـدري ، وعمر محمد علي وابو عثمان جقود وغيرهم ووجد ود الفكي في شعر هؤلاء الشبان ما أثرى لياليه الراقصة وضاعف من بهجتها وحيويتها •••

ومن الافق البعيد أطل وجه صبي صغير ساحر النغمات . كان يتغنى في عفوية وهو يخترق طرق أم درمان فيسترعي شدوه أسماع المارة ... وسمعه مرة الشاعر ابراهيم العبادي وهو يعبر الطريق فاخترق أذنيه صوت الصبي الصغير نديا ساحرا فتوقف يتابعه بكل حواسه، ثم استوقفه وسأله عن اسمه ... فاجاب محمد احمد سرور ... كان ذلك في غضون عام ١٩١٦ وفتن العبادي بصوت الصبي الناشيء ولقنه أبيات من الدوبيت ليتغنى بها ، وفرح الصبي بصحبة العبادي الشاعر الشاب الذي يغني له ود الفكي أمير الغناء والطرب آنذاك ...

وغاب سرور في الجزيرة لفترة وعاد الى أم درمان في عام ١٩١٨ وقد اشتد ساعده وصار أكثر شجاعة لمواجهة عالم الطرب والغناء .

وجلس سرور يغني في حلبات الرقص ... بنفس أسلوب ود الفكي يبدأ بأغنيات قصيرة (رميات) ثم يعقبه الطنابرة وقد كون فريقا منهم ، أسوة بود الفكي ... وصعار شعراء أم درمان ـ ممن ذكرنا يمدونه بقصائدهم التي ينظمونها على غرار أغاني منطقة كبوشية ، كما جاء بها ود الفكي . وصعد نجم سرور في ليالي الطرب ولفت اليه الانظار ، وأخذ نجم ود الفكي يخفت رويدا رويدا ليخلي مكانه للنجم المتألق الجديد . وحتى الآن فان طابع ود الفكي هو الذي كان يسود فن سرور وطنابرته وشعراء رغم ان أم درمان أخذت تنتزع قيادة الطرب من السافل فالمغني والشعراء والطنابرة كلهم أصبحوا عاصميين . الهدف وحدها هي التي لعبت الدور الاول لكي تنفصل الاغنيــة عن الطنبور ويؤدي الفتيــان الرقص على نغماتها دون حاجة الى طنابرة ... كان ذلك عام ١٩٢٠ في زواج التاجر المعروف بشير الشيخ في أم درمــان فقد تجمع الشبــان من الجنسين لاحياء حفلة رقص كالمتعارف آنذاك وجاء سرور وفي رفقته صديقه الفنان الامين برهان ، استعد سرور ليبدأ (رمياته ...) ويتبعه الطنابرة الذين سامروا في تلك الليلة على سرور وقرروا الا يطمبروا معه ،

لانه اختلف معهم في الطريق الذي يؤدي بها رمياته خلال الطنبور كان سرور ينزع للتجديد بطبعه ، وهم يريدونــه ان يلتزم بالمتعارف آنذاك ... الفتيات جالسات على الحصير (السباته) في انتظار ابتداء الغناء والطنبور وأصدقاء العريس يملأون الدار ، وسرور حائر ماذا يفعل وقــد أصر الطنابرة ألا يسايروه مكايدة منهم ...

وقف ابراهيم العبادي مرتجلا هذه الابيات مسجلا فيهــا احتجاجه على موقف الطنابرة ، مستبدا بكرم العريس وأهله ...

جزاهم الله خير كل الحساب حسبولنا
جابولنا الكراسي وفي الوساع نصبولنا
من جهــة الكرم كادوا ان يجبولنــا
ما خلــو لفاش الا الطنابرة ابولنــا

وهنا طلب المجتمعون من سرور ان يغني لهم دون طنبور ، وغنى سرور وسانده الامين برهان وكانت مفاجأة سارة عندما قامت فتاة جريئة، وتفضت التوب وأخذت ترقص في رشاقة على نغمات سرور وبرهان ، دون طنبور وكان هذا اول حدث من نوعه وتتالت الفتيات يرقصن في تلــك الليلة السامرة ، على نغمات سرور وبرهان وقد أبدعن أيما ابداع ، وكانت أغنية وقعت عليها اول بنت من كلمات العبادي مطلعها :

وقفت شيء عجيب في الدارة
وأسفرت اللثام عن الدارة
تتختل دلال وقدارة
وسهم الحاظها ما بدارة
جان تتمايل المرجونة
نديان خدها الطربانا
زي الزهرة في ابانا

وفي تلك الليلة ولد عهد جديد لفن الغناء السوداني فقد خبر الطنبور في العاصمة الوطنية نهائيا ، وظل سرور طوال أيام ذلك العرس يغني مع زميله برهان والفتيات يرقصن على الحانه وصديقه برهان والمعجبون بهذا اللون الجديد يتزايدون ، ومن ثم صار هذا هو طابع ليالي الافراح ، وفي الليلة التالية ، تخليدا لذكرى العرس الذي أتاح للفـن السوداني ــ بفعل الصدفة انطلاقـة جديدة خلصته من اسار الطنبور ، تغنى سرور بقصيدة ابراهيم العبادي في زواج صديقه السيد بشير الشيخ ومنها :

حفلة بشير ما أعجبا
(بسرونا) أسفر حاجبا
لو نوهب الارواح جبا
ما ظن تقدم بي واجبا
السامة أزهار نوعت
أغصانها حين تصنوعت
طيب والقلوب اتلوعت
مما دانه وما وعت
كم فيها بانة ترتعت
من روح طبع ما تصنعت
ماذا عسى تحكي النعت
في ذي الغصون الا ينعت
ليله قدر ياما صوت
خيرات ، فراح اترون

ومن تلك الليالي التي فعل فيها ذلك العرس بشدو سرور وبرهان دون الاستعانة بالطنابرة ، اتجه فن الغناء وجهة جديدة قادها سرور ، وغذاها بكل مشاعره وطاقاته وتلاشى الطنبور شيئا فشيئا وارتفع مستوى الاغنية كلمات ولحنا واداء وبلغ أحسن ما بلغ في الثلاثينات .

حول رئاسة نادي الخريجين بأم درمان

يقينا ان الجيل الحالي والاجيال القادمة لن يدركوا تماما مدى القداسة التي كان يشعر بها أبناء جيلنا نحو نادي الخريجين بأم درمان .

كان هذا النادي بمثابة البرلمان ، يسعى كل خريج لنيل شرف عضويته، من كان في العاصمة ومن كان في الاقاليم ، اما خريج العاصمة فيدفع عشرة قروش شهريا ليستمتع بعضوية النادي كاملة ، اما خريج الاقاليم فيدفع نصف هذا المبلغ ليكون له حق العضوية الفخرية ، وان يدخل رحاب النادي كلما جاء العاصمة في اجازته .

وكان النادي قد درج على الاحتفاء بكل فوج يتخرج في كلية غردون من الطلبة في اول كل عام ـ وقد كان شهر يناير هو مستهل العام الحكومي .

وكان الطلبة في الفصول النهائية يتخرجون جميعهم موظفين في دواوين الحكومة ، فلا عطالة بينهم اذ كان المراد اصلا من تعليمهم ان يسدوا حاجة الحكومة للموظفين في مختلف مصالحها . ولهذا كان كل خريج يعرف أين يكون عمله عقب انتهاء الامتحان واعلان نتائجه . ومتى تم ذلك اقام لهم نادي الخريجين حفل شاي كبير جمع قدامى الخريجين في العاصمة ، والطلبة الخريجين الجدد ، وفي هذا الحفل يستمع الطلبة الى الخطباء من

اخوانهم الذين سبقوهم الى الخدمة وفي هذه الخطب يركز المتحدثون في اشعار هؤلاء الخريجين الجدد بمسئوليتهم الوطنية وهم يدخلون معترك الحياة لاول مرة ، يردد عليهم هذا المعنى نثرا وشعرا وفي أساليب مختلفة ، مع وحدة المضمون الذي ذكرت .

ويتحدث ممثلو الطلبة مؤكدين انهم قد عقدوا العزم على المضي فيخدمة بلادهم والوقوف بجانب اخوانهم الخريجين صفا واحدا لتحقيق هـذه الغاية ، ثم يقضون أمسيتهم في سمر شهي وينصرفون الى بعضهم البعض، وبهذا (يدشن) النادي ابناءه الجدد ويشعرهم بعظم مسئوليتهم .

ويتفرق الخريجون الجدد وفق حظوظهم في العمل الحكومي ، بعضهم يبقى بالعاصمة وبعضهم تشتته الوظيفة الـى مختلف اقاليم السودان ، ولكنهم جميعهم يلتقون بمشاعرهم عند نادي الخريجين الذي أقسموا فيه الولاء لوطنهم ، فاذا ما أتيح لاحدهم ان يجيء للعاصمة في اجازته ، كان اول ما يفعله ان يحج الى دار الخريجين ليجدد العهد مع رفاق الدراسة الذين فرقت بينهم وسائل العيش وفي النادي يجدهم في حلقات متناثرة ، بعضها في نقاش ادبي ، وبعضها يمارس بعض هواياته المفضلة من الالعاب، وقد تحلقوا هنا وهناك في رحابه ، الشيوخ في جانب ، والشباب في جانب بغير جفوة بينهم ، وقد أطلق بعض الشباب على شلة من كبار الخريجين آنذاك ، كانوا يجلسون في حلقة واحدة لا يتغير أشخاصهم الا نادرا ، نادي محمد علي ، وهو اسم نادي ارستقراطي في القاهرة كان يرتاده امراء وباشوات ذلك العهد وحدهم .

وكان كبار الخريجين من رواد هذه الحلقة قد بلغهم امر هذه التسمية فلم يضيقوا بها بل صارت موردا لنكاتهم الخاصة !

ولكن هذا الصفاء الذي كان يسود جو النادي ، بدأ منذ مستهل الثلاثينات يشوبه شيء من الكدر أخذ يستفحل شيئا فشيئا حتى انفجر

في ذلك الخلاف التاريخي الذي يعده الكثيرون نقطة البداية لكل الخلافات التي جرت بعد ذلك حتى تكوين الاحزاب السياسية بعد مرحلة المؤتمر ، وقد كان هذا الخلاف اجلى وضوحا في فترة المؤتمر ، ثم اكتمل عندما تبلورت الافكار السياسية وخرجت للناس سافـرة في صورة الاحزاب السياسية •

اما هذه البداية التي أتحدث عنها ، فقد ظهرت في أول أمرها في صورة خلاف حول رئاسة النادي لمن تكون ؟

لقد ذكرت في مستهل حديثي ان عضوية النادي كانت بمثابة عضوية البرلمان ، وان لجنة النادي كانت بمثابة مجلس الوزراء وان رئيس النادي يمثل رئيس مجلس الوزراء في مجتمع الخريجين لهذا كان التنافس بينهم شديدا لاحتلال مقاعد اللجنة التنفيذية والحظوة برئاسة النادي لان ذلك هو المظهر الاجتماعي الوحيد الذي يدلل على وضوح الشخصية وبروزها في المجتمع ••• وكان التنافس يسير احيانا هادئا ، واحيانا يأخذ بعض صور العنف دون ان يبلغ مرحلة العداء بين المتنافسين الذين ما تكاد تنتهي مرحلة الانتخابات حتى يعودوا الى ما كانوا عليه من اخاء ويتخذ كل منهم مكانه في الحلقة التي كان يغشاها ••• وتتعالى ضحكاتهم تعلن عن زوال رواسب الانتخابات من النفوس الا لماما ! ولكن هـذه المرة قد عنف الخلاف وبلغ مرحلة العداء السافر على النحو الذي سأفصله فيما بعد •••

ولعل من الخير ان أشير ان بداية المعركة ، التي تطورت في عنف فيما بعد ، كانت مجرد تفكير من عنصر الشباب الذي نال عضوية النـادي حديثا عقب تخرجه في الكلية ، وكانوا يجلسون معا في النادي ويتدارسون امره ، ولم يعجبهم ان تظل أسماء معينة محتكرة للجنة النادي فهـي التي تحوز الاغلبية في كل انتخابات وتتربع على كراسي اللجنة ، وكان رئيس الدورة في تلك الفترة المغفور له محمد علي شوقي •

كان هؤلاء الشباب يمثلون كما هو الواقع في كل جيل ، الصراع الفكري بين القديم والحديث ، فقد خرجوا للحياة العامة حديثا ، وفي أذهانهم الكثير من الافكار الجديدة التي التقطوها من الكتب ، وكلهم كانوا جادين في الاطلاع لتثقيف أنفسهم وقد انتظمتهم جمعيـات القراءة في أكثر من حي بأم درمان وكانت تعتمل في نفوسهم ثورة مكبوتة على كل الاوضاع السائدة وكانوا يرون في بعض كهول الخريجين الذيـن يتزعمون قيادة النادي ، وهي بالتالي تعني قيادة الخريجين ، كانوا يرون في بعضهم اعوانا للاستعمار ، لانهم كانوا يتباهون بصداقاتهم مع الانجليز الحاكمين ، وبعضهم كان متهما عندهم بانه ينقل الى هؤلاء الانجليز كل ما يهمهم معرفته عن احوال الخريجين كأفراد وكمجموعة ...

وسواء صح اتهامهم هذا أم لم يصح حول بعض من كان في عضوية لجنة النادي آنذاك ، فقد دفعهم حماس الشباب وفورتـه الى الدعوة سرا ــ بادىء بدء ــ بين زملائهم الاعضاء لكي يغيروا تكويـن اللجنة في اول انتخابات عامة تجري للنادي ، وأخذوا يعدون العدة لخوض هذه المعركة ...

ولم يفت ذلك على لجنة النادي التي كانت تعرف كل ما يدور حولها ولم يكن مجتمع النادي كبيرا الى الحد الذي تخفى فيه مثل هذهالاتجاهات ولعل الاعضاء لا يتجاوزون الخمسين عضوا ، كما قدر لي ذلك بعضهم ممن عاشوا تلك الفترة ...

من هذا التفكير المجرد لبضعة شبان متحمسين داخل النادي أرادوا التغيير ودعوا له سرا ولو لم يشفعوا دعوتهم باطـلاق التهم ضد بعض الخريجين لسارت معركة ذلك العام كغيرها من المعارك ...

ولكن شاءت الاقدار ان يتسع نطاقها وان تجر اليها أعـدادا كبيرة من الخريجين في العاصمة والاقاليم وان تكون نقطة الابتـداء لخلافات اتسمت فيما بعد بالعنف والعداء السافر ، ثم لبست ثوب السياسة عندما آن للناس ان يجهروا بالسياسة .

شوقيون وفيليون

قلت عن بداية المعركة قبل ان تستفحل ، ان تفكيرا طرأ على عدد من الشباب حديثي العهد بالتخرج ، ان يحدثوا تغيرا في لجنة النادي التنفيذية لما كان يساورهم من شكوك حول صلات بعض أعضائها بالانجليز الحاكمين وقد انتقل هذا التفكير الى أعضاء اللجنة فانتبهوا الى ما يدور في أذهان تلك الحفنة من الشباب . كان ذلك على ما يظن بعضهم في عام ١٩٢٩ .

ويبدو ان محاولة التغيير بدأت في نطاق ضيق في عامي ١٩٣١ و١٩٣٢ وبلغت أقصى عنفهـا في أول عام ١٩٣٣ ، وما مـن شك في ان هؤلاء الشباب يهدفون من وراء هذا التغيير الى تحقيق ما كان يدور في أذهانهم من مثل وطنية .

ولم يكن في استطاعة أولئك الشبان ان يدخلوا في منافسة شخصية للفوز برئاسة وعضوية اللجنة التنفيذية للنادي مزاحمين أولئك الكهول الذين تمرسوا بهذه المعارك ولهم من المؤيدين ما ينقص أولئك الشبان الذين كان يقف معهم بعض كبار الخريجين من رواد النادي .

وكان يقود الصف المسيطر على مقدرات النادي المغفور له محمد علي شوقي وله أصدقاء أقوياء يشدون من أزره ...

وتلفت أولئك الشبان ومناصروهم يبحثون عن خريج كبير يستطيعون ان يواجهوا به السيد محمد علي شوقي في معركة التغيير التي أصروا عليها

... ونظرة واحدة الى أسماء كبار الخريجين الذين كانوا يناصرونهم كافية لتهدينا كيف تم اختيار تلك الشخصية التي أريد الالتجاء اليها لقبول رئاسة النادي . اذ لم يكن غريبا ان يقع الاختيار على المغفور له فضيلة الشيخ أحمد السيد الفيل احد كبار رجال القضاء الشرعي آنذاك ...

وقبل الرجل ان يخوض معركة رئاسة النادي ضد محمــد علي شوقي وتجمع حول كل منهما مناصروه من مختلف الاعمار وكلهم من الخريجين يؤججون نار المعركة ، ولم يبق خريج واحد في العاصمة المثلثة بمنجاة من مطاردة أنصار العسكرين، كل يريد جذبه الى فريقه فمن كان مشتركا، ولم يسدد اشتراكه، سارعوا بتسديد متأخراته حتى يكون صالحا للتصويت، اذ كان من شروط الاشتراك في عملية الانتخابات ان يكون العضو مسددا اشتراكاته حتى آخر شهر ... ومن كان غير مشترك ، حملــوه على الاشتراك ودفعوا له رسوم الدخول والاشتراك !

وتحمس كل فريق في دفع التبرعات للوفاء بالتزامات المعركة المادية .

ونسدل الستار عن كثير من الحملات الشخصية التي أديرت خــلال المعركة حتى لا تنكأ جروحا طال عليها المدى بعد التئام !

وخرجت المعركة ــ كما سمعت ــ الى الاقاليم ، فقد أراد بعض أنصار المرحوم محمد علي شوقي ان يحصل على مشتركين من الخريجين خارج العاصمة ، وكما أسلفت القول فان دستور النادي كان يبيح ذلك وينظمه على نحو واضح .

ومن الجلي ان المعركة كانت تدور على اساس شخصي بحت بالنسبة لكبار الخريجين اذ لم يكن للسياسة أثر واضح في تلك الفترة كما ان الطائفية لم يبرز خلافها بشكل سافر يؤثر على المجتمع ، ويمكن القول ان هذه المعركة الانتخابية ــ كما سبق لي أن أشرت ــ كانت بمثابة المفتاح للخلاف الطائفي ــ بين الختمية والانصار الذي برز بوضوح بعــد ذلك

وشغل المجتمع ، ووقف أكثر الخريجين منه بمعزل ، بل حاربه أكثرهم بعنف ، وخاصة في صفوف الشبان وانخرط بعضهم في ركابه وكان له وقودا ... هذا بالطبع قبل ان تدخل الطائفية في المعترك السياسي عند قيام الاحزاب حيث انخرط الخريجون في سلكها وقد كان قيادها الحقيقي في أيدي قيادات الطائفية .

ومع هذا فأنا نلاحظ ان كبار الخريجين في معركة رئاسة النادي تلك كانوا من أصدقاء الطائفية . أتراه استمرارا لمعركة النادي ؟ أم ان قادة المعركة كانوا اصلا من أنصار الطائفية ــ كل حيث اختار موقفه ــ وعلى هدى هذا الموقف الطائفي دخل معارك المجتمع اولا ضد الطرف الآخر ، ثم المعارك السياسية عندما آن للسياسة ان تظهر .

وان كان الامر بالنسبة لكبار الخريجين من قادة تلك المعركة كان واضحا لنا من خلال معرفة أسمائهم ، الا انه بالنسبة للشبان الذين أثاروا معركة النادي أصلا ، وانضم اليهم من زملائهم ما انضم بعد ان استعر أوارها . لا يبدو لنا واضحا بل فيه كثير من المتناقضات اذا ما قسناه بموقف أولئك .

فانا نجد مثلا في معسكر المرحوم محمد علي شوقي ــ واسمحوا لي هنا أن أستعمل نفس اللفظ الذي كان يطلق عليهم آنذاك واشتهروا به ــ « الشوقست » نجد شبانا وقفوا فيما بعد مع المعسكر المضاد .

كذلك نجد ايضا في معسكر « الفيلست » كما سموا في ذلك الحين ــ شبانا اتخذوا موقفهم السياسي فيما بعد بجانب « الشوقست » .

وقد ضم حزب الامة في قيادته نفس الاشخاص الذين تعاون معهم هؤلاء الشبان في معركة النادي .

كما نجد في معسكر « الفيلست » شبانا حددوا موقفهم فيما بعد مع

المعسكر الاستقلالي بل كانوا العقول المفلسفة لسياسة حزب الامة والناطقين باسمه والمدافعين عنه على المنابر وأعمدة الصحف .

كما كان منهم ايضا ، أي « الفيلست » معسكر شبان أبي روف الذين اتخذوا موقفهم فيما بعد في صفوف الاحزاب الاتحادية .

وليس هذا الوضع بالغريب اذا بحثناه على ضوء تاريخ تلك الفترة ، فقد كان كل هؤلاء الشبان لا صلة لهم بالطائفية عندما حدث ذلك الخلاف وقد كانوا متأثرين كما قلت بالمثل الوطنية التي كانت تعيش في أذهانهم وقد وضحت بعض هذه الافكار الوطنية في حادث تمزيقهم لجريدة حضارة السودان الحكومية أثر مقال نشره رئيس تحريرها ولم يعجبهم . وعلقوا الجريدة الممزقة على لوحة النادي وكتبوا عليها بحروف بارزة « يا للعار »!

لم أجد من بين الكثيرين الذين استمعت اليهم من معاصري تلك الاحداث من يجزم لي بأن السيدين ـ السيد علي الميرغني والسيد عبد الرحمن المهدي ـ قد تدخلا بطريق مباشر في هذه المعركة بالذات ، ولكن كانت هناك شبهات . مبعثها كما أوضحت ان كبار الخريجين من قادة المعركة كانوا اما في عداد خلصاء السيد علي الميرغني واما في عداد خلصاء السيد عبد الرحمن المهدي ومما قوى من الاتهام الى حد ما ، ان كان من أكثر مناصري شوقي نشاطا وعنفا المرحوم محمد الخليفة شريف وصلة القربى بينه والامام السيد عبد الرحمن لا تخفى .

الخلاف الطائفي

بعد ان انتهت معركة النادي اخذ الخلاف الطائفي بين الختميةوالانصار يشتد ويعنف تغذيه عوامـل عديدة حتى صار شغل الناس الشاغل في تلك الفترة ومحور نشاطهم مؤيدين او مخالفين •

وقبل ان نستعرض مظاهر الخلاف في تلك الفترة يجدر بنا ان نعود أولا الى الجذور العميقة للخلاف بين هاتين الطائفتين الكبيرتين ، لانه من الخطأ ان نظن ان ما شجر بينهما من خلاف كان حديثا ووليـد الظروف الخاصة بفترة الثلاثينات وحدها •

الطريقة الختمية من الطرق الصوفية القديمة ، يرجع تاريخ دخولها السودان الى عهد السلطنة الزرقاء ـ مملكة الفونج ـ وقد جاء بها الى السودان السيد محمـد عثمان الميرغني الجـد الاكبر للسادة المراغنة بالسودان الذي ولد بقرية تسمى (السلامة) قرب مكة المكرمة وذلك في سنة ١٢٠٨ هجرية ، وتتلمذ على العالم الصوفي المعروف السيد احمد ابن ادريس ، ثم نزح الى السودان يحمل معه رسالة طريقته الصوفية ، وطاف بالحبشة وأرتريا ايضا ، وأسلم على يديه كثيرون وفي أثناء طوافه بلغ مدينة بارا ، فتزوج هناك •

وولد له السيد الحسن الميرغني وما زالت الدار التي ولد فيها موجودة وهي مقصد الزوار من مريدي المراغنة •

وعاد السيد محمد عثمان الى مكة وتوفاه الله هناك وهو في الستين من عمره ، في عام ١٢٦٩ هجرية ، وتولى شأن الطريقة من بعده ابنه السيد الحسن الميرغني ثم أبناؤه وأحفاده فيما بعد .

وقبل ظهور الامام المهدي كان السيد محمد عثمان والد السيد علي الميرغني يقوم بمهمة الارشاد للطائفة وقد انتشرت الختمية انتشارا واسعا في شمال السودان وأواسطه وشرقه .

وظهر الامام محمد احمد المهدي برسالته المعروفة ، وهي رسالة تهدف الى قيام دولة الاسلام والقضاء على حكم الكفار والخارجين على احكام الدين ، وفي سبيل تحقيق الهدف دعا المهدي الى نبذ الطوائف الدينية وان تتوحد كلمة المسلمين تحت قيادته لقيام الحكم الاسلامي .

وفي البداية كان هناك صراع طرفه بعض العلماء وقادة الصوفية اذ أنكروا على الامام محمد أحمد انه مهدي الله ، وحاولوا اثناء الناس عنه والا يلتفوا حوله ...

وكانوا يدافعون عن كيانهم الصوفي وقد أوشك ان يعصف به المهدي، وهذا ما حدث فعلا ، عندما انتصر المهدي ودانت له البلاد فلم يسمح لاي من اصحاب الطرق الصوفية ان يمارسوا طقوسهم ، ووضع هو راتبا دينيا ضمنه بعض الادعية المنسوبة للنبي « صلعم » وبعض آيات من القرآن الكريم ، ومنع تلاوة كل ما عدا هذا الراتب من طقوس الصوفية الاخرى وفي مقدمتهم الختمية وقد استطاع السيد محمد عثمان — والد السيد علي — ان يخرج بأسرته عندما رأى انتصار المهدي قد تحقق — عن طريق البحر من سواكن الى مصر ، وأسرت المهدية من بقي من أسرة المراغنة رجالا ونساء وعلى رأسهم السيد احمد الميرغني الذي كان يقطن كسلا وهو أخ السيد علي من والده ووضعهم تحت الرقابة في أم درمان مثل سائر الرجال ذوي الخطر الذين كان يخشى الخليفة من تآمرهم عليه وقد

تواتر ان الخليفة عبد الله كان يحسن معاملة الاسرة المرغنية وبالذات المغفور له السيد احمد الميرغني • وكان يثني على سلوكه وورعه •

كان الخلاف آنذاك بين المهدي والسادة المراغنة ومن (نحا) نحوهم من الصوفية وبعض العلماء خلافا دينيا طائفيا بحتا ، كانوا ينكرون عليه (مهديته) وكان ينكر عليهم طريقتهم في التصوف •

ولم يكن للخلاف هـذه المدلولات السياسية التي نفهمها اليوم ، كالاستقلال والحرية فالامام المهدي كان يهدف الى اقامة حـكم الاسلام ليس في السودان فحسب بل في كل بلد اسلامي يمكن ان تمتد اليهدعوته، ولهذا فان دعوته كانت أكثر شمولا وأوسع مدى من مفهوم الاستقلال والحرية كما نفهمها اليوم ولم تكن معروفة آنذاك ، انهـا دعوة اسلامية شاملة ومن اجل هذا كان يود ــ كما تقول بعض الروايات ــ ألا يقتل غردون بل يؤسر حيا ليفتدي به عرابي باشا اسير الانجليز في مصر وكان الامام المهدي يحارب حكم «النصارى الكفار» ليقيم مكانه حكما اسلاميا هذا من جانب ومن جانب آخر فانه قد شن حربا على كل الطوائف الصوفية ليجند كل المسلمين في صفه لتحقيق الهدف الاسلامي الكبير •

وكما هو معروف فان الخليفة عبد الله كان شديد الحذر والريبة في (جلابة البحر) وكان يأخذهم بمجرد الظن والشبهات ولم ينج من ذلك أبناء المهدي أنفسهم اذ اضطر الى نفيهم الى الجنوب مع آخرين وامتلأ سجن « السائر » بأم درمان بعدد غير قليل من العلماء وبعض الامراء والقادة وزعماء القبائل لان الخليفة كان يعتقد انهم يتآمرون عليه •

ولا أريد هنا أن أسرد كل التاريخ المعروف ، ولكني فقط أردت أن أرجع الى جذور الخلاف بين طائفتي الختمية والانصار حتى نصل بينها وبين الخلاف الطائفي الحاد الذي برز في الثلاثينات متخذا مختلف المظاهر الاجتماعية اذ لم تكن الحياة السياسية الحزبية السافرة قد ولدت بعد •

أخلص من هذا الى تأكيد الحقيقة التاريخية التي يعرفها كل من ألم بتاريخ فترة المهدية ، وهي ان الخلاف كان في أصله خلافا مذهبيا •

وبالرغم من ان الختمية وسائر رجال الطرق الصوفية الاخرى قد استكانوا وخضعوا لحكم الانصار ظاهريا خوفا من التنكيل بهم الا انهم كانوا يضمرون الانكار لدعوة المهدية ، ويتمنون ساعة الخلاص منها .

وهذا يفسر الى حد بعيد كيف ان معركة كرري لم تستمر غير بضع ساعات ، فقد أخلص أنصار الخليفة من آله وبني عمومته في الدفاع واستماتوا في الموقعة في شجاعة مذهلة ، في حين ان كثيرا من « الجلابة » الذين كانوا يتظاهرون بالولاء لحكم الخليفة عبد الله ، غادروا المعركة مسرعين بخيولهم نحو أم درمان مستقبلين العهد الجديد في كثير من الرضاء والفرح !

وبعد ان تمكن الانجليز من الاستيلاء على حكم السودان بعد معركة كرري مكنوا لرجال الطرق الصوفية من ممارسة شعائرهم بحرية (١) وأغدقوا على الكثير من مشايخهم النياشين « وكساوي الشرف الدينية » أسوة بكساوي الشرف الاخرى التي كانوا يمنحونها لزعماء العشائر والنظار والعمد والاعيان من المقربين منهم ورفعوا من مكاناتهم الاجتماعية وأدنوهم منهم وعرف الكثير من مشايخ الطرق الصوفية بالولاء لذلك الحكم .

ولكن من الانصاف لهم ان نذكر انه عندما اشتد الوعي الوطني وهبت الاحزاب الوطنية لتحرير البلاد وقف أكثر رجال الطرق الصوفية مع الحركة الوطنية وناصروها مما أدى الى رجحان كفة الاحزاب الاتحادية المناوئة للانجليز في اول انتخابات لاختيار اول حكومة وطنية وكانت الانتخابات تحت اشراف لجنة دولية يرأسها رجل هندي اسمه « سكومارسن » .

والحمد لله فان ذلك العنف في الخصومات بين الطائفية ومعارضيها كاد ان يتلاشى وما نحسب البقية منه تعمر طويلا .

---

(١) كان الامام المهدي يرى ان الطرق الصوفية بدعة مستحدثة لا يقرها الاسلام فمنع ممارساتها في عهده وكذلك فعل الخليفة بعده كاقتداء به.

الذي مهد لاضراب طلبة الكلية عام ١٩٣١

لقد أضرب طلبة كلية غردون ، ويا له من حدث رائع آنذاك سرى سريان الكهرباء ، فاهتزت له المشاعر طربا واشغافا ، طربنا لان الانجليز بعد ثورة عام ١٩٢٤ ، وبعد ان نكلوا برجال تلك الثورة ، فالضباط الذين قادوا المعركة الدموية ضد قوات الجيش الانجليزي عند كوبري النيــل الازرق ، أعدموا رميا بالرصاص في الساحة التي تقع غرب مدينة بري بعد ان دعــوا ــ استغفر الله ــ بل أمروا كبــار الضباط السودانيين الموجودين بالعاصمة وبعض الاعيان السودانيين ان يحضروا تنفيذ الحكم اذلالا وارهابا ، وجيء بالبطل علي عبد اللطيف مكبلا بالاغلال من معتقله داخل معسكرات الجيش الانجليزي ليشهد مصرع رفاقــه في الثورة ــ وسجناء الثورة ، ألقوا في غياهب السجون وقــد كبلوا في الحديد مع بعضهم في مجموعات ، فاذا تحرك واحد منهم تحرك الآخرون معه قهرا حتى ولو كان ذلك لقضاء الحاجة !.. ثم أدخلوا في الزنازين المظلمة القذرة .

ثم نقل قادة جمعية اللواء الابيض ، علي عبد اللطيف وعبيد حاج الامين ورفاقهما الى سجن واو في بحر الغزال لتنكل بهم الامراض هناك ولقد مات عبيــد رحمه الله متأثرا باصابته بالحمى السوداء ! وتأثرت أعصاب علي عبد اللطيف لفرط ما لاقى من القسوة !

وحسب الانجليز ، وقد فعلوا ما فعلوا بابطال الثورة ، وبكل ما كانت له صلةما بهم ، وبعد انتشروا جوا مرعبا من التنكيل والبطش والجبروت، حسبوا انهم خفتوا أصوات المتعلمين ، وقد ألقوا عليهم كل تبعات الثورة ـ وهذا حق ـ •

وانصرف الخريجون على قلتهم آنذاك ، الى تكوين أنفسهم ثقافيا فأنشأوا جمعيات القراءة في منازلهم ، ثم انتقلوا بها الى دور أنديتهم باسم « الجمعيات الادبية » يعدون أنفسهم سرا للملحمة التي قدروا انها لا بد ان تدور بينهم وبين المستعمرين •

حسب الانجليز في ذلك الجو القاسي ، الذي هيمنوا به على البلاد ان لن يرتفع صوت واحد ضدهم ولن يستطيع اي سوداني ان يقف في وجه أي قرار يصدرونه كما يشاؤون •

وأصدروا قرارهم نسبة للازمة الاقتصادية التي واجهتها البلاد في مستهل الثلاثينات بتخفيض مرتبات خريجي كلية غردون من ثمانية جنيهات في الشهر الى خمسة ونصف ! ولم يدر في خلدهم قط ، وما زالت أحداث عام ١٩٢٤ ماثلة والارهاب مسيطرا ، ان الطلبة سيقفون في وجه هذا القرار ويضربون عن الدراسة ويعتصمون بداخلياتهم ، متمسكين بالنظام والهدوء حتى لا يؤخذون بشيء من الاخلال بالنظام والامن يجعله الانجليز مبررا للتنكيل بهم ، وقد فوجئوا بهذا الموقف مفاجأة أذهلتهم ، وشلت تفكيرهم في تلك الآونة فحاروا كيف يتصرفون ؟ وماذا يفعلون ؟

وظل شباب الخريجين في العاصمة المثلثة يرقب الموقف في اشفاق واعجاب ، لقد أطل الفجر من جديد بعد ليل دامس غمرهم بعد احداث عام ١٩٢٤ ، وتكونت جمعية سرية من خيرة هؤلاء المثقفين لترعى الموقف ولتساند الطلبة سرا وتمدهم بما يحتاجون اليه في هذه المعركة ان دعت الضرورة الى ذلك •

ولنقف قليلا عندما قبل الاضراب ، لنتحدث عن الجو الذي كنا نعيش فيه كطلبة قبل هذا الاضراب بقليل •

لقد كان هم الانجليز الاول ان يخلقوا كل العوامل ، ان تذل نفوس الطلاب ويسحق شعورهم بالعزة والكرامة والوطنية بكل السبل وستصيب الكثيرين الدهشة البالغة عندما أذكر هنا بعض المحرمات على الطلاب في عهدنا • كان أول هذه المحرمات ان لا تذكر اطلاقا عندما تسأل عن جنسيتك ليدون في سجلات الكلية انك « سوداني » ! فتلك جريمة نكراء عقابها قد يمتد الى الحرمان من الدراسة بعد الضرب المبرح ، اذ عليك ان تسجل في الجنسية اسم قبيلتك فقط ، شايقي — جعلي — دنقلاوي ••• الخ وليس بخافي الهدف من هذا الاجراء ، وهو ألا يحس الطلاب بوحدة وطنية ، بل تعمق في نفوسهم التفرقة القبلية والعنصرية اذ ان هذه التفرقة لم تكن سياستهم حيال الطلاب وحدهم ، بل كانت شاملة تطبق على كل جوانب الحياة السودانية وخاصة بين القبائل المختلفة يخلقون شعور العداء والتفرقة بينهم بشتى الوسائل ، مما يطول الحديث عنه لو خضنا فيه بالتفصيل !

وكان محرما علينا قراءة الصحف المصرية ! كانت أشبه « بالافيون » اذ ما عثر على أي منها عند احد الطلاب ، ولكنا كنا نتبادلها سرا بعد ان نحكم اخفاءها داخل الكتب المدرسية !

ولهذا الحرمان اكثر من سبب من ذلك صرف الطلاب من الاتصال الثقافي والروحي والوطني باخوانهم المصريين وكانت كل البلاد العربية تتطلع الى مصر كرائد في الوطنية والثورة والثقافة ، وقد هبت ثائرة بقيادة سعد زغلول ورفاقه ، لتحرر وادي النيل من الانجليز الذين كانوا يعتبرون ثورة ١٩٢٤ في السودان امتدادا لثورة مصر ••• وهذا حق ايضا •

وقد بلغ بهم الامر في محاولاتهم لاذلال الطلبة ان وصلوا مرتبة

الاسفاف ، فقد حرموا علينا من بين ما حرموا الا يلبس الطالب « جزمة » في رجليه ! بل عليه ان ينتعل الحذاء الوطني « المركوب » او الجزمة الكشف ! ومن ذلك وكنا نستعمل في تحركاتنا في العطلات الاسبوعية الى أم درمان او الخرطوم بحري ترام البخار ، ثم ترام الكهرباء عند اول ادخاله في أواخر العشرينات . وفي كل من الترامين درجتان للركاب « اولى – ثانية » وويل للطالب الذي يرى جالسا في الدرجة الاولى ، انها جريمة يعاقب عليها عقابا بدنيا صارما .

أما الطعام في الداخليات ، فأنا أسميه طعاما تجاوزا ، ولو قدم للطلبة اليوم لما بقي واحد منهم في داخليته ، وكان من المحال أن تفتح أفواهنا محتجين على رداءته ، ويقسرنا الجوع على تناوله كارهين ، فانت لا تعرف أي خضار هذا الذي يقدم في قدر كبير من الماء الاخضر ؟ ولا ندري عندما يقدم لنا طبق الارز أهو أكثر قدرا أم الحصى ؟! الذي اختلط به ؟

كانت الوجبة الوحيدة التي لا بأس بتناولها « العدس » ونسر له متى قدم في الوجبات الثلاث ! وبالطبع لا شيء من الفاكهة او الحلوى يقدم بعد الوجبة ، وفي شهر رمضان كان بعض كبار السودانيين ، ومنهم المغفور له الشريف يوسف الهندي يتبرعون بمقادير محترمة من البلح فيجد كل طالب بجانب طعامه بضع بلحات ناشفة ليحلى بها بعد العشاء !

وكان اساتذة الكلية جلهم من الانجليز ، ومن الطرائف ان كنا نرى الواحد منهم ينقل من منصبه كمدرس في الكلية ، الى منصب مفتش مركز! وقد يحدث بالعكس ، ان يجاء بمفتش مركز ليكون مدرسا بالكلية وكان السائد ان الانجليزي يصلح لكل وظيفة !

وكان لكل داخلية رئيس انجليزي من بين هؤلاء المدرسين يوقع العقوبات على الطلبة في ضراوة وقساوة ، اذ ان عقوبة الجلد كانت توقع « بالتيلة » وهي الحبل المعروف ، وكثيرا ما يصاب التلميذ المعاقب اصابات

بليغة أثر الضرب تدعو الى لجوئه لشفخانة الكلية لمدة قد تطول اياما ليعالج التمزق الذي أصاب جسده من شدة الضرب .

وقد كان يقوم بهذه العقوبة « صول » ضخم يسمى فضل المولى وكان يبالغ في شدة الضرب وخاصة اذا كان الطالب من أصدقائه كما يزعم اذ كان يسكن معنا في الداخلية ! وكان العقاب احيانا يشمل اداء أعمال شاقة في الكلية بين فترة الغذاء وبدء الالعاب الرياضية في الساعة الرابعة ، ومن هذه الاعمال ان يقوم الطلبة المعاقبون بحمل الاوساخ والحجارة من طرقات الداخليات او الكلية ، وأن يعبدوا هذه الطرق بجر « درداقة » ضخمة كالتي كانت ترى في الطرقات ، وكان الطلبة المعاقبون يؤدون بدون هذه العربات في جر تلك الدرداقة الضخمة ، فتراهم والعرق يتصبب منهم اعياء ، وفي النهار القائظ أو البرد القارس يقومون بهذا العمل الشاق تحت الحراسة المشددة لا فرق بينهم وبين السجناء !

في هذا الجو القاسي ، كانت تحدث احيانا ، بعض الثورات الفردية اثر انفعالات لا يستطيع الطالب كبح جماحها ، ولكن قسوة العقوبة كانت تجعل تلك الثورات فردية ونادرة .

وفي مرة عرتنا نشوة وطنية بالغة ، وكان ذلك في غضون عام ١٩٢٩ ؛ فقد فوجئنا بان طلبة السنة الثالثة محاسبين رفضوا ان يذكروا اسماء قبائلهم عندما دخل عليهم احد ضباط الكلية وسألهم وأصر كل طالب ان يذكر انه « سوداني » رافضا الانتماء الى قبيلته كما كان يحدث سنويا .

وحاول الاستاذ ان يجعلهم يبدلون موقفهم ، واخيرا عاد الى مكتبه وهناك اتصل بكبير الضباط الاستاذ صالح عبد العظيم رحمه الله ، الذي أبت عليه وطنيته الصادقة ان يرفع الحادث لعميد الكلية الانجليزي فتصرف من عنده تصرفا حسنا حفظ للطلبة كرامتهم ، وأنقذهم في نفس الوقت من العقوبة وأقلها الفصل من الدراسة دون شك ، فكتب امام كل طالب قبيلته مهتد بما سجل عنه في العام الماضي ! وكفى الله المؤمنين القتال .

ولكن كانت هذه البداية التي دفعت الطلبة بعدها للاصرار على كلمة سوداني •

كانت مهمة الكلية الاساسية تخريج موظفين يسدون حاجة الحكومة في مختلف المكاتب ، ولهذا كان اطرف المناظر في شهري نوفمبر وديسمبر من كل عام منظر طلبة الفصول النهائية في الاقسام ، وقد تزيوا بالزي الافرنجي داخل حجرات الداخلية يستعرضون « قيافتهم » ويتقبلون ملاحظات بعضهم البعض ، وكانوا يحرصون على تفصيل « البدل كاملة » بما في ذلك « الياقة » والقبعة على الرأس وكانت مودة تلك الفترة ! أما المشايخ والمعني بهم خريجي قسم القضاة الشرعيين — مدرسي المدارس الوسطى — وخريجي مدرسة العرفاء ، فكان عليهم ان يرتدوا زي المشايخ المعروف « الجبة والقفطان وحزام حرير يتمنطقون به » •

وكانت هذه الازياء تستعرض يوميا في الداخليات ، وقد كان التوظف مضمونا ، بل ان كثيرا من الطلبة يعرفون اماكن عملهم الجديدة قبل ان يكملوا امتحاناتهم النهائية ، اذ كانت اكثر المصالح الحكومية تعد كشوفات تنقلاتها للعام الجديد وتذكر فيه الخريجين الجدد •

وكان مرتب الثمانية جنيهات الذي يعطى لخريج الكلية الذي أكمل السنة الرابعة بنجاح يعد مرتبا مجزيا في تلك الفترة التي كان فيها مستوى المعيشة منخفضا الى حد يعد خيالا اذ ما ذكرت أرقامه الآن• وكان أساس وضع المرتبات اربعة جنيهات لمن اكمل السنة الرابعة وسطى بنجاح ، وجنيه اضافي لكل سنة دراسية ناجحة في القسم الثانوي !

وجاء قرار تخفيض هذا المرتب الى خمسة جنيهات ونصف الجنيه وثار طلبة الكلية وأضربوا واعتصموا بداخلياتهم ، ثم أرسلوا الى أهلهم وذعر الانجليز وذهلوا ••• فقد كان هذا آخر ما يتوقعون •

وكان هذا الذي حدث بالنسبة لنا نحن صغار الخريجين بداية للبعث الجديد •

نفذنا الاضراب بدقة فذهل الانجليز

طلبت من السيد مكي المنا وقد اختاره الطلبة رئيسا لهم ان يكتب لي قصة الاضراب تاريخيا فكتب :

ـ لا بد للباحث في اضراب طلبة كلية غردون القديمة عـام ١٩٣١ ان يرجع للوراء قليلا ليتقصى المقدمات التي سبقته خلال الاعوام الثلاثة الماضية ، فقد كانت ادارة كلية غردون حتى أواخر عام ١٩٢٨ صورة مصغرة لادارة القطر التي كان يسيرها السكرتير الاداري من مكتبه في الخرطوم وكان اظهر مظاهرها البطش والارهاب الذي بدأ بعد حوادث ١٩٢٤ ، وقد وجد المستر مكمايل « السكرتير الاول » من المبررات بعد تلك الحوادث ما مكنه من تطبيق هذه السياسة التي كانت تلائم افكاره وشخصيته تطبيقا جامحا لا هوادة فيه ولا لين .

ترعرعت هذه السياسة وتغلغلت في صميم الجهاز الحكومي ، وغزت معامل العلم التي كانت مهمتها الاولى ان تغذي دور الحكومة بموظفين ألفوا هذا النظام من دور التعليم لئلا تجد الحكومة صعوبة في انسجامهم في جهازها العجيب .

وقد كان يهيمن على كلية غردون التذكارية في ذلك الوقت ، رجل قوي الشخصية طبق هذا النظام على الاساتذة والطلاب فقتـل الروح المعنوية فيهم حتى أصبح من المألوف ان ترى « قطيعا » من الطلبة يحملون

التراب في عملية تعذيبية منكرة ووراءهم صف من رؤسائهم الطلاب الكبار يضربون بالعصي في غير تورع او شفقة ، والويل لمن تحدثه نفسه ليسأل ، لماذا يضرب ؟

استمر الحال على هذا المنوال حتى أوائل عام ١٩٢٩ ، حين عاد الاستاذان المرحوم عبيد عبد النور وعبد الفتاح المغربي من دراستهما بالجامعة الامريكية في بيروت ، وهالهما ما رأيا من فارق عظيم بين معهد ومعهد وبين طالب وطالب ، وقام الاستاذ عبيد بحركة هائلة أراد منها أن يرفع الارهاب والاذلال عن كاهل الطلبة ويشعرهم بان الدراسة العليا يجب ان تهدف الى خلق مواطنين صالحين لهم الخلق القوي والارادة على التغلب على متاعب الحياة، فمهد لذلك بأن أقنع «الوكيل» المستر يودال بنجاح هذه السياسة وبدأ يبذر بذورها بين الطلاب ، فسرت تعاليمه بيننا سريان النار في الهشيم ، وبدأنا نبذل كل ما في وسعنا لنقدم طائعين كل ما نملك من جهد ومن مال في سبيل اسعاد الآخرين وفي سبيل كل ما توسمنا انه عمل وطني ، فساهمنا بتمثيل الروايات الاجتماعية ، وبذلنا جهدا كبيرا من دخلها المحدود لنمد مكتبة الطلبة بالكتب والمجلات ، وأصبح همنا مساعدة المغلوب ومقاومة الظلم أنى وجد ، ولقد ساعد على اذكاء هذا الشعور تقاعد الوكيل « المستر يودال » واسناد أمر الكلية الى المستر وليمز والفارق بين الرجلين معلوم لكل من عاصرهما من الاساتذة والطلاب ، فنمت حركتنا وثبتت رغم المعارضة التي قام بها عدد من انصار القديم ، حتى انشطرت الكلية الى شطرين عامي ١٩٢٩ — ١٩٣٠ وما ان جاء عام ١٩٣١ حتى كان الطلبة أجمعين كتلة متجانسة تعمل في وئام لتقليم أظفار الظلم والضغط داخل حرم الكلية ، وحتى أصبح الرؤساء اصدقاء للطلبة يطلعونهم على كل ما يراد بهم من خير او شر .

وقد هال السكرتير الاداري ما رأى ، فقال قولته المشهورة في خريجي تلك الايام « المديرون الجدد » وتذرع بالنكسة الاقتصادية العالمية التي

بدأت بوادرها آنذاك فقرر ان يوجه ضربات متلاحقة يعود بها بالكلية الى سابق عهدها ويهوي بها الى الحضيض •

وتطبيقا لسياسة فرق تسد قرر ان يبدأ بالمحاسبين والكتبة فاصدر أمرا بتخفيض رواتبهم عند التخرج من ثمانية جنيهات الى خمسة ونصف وأرسل بذلك القرار المشئوم الى ادارة الكلية للتنفيذ ولكن لم يكن يعلم انه بازاء جبهة متماسكة من اناس طغت على كيانهم وتملكت مشاعرهم الرغبة في التضحية من اجل الغير ، فلم ينظر الذين عناهم بقراره الى الامر كأنه يعنيهم هم فحسب ، بل نظروا اليه على حقيقته من ان القصد منه هو العودة بالبلاد الى الوراء وان الطعنة النجلاء موجهة للقطر كله في شخص مثقفيه ، فيا لها من فرصة مؤاتية ليواجهوا الحكومة التي أبطرها السلطان وليلحقوا باخوان لهم ذهبوا عام ١٩٢٤ دفاعا عن مبدأ عظيم !

وماذا كان من امر طوائف الطلبة الاخرى التي لم يمسها القرار من مهندسين ومدرسين وأطباء ؟•• لقد قالوا أجمعين ان واجبهم في الدفاع عن اخوانهم المعنيين « الكتبة والمحاسبين » أسمى وأنبل من واجبهم لو كانوا يدافعون عن أنفسهم ، كان ذلك في أوائل نوفمبر ١٩٣١ وقد أوشك العام الدراسي على التمام ، فاجتمع طلبة السنة النهائية في جميع الاقسام وقرروا ان يقصروا التضحية عليهم لئلا يضار الطلبة الصغار الذين لـم يكملوا تعليمهم بعد ، وأقسموا فيما بينهم على ان يعملوا متضامنين لرفع هذه الكارثة او يقعوا ضحايا في سبيل تحقيقها • ولكن هيهات لهـم ان ينفردوا بهذا الشرف العظيم ، فما ان سمع طلبة الفصول الاخرى بما جرى حتى اجتمعوا هم ومن تلقاء أنفسهم ورددوا نفس القسم واستعدوا للتضحية الكبرى •

انه من الصعوبة بمكان ان يتذكر المرء في تحديد المؤرخ ، الحوادث التي تعاقبت أثر هذا الاتحاد الجميل الذي ما ان سمعت به ادارة الكلية حتى جمعنا المستر وليمز في احد الميادين وخطب فينا خطابا ليته تحاشاه —

فبدلا من ان يحاول تهدئتنا ، وبدلا من ان يؤاسينا في محنتنا ويحاول الوقوف الى جانبنا ولو من باب السياسة والكياسة ، اخذ يكيل لنا التهديد والوعيد ، ولست أنسى ما حييت قوله :

« من أنتم ؟.. من أنتم حتى تنتقدوا الحكومة او تقاوموا سياستها ؟ ان الحكومة تستطيع ان تفعل فيكم ما تشاء من سجن وتشريد وتنكيل » ! ولم يكن الرجل يدري اننا في تلك اللحظات قد تقمصنا أرواح القديسين واننا كنا ننتظر ما هو أشد هولا مما ذكر بنفس متلهفة وقلوب مشتاقة لاننا آمنا ايمانا لا يتطرق اليه الشك اننا نقوم بتضحية عظيمة من اجل غرض نبيل .

خرجنا من هذا الاجتماع وعلينا هدوء الذي قرر وانتهى وينتظر ساعة التنفيذ وكنا حتى اللحظة لم نكن نعلم ما هي خطواتنا التالية ولو اننا علمنا أين تقف ادارة الكلية من مشكلتنا .

وفي مساء نفس اليوم وأظنه الثالث والعشرين من نوفمر ١٩٣١ ، اجتمع نفر من كبار طلبة الكلية في الميدان الشرقي ولم يستغرقوا في البحث أكثر من بعض الساعة حتى قرروا ان تكون خطوتهم الاولى الاضراب الكلي من العاشرة من صباح اليوم التالي ، كما قرروا سرية اجراءاتهم بعد ذلك ، ثم تفرقوا ونشروا القرار على اخوانهم الآخرين بما سنقدم عليه صباح الغد ... وجاء الصباح الموعود فذهبنا الى حجرات الدراسة في أتم نظام وتلقينا دروسنا الى قبيل العاشرة في جد واهتمام أذهل الاساتذة الذين كانوا يعلمون بموعد اضرابنا فما كانوا منتظرين منا أن نقبل على دروسنا كأحسن ما يكون الاقبال ونحن مقبلون على خطوة تفوق في جرأتها كل ما كان معقولا في ذلك الزمان . وفي تمام الساعة العاشرة ومن غير مقدمات ، أقفل كل طالب درج أدواته ، وخرجنا من الفصول وتوجهنا الى أماكن اقامتنا في الداخليات من غير ان ننبس ببنت شفة ـ وما ان وصلنا هناك حتى اجتمعنا وقررنا انتخاب لجنة تدير شئوننا وتفاوض نيابة عنا ،

فكوناها من ستين عضوا ، او هذا ما وصلت اليه بعد ان طعمناها بوجهات النظر المختلفة وأطلقنا عليها اسم « الزعفرانة » لتضليل عيون الحكومة التي كانت لنا بالمرصاد ـ وقد شرفني زملائي ـ وكنت رئيسا الطلبة في عهد الدراسة ـ برئاسة هذه اللجنة وأقسم انني حتى اليوم لم أجد في نفسي تجاوبا بعمل قمت به في حياتي كالذي وجدته في رئاسة تلك اللجنة، وقد كانوا حولي كالملائكة يتلهفون على تنفيذ قرارات اللجنة ، وقد كانت أحيانا تعرضهم لاخطار دونها أخطار الحروب ، فكان يكفي أن نقول اننا في حاجة الى شيء من المال لينسل بعض الاخوان الى الخارج ويعود به في أكياس متعددة وكنا نسلمها لامين الصندوق بغير ايصال او حساب ونحن واثقون من حفاظه عليها وصرفها في أوجهها .

قضينا على هذا الحال خمسة ايام تعاقبت علينا أثنائها وفود الاساتذة والخريجين الذين كانوا يعطفون على قضيتنا ولكنهم ايضا كانوا يشفقون علينا وعلى الكلية ان يعصف بها السكرتير الاداري « مكمايل » في سورة غضبه وذهوله ، ولقد استخدم هذا الرجل وسائل السياسي الداهيةليجبرنا في اتخاذ خطوة ايجابية تمكنه من ان ينكل بنا ويجد مبررا لقفل الكلية ، ولكننا خيبنا مسعاه .

لقد استغل دهاة قلم المخابرات الذين حاصرونا ليل نهار وأجبرونا على الاجتماع المتواصل لتفشيل خططهم التي كانت تشمل دس رجالهم بيننا في شكل باعة متجولين على ان هؤلاء الباعة لم يسبق ان دخلوا حرم الكلية في كل تاريخها الطويل ، لقد عرفناهم وسمحنا لهم بالتجول بيننا ، ولكنا أخذنا انفسنا بالنظام والحرص بدرجة لم تعهدها الكلية ايام الضرب والارهاب !

وأخيرا تفضل سيادة السيد عبد الرحمن المهدي وزارنا على موعد ، وبذل جهد المواطن المخلص ليعيدنا الى انتظام الدراسة ، ولكن كان ذلك فوق طاقتنا ، لقد أبكانا سيادته تأثرا ولكنا لم تتزحزح عن موقفنا قيد

أنملة ! فما كنا نريد من كبار المواطنين ان يواجهونا ، بـل كنـا نرغب في مواجهة الحكومة لنقول لها قولا لم تسمعه في تاريخ استعمارها الطويل العريض ولكن الحكومة آثرت العاقبة واستترت وراء هذا النفر الكريم من كبار المواطنين ليعيدونا اليها في ذلة وانكسار فأبينا ووقفنا وقفة ... المدافع عن كرامته وعزته . ولكنا شعرنا بالخطر والبلية التي قد تصيبنا اذا تكرر مثل هذا اللقاء بآبائنا ومواطنينا الاعزاء ، فحزمنا أمرنا على ان نعود الى أهلينا وديارنا ما دام العدو قد جبن عن ملاقاتنا وليفعل الله امرا كان مقدورا .

وفي اليوم التاسع من شهر نوفمبر ١٩٣١ بدأنا نودع بعضنا البعض ونرحل عن الخرطوم في نظام وتنسيق فوتنا بهم آخر فرصة للحكومة في ضربنا مجتمعين .

ولست أنسى وانا أركب القطار متجها الى مسقط رأسي مشاجرة صغيرة مفتعلة قام بها أعوان قلم المخابرات وسط مودعينا أملا منهم أن تتدخل فيقبضوا علينا ولقد فطنا الى ذلك ، وقال قائل منا ! « دعوا ... هؤلاء قوم هللسون » ! وهللسون كان مدير المخابرات فانسحبوا بغـير انتظام وسافرت على بركة الله .

هذا عرض موجز لخلاصة اضراب عام ١٩٣١ ، واما الذي جرى لنـا حين ذهبنا الى اوطاننا ، واما الـذي جرى بعد ذلك فيكفي ، لتسطير المجلدات ، وحسب القارىء هذا القدر ليقف على دوافع هذا الاضراب ومراميه والدقة التي تم بها مما أذهل حكام ذلك الزمان .

ومفتشو المراكز يتحرشون بهم

قدمت كلمة السيد مكي المنا رئيس الطلبة عندما حـدث الاضراب وقد روى لنا فيها تفاصيل ما حدث ، منذ ان بدأ الاضراب حتى قررت لجنة « الزعفرانة » ان يعود الطلبة الى ذويهم ويتفرقوا عن الداخلية خشية ان يدب الضعف في صفوفهم تأثرا بالوساطات التي أخذت تنهال عليهم من الآباء وكبار المواطنين وعلى رأسهم المغفور له السيد عبد الرحمن المهدي ، وقد كان الطلبة كما ذكر السيد مكي يتحرقون شوقا لملاقاة الحاكمين أنفسهم ليشفوا غليلهم في ذلك اللقاء ، ولكن احدا من المسئولين لم يتصد للطلبة او يحاول الالتقاء بهم مكتفين بهذه الوساطات علها تحل الازمة وتعيد الطلبة الى دروسهم ، فقد كانوا رغم ما تظاهروا به من عدم المبالاة والتهديد باغلاق الكلية ــ قلقين فعلا بسبب هذا الاضراب الذي أوحى لهم بالكثير مما لا يسرهم .

عاد الطلبة الى مناطقهم المختلفة في هدوء وثبات ؛ وهنا يبرز دور عدد من الخريجين الشبان في العاصمة المثلثة وخاصة أولئك الذين كانوا حديثي عهد بالتخرج في الكليـة ، وما زال هناك عـدد كبير من أصدقائهم في صفوف الطلبة .

لقد أشار السيد مكي المنا في كلمته الا انهم ما كادوا يحتاجون الى

قدر من المال حتى يوفدوا بعضهم الى الخارج ليعود بالمال المطلوب وربما أكثر منه .

والحقيقة ان الطلبة لم يحتاجوا لشيء من المال الا بعد ان فكروا في العودة الى مناطقهم المختلفة ، وبالطبع فانهم لم يمنحوا التذاكر المجانية التي كانت تعطى لهم عادة من ادارة الكلية في مناسبات العطلات المدرسية، وكان عليهم هذه المرة ان يدبروا ما يكفي لترحيل غير القادرين منهم ومن هنا كان التجاؤهم الى بعض زملائهم الخريجين .

لم يكن هناك (تنظيم) معين لاولئك الخريجين الشبان الذين كانوا يغذون الاضراب سرا ، ويمدون اصدقاءهم الطلبة بالمال في الحدود المستطاعة ، ولكن كان هناك ما يشبه التفاهم بين بعضهم ، وكان بعضهم يعمل منفردا سرا مع من يعرف من الطلبة ، ولهذا فانه من العسير ان نحصي الآن كل أسماء الخريجين الشبان الذين كانوا يغذون حركة اضراب الطلبة ماديا ومعنويا .

ولكن كانت هناك مجموعة منهم تضمها لجنة ملجأ القرش « معهد القرش الصناعي » الآن ، التي كونت حديثا لانشاء هذا المعهد .

وكانت هذه اللجنة تضم نخبة ممتازة من خيرة شباب تلك الفترة . ومن المؤكد ان اكثر هؤلاء كانوا من مناصري الاضراب ومن الذين كانوا يمدون الطلبة بالفكر والمادة .

وقد اتصل امرهم بالمخابرات الانجليزية التي كانت ترصد الموقف باهتمام فائق ، وقد حدثنا السيد مكي في كلمته كيف انهم أطلقوا الجواسيس حولهم في الداخليات في شكل باعة متجولين الامر الذي لم تشهده الكلية منذ انشائها حتى تلك الآونة .

وقد توهم الانجليز ان هؤلاء الخريجين في لجنة ملجأ القرش يستغلون بعض مال هذه المؤسسة وينفقونه على الطلبة ، وانقلب التوهم

الى اتهام مفتوح واجهوا به اولا السيد عبد الفتاح المغربي رئيس اللجنة ثم انتقل الى تحقيق رسمي اجراه مفتش مركز أم درمان ، حيث استدعى أمين صندوق اللجنة السيد محمد عبد الرحمن وواجهه بالاتهام وطلب منه ان يقدم له حسابات الملجأ .

وقدمت الحسابات فعلا للمفتش الذي كان يتمنى ان يجد فيها شبهة تمكنه من اتخاذ الاجراءات القاسية ضد اللجنة ، فقد بلغ الغضب بهم أقصاه بسبب ذلك الاضراب الذي لم يكن في حسبانهم فقط ، والذي أكد لهم قوة الشعور الوطني عند المتعلمين رغم التنكيل الذي أنزلوه بهم بعد حوادث ١٩٢٤ .

لقد فحص المفتش الحسابات جيدا ولم يجد مبتغاه ، فقد كان أولئك الشبان مثالا للامانة والنزاهة ومن المستحيل ان يفكروا مجرد تفكير في الاستعانة بشيء من مال الملجأ لامداد الطلبة المضربين ، وقد كانوا يمدون العون فعلا للطلبة ، كل بطريقته الخاصة وكان هناك غيرهم ايضا يفعل ذلك سرا ، ولكنهم كلهم كانوا يمدون العون من مرتباتهم الشهرية على قصورها آنذاك ، ولكن وطنيتهم كانت تحتم عليهم ان يقفوا بجانب اخوانهم الطلبة المضربين .

لا أحب ان أطيل في هذه الناحية الحساسة بذكر الاسماء ، فقد أظلم أولئك الذين كانوا يعملون ممعنين في التخفي ولم تبلغ الى مسامعنا أسماؤهم ، فقد كانت تلك الفترة تقتضي فرط الحذر ، فلو استطاع الانجليز ان يجدوا دليلا ماديا مهما صغر وتفه ، ضد أي من هؤلاء الذين كانوا يقفون مع الطلبة سرا من الخريجين لنكلوا بهم تنكيلا قاسيا تنفيسا عما كان يعتمل في نفوسهم من حقد وغضب وثورة .

لقد حدثنا السيد مكي المنا عن عودة الطلبة ، وأشار اشارة عابرة الى ما لقوه بعد عودتهم الى أوطانهم الصغيرة ، لان المجال لم يتسع له ليذكر ما حدث بعد ذلك .

لقد أوحت الحكومة الى مفتشي المراكز الانجليز لكي يواجهوا أولئك الطلبة المضربين بكل ضروب القسوة والتنكيل ، وخاصة قادة الاضراب ، وطلبة السنة الرابعة — على وجه العموم .

ولم يكن مفتشو المراكز في تلك الايام بحاجة الى هذا التوجيه فقد كانت القسوة والجبرة والطغيان طابعهم في كل تصرفاتهم وكانوا على علم بكل تفاصيل الاضراب الذي ضاعف من مرارة حقدهم على المتعلمين ، وأخذ مفتش كل مركز يتفنن في خلق ضروب المضايقات والمتاعب للطلبة .

أذكر أنني كنت أمضي فترة اجازتي السنوية في وطني الصغير (سنجة) وعاد طلبة هذه المدينة المضربين الينا ، وهم قلة يسيرة ، وكان من عادة البوليس ان يطوف ليلا بشوارع المدينة وأزقتها على ظهور البغال لحفظ الامن ، وكانت الاوامر تعطى لرجال البوليس الذين يعهد اليهم بالطواف كل ليلة لكي لا يتهاونوا ابدا في القاء القبض فورا على أي طالب منهم يجدونه بعد الساعة السابعة مساء يتجول في الطرقات لاي سبب من الاسباب ! وكانوا بهذا يحتالون لجرهم الى داخل السجون .

وبعد شهرين ونصف تقريبا من استمرار الاضراب ، وقد أشفق المشفقون على مصير الكلية الوحيدة ، أصدر كل من سيادة السيد علي الميرغني وسيادة السيد عبد الرحمن المهدي نداء — على حدة — وجهه للطلبة لكي يعودوا للدراسة وكان أكثر الآباء بدورهم قد أشفقوا على مصير أبنائهم فأخذوا يحثونهم على العودة ، وعاد طلبة الفصول الاولى والثانية والثالثة اما طلبة السنة الرابعة في مختلف الاقسام فقد اعتبروا قد انتهت مرحلة دراستهم ، وعليهم ان ينتظروا فرصة التوظف في مكاتب الحكومة ، ولكن هذه الفرصة قد أطيلت عمدا ... الى مدى سنوات !

فبعد ان كان طلبة الفصول النهائية يوظفون وهم ما زالوا في ايامهم الاخيرة بالكلية ، أغفل عمدا موضوع توظيف طلبة الاضراب .

وظل بعضهم لاكثر من اربع او خمس سنوات محجوزا عليه ان يعمل

في دواوين الحكومة ! حتى أولئك الذين كانت الحكومة في حاجة اليهم كالمهندسين ، ولكن امعانا في الانتقام منهم تركوا لآخر المطاف ، وقدم عليهم في التخديم الكتبة والمحاسبين الذين عينتهم الحكومة أولا بتخفيض المرتبات !

ولم يكتف الانجليز بحرمان طلبة السنة الرابعة من الاقسام المختلفة بعدم التعيين لسنوات ، بل صبت عليهم في تلك الفترة جام غضبها وسلطت عليهم مفتشي المراكز يسومونهم الوانا من العذاب والضيق امتد الى أهلهم وذويهم ، لقد تجرد الانجليز من انسانيتهم حيال أولئك الطلبة وانقلبوا الى وحوش ضارية تنهش فيهم بغير رحمة .

وحدث ان وجدت بعض صور القادة الانجليز وكانت تزين بها غرف الداخليات ، وحجرات الدراسة قد ألقيت على الارض وحطمت اطارتها وأصابها التمزيق فثارت ثائرة الانجليز في الكلية وبالرغم من انهم لم يستطيعوا اثبات هذا التصرف ضد طلبة معينين الا انه لم يعوزهم ان يوجهوا الاتهام ضد الطلبة الذين توسموا فيهم الحماس الوطني والكراهية الواضحة لهم ، فأصدروا أمرهم بفصلهم من الدراسة استنادا على الشبهات فقط .

ولكن كل هذا التنكيل لم يخمد الجذوة الوطنية المتقدة في نفوس الطلاب بل زادها اشتعالا .

لقد عرضت هنا بعض جوانب الاضراب ، وتحدثت عن المساندة السرية التي كان يقوم بها بعض الخريجين الشبان للطلبة المضربين .

ولكن كان هناك جانب آخر على درجة قصوى من الاهمية ، وهو جانب الخريجين عامة الذين أخذوا يعملون جهرة لايجاد حلول للموقف ، الحلول التي ترضي كبرياء الطلبة على نحو ما ، وتحول دون ان ينزل الانجليز ضرباتهم بمعقل العلم المدني الوحيد في البلاد ... فماذا فعلوا وكيف تصرفوا ؟

اجتماع عام وانتخاب لجنة العشرة

أخذ الخريجون يتوافدون على دار نادي الخريجين بأم درمان زرافات ووحدانا في أزيائهم المنتقاة التي عرفوا بها آنذاك ، فطبقـة المشايخ من قضاة ومعلمين ، ترتدي « القفاطين » والفرجيات من الجوخ او الصوف وقد تمنطقوا بأحزمة من الحرير ذات ألوان زاهيـة ، وعلى الرؤوس الطرابيش المغربية الحمراء أديرت عليها عمائم بيضاء صغيرة .

أما الموظفون الآخرون فقد ارتدوا الزي الافرنجي كاملا ولم ينسوا رباط العنق الذي افتنوا في اختياره وعلى الرؤوس قبعات مختلفة الانماط، وقد كانت القبعة الظاهرة المميزة لغطاء الرأس عند موظفي تلك الفترة . وقليل نادر منهم مـن كان يضع الطربوش المصري على رأسه بدلا من القبعة .

كانوا يتجهون الى النادي والانظار ترمقهم في اعجاب فقد كانوا يمثلون خلاصة المجتمع الراقي الذي هو موضع التقدير وموطن الرجاء والامل .

هذه هي أول مرة يجتمعون فيها ليناقشوا مشاكلهم جهرة . كان يملأ قلوبهم شعور الغبطة والارتياح ، فقد طال بهم الكبت والقهر ، وذاقوا الامرين من رؤسائهم الانجليز بعد ثورة عام ١٩٢٤ .

ولقد كان اضراب طلبة الكلية الذي أقض مضاجع الانجليز وكسر

شوكة جبروتهم حافزا للخريجين لكي يجتمعوا في ناديهم بأم درمان ليتقدموا للمسئولين بالمطالب التي تزيل الظلامات التي حاقت بهم وبالطلبة •

وقد بثت الدعاية لفكرة الاجتماع فلقيت تجاوبا عاما لما كان يشعر به كل الخريجون من ضيق وكبت وافتئات على حقوقهم •

وقد اتفق على اختيار لجنة باسم الخريجين في اجتماع عام يعهد اليها بتقديم مطالبهم ومعالجة موقف اضراب الطلبــة وذلك بالغاء تخفيض مرتباتهم ، هذا التخفيض الذي أدى الى ذلك الاضراب •

وها هم الخريجون يجتمعون في اليوم الموعود في ساحة شيخ الاندية ، وها هم خطباؤهم يتعاقبون عــلى المنبر يرددون المظالم التي حاقت بهم ويكشفون عنها النقاب • ويتحدثون في حماس عن وجوب اختيار لجنــة قوية تتقدم بمطالبهم الى المسئولين وتقف بجانبها في صلابة حتى تحصل على استجابة عليها •

وفي غمرة الحماس الطاغي الذي شمل الشباب والشيوخ معا ولا غرو فقد كانوا جميعا مكتوين بنار واحدة دعى المجتمعون لانتخاب عشرة منهم عن طريق الاقتراع السري ، ووزعت عليهم الاوراق والاقلام •

وهنا يجدر بي ان أثبت ان عددا من الشبان من دعاة فكرة هذاالاجتماع المروجين لها ، خافوا من ان يندس في اللجنة عدد كبير من العناصر غير المرغوب فيهم والتي عرفت بالولاء للحاكمين ، فعملوا على نشر دعاية واسعة بينهم لاختيار أسماء معينة راعوا فيها ان تكون أغلبيتها ممن يثق فيهم اخوانهم مع ايجاد عدد يسير من المعقولين حتى لا يعمل بعضهم ضد هذا الاجتماع او يحاول افساد المواقف التي تتخذها اللجنة المنتخبــة لتحقيق مطالب الخريجين •

وأسفر الاقتراع السري عن اختيار الآتية أسماؤهم وانا أسجلهم هنا كما وعتهم ذاكرة من اجتمعت بهم لتجميع عناصر هذا الموضوع :

١ ــ الشيخ أحمد السيد الفيل
٢ ــ الشيخ محمد الحسن دياب
٣ ــ الشيخ عمر اسحق
٤ ــ عثمان حسن عثمان
٥ ــ صديق فريــد
٦ ــ محمد علي شوقي
٧ ــ محمد نور خوجلي
٨ ــ محمد هاشم البارون
٩ ــ ميرغني حمزة
١٠ ــ عبد الماجد أحمد

وعقدت اللجنة اول اجتماع لها وأقسم الاعضاء على سرية المداولات ثم اجتمعت بعدد من أعضاء لجنة الاضراب للطلبة ثم أخذت تجميع البيانات والاحصاءات توطئة لكتابة تقريرها المزمع رفعه لحاكم السودان العام .

وقد ظلت اللجنة توالي اجتماعاتها لفترة طالت شهورا ، بسبب تنازع التيارات داخلها ، فقد ضمت عناصر متطرفة وأخرى معتدلة وأخرى تذهب الى أقصى مواقف الاعتدال !..

وكان اتفاق هذه العناصر المتباينة على صياغة مطالب معينة امرا عسيرا حقا ولكنها مع ذلك استطاعت ان تتغلب على هذه الصعوبات وان تعد تقريرا ضافيا ضمنته كل المشاكل والقضايا التي كان يشكو منها الخريجون والطلبة ، وكان تقريرها أشبه بمشروع اصلاح كامل لشئون الخدمة ، من تعديل للمرتبات للخريجين والطلبة الى تحسين شروط الخدمة من درجات وعلاوات واجازات ، كما تعرض التقرير للتعليم ورفع مستواه كما وكيفا لاحلال السودانيين مناصب ذات مسئولية في وطنهم ، وقد كانوا آنذاك يشغلون وظائف صغيرة بعيدين عن المناصب التي تؤهلهم لحكم أنفسهم فيما بعد .

كان لتكوين هذه اللجنة صدى بعيـد تجاوز السودان الى العالم الخارجي ، وقد أبرزته الصحافـة الانجليزية مما أقلق انجليز السودان بالاضافة الى القلق الذي أحدثه اضراب الطلبة .

وعندما أكملت اللجنة وضع هـذا التقرير ، رأت ان تقدمه لحاكم السودان العام ، واسمه السير جون مافي ، وكان غائبا بالاجازة وقد ناب عنه المستر بل السكرتير القضائي ، اذ كان نائبه الطبيعي السير مكمايكل السكرتير الاداري ــ الطاغية المستبد ــ كان ايضا في اجازتـه السنوية بانجلترا .

واستقبل المستر بل ــ الحاكم العام بالنيابة ــ تقرير اللجنـة ووعد بدراسته والرد عليه .

وعـاد مكمايكل من الاجازة وعلم بتقديم التقرير للمستر الحاكم بالنيابة ــ واستلامه له من اللجنة وقيل انه عنف المستر بل تعنيفا على استلامه للتقرير من اللجنة لان ذلك يعد اعترافا من الحكومة بهـا الامر الذي يأباه الطاغية مكمايكل! والذي عرف بعدائه الشديد لطبقة الخريجين، وقد روي عنه انه قال عند بدء اضراب الطلبة ، ان يلقي عليهم القبض كلهم ويضربون بكل عصي الخيزران الموجودة في السوق ضربا مبرحا وليذهبوا بعدها حيث يشاؤون !

وعاد السير جون مافي حاكم السودان العام من اجازته ، وقـد علم بكل شيء هناك ، وقرأ ما نشرته الصحف الانجليزية عن اللجنة ، وشعر الرجل انه من الخير أن يواجه العاصفة بقدر من الحكمة .

وما كاد يستقر في السودان حتى أمر بارسال خطاب للمغفور له الشيخ أحمد السيد الفيل رئيس اللجنة لكي يحضر لمقابلته ومعه أي عدد يختاره من ممثلي اللجنة . ولكن اللجنة أصرت على ان تقابله بكامـل أعضائها وليس بعضهم ، وتم ذلك بالفعل . وكان اللقاء قصيرا اذ ان الحاكم العام

ألقى عليهم قرارا جاهزا يقضي بزيـادة مرتب الطلبة جنيها واحدا فقط ليصبح ست جنيهات ونصف معللا ذلك بسوء الحالة الاقتصادية عالميا وما أصاب السودان من جراء هذه الازمة العالمية • ثم ختم حديثه بأن أعلن اليهم قراره ايضا بحل هذه اللجنة بانتهاء مهمتها •

هذا القرار الاخير كان مؤشرا واضحا الى فزع الانجليز مـن تكتل الخريجين وراء لجنة واحدة منتخبة منهم حتى لا تكون مصدر قلق لهم فيما تبعثه من يقظة في الحركة الوطنية •

تقدمها لجنة العشرة للحاكم العام

ان مطالب الخريجين وان بدت فئوية الا انها تحمل بوادر الثورة والتمرد فان مذكرة لجنة العشرة التي رفعتها للحاكم العام تعـد نقطة الانطلاق لمواجهة المستعمر بمطالب وان بدت فئوية الا انها تحمل في طياتها بوادر روح التمرد والثورة • وتسجيل هذه المذكرة تمليـه الضرورة التاريخية ، فهي تكشف لنا بجانب ما ذكرت ــ المستوى الذي كان يعيش فيه الخريجون في تلك الفترة القاسية والظروف التي كانوا يعانون منها ، ومحاولاتهم لازالة الغبن الذي حاق بهم • تدخل المذكرة التي قدمتها لجنة العشرة للحاكم العام فتقول :

تسريح الموظفين السودانيين :

ان السودان هو الوطن الوحيد للسودانيين ، اما البريطانيون فهم حكامه ومن الطبيعي والحال هكذا ، وانه ليس لطرف ثالث غيرهما الحق في الانتفاع من هذا الوطن • ولكن على أي حال نلاحظ ان مشروع تخفيض النفقات قد أثر تأثيرا خطيرا على السودانيين دون سواهم وسرح المئات منهم وشردوا من اعمالهم بالرغم من قلة مرتباتهم •

ومن الواضح ان نتائج هذا التشريد لا تنسحب آثارها على المشردين فحسب وانما تمتد لعدد كبير من المواطنين ليس لهم من عائل سوى هؤلاء

الموظفين المشردين ، وقد أصبح هؤلاء وأولئك عبئا ثقيلا عـلى كاهل الوطن ولعلكم لاحظتم ازدحامهم في مكاتب المسئولين بحثا عن عمل وليس ثمة أمل ٠

وحسبنا نشك في ان سيادتكم تعلمون ان الاذى المترتب على فصل هؤلاء المواطنين وتسريحهم ستعود آثارها على خزينة البلاد ، وقد كنا نظن لهذا السبب ان السودانيين سيكونون آخر من يمسهم قانـون تخفيض النفقات ٠

تخفيض المرتبات الابتدائية :

لقد ذكرنا في مقدمة هـذه المذكرة ان المرتب الذي يناله المواطن السوداني لم يكن مطلقا في أي وقت من الاوقات كافيا لسد نفقاته ومقابلة حاجياته ٠

ولو كان مرتبه كافيا لدفعه واجبه الوطني في هذه المرحـلة الحرجة لقبول التخفيض عن طيب خاطر ضريبة لتطور الوطن واسهاما في حل مشاكله المالية ٠ ولكنكم تعلمون ان الثمانية جنيهات ـ وهي مرتب خريج كلية غردون قد قررت بهذا الشكل على اساس ان الموظف السوداني يخـدم بلاده ويضحي من اجلها ، وتثبت ذلك حقيقة ان الموظف غـير السوداني الذي يتمتع بنفس المؤهلات بل وفي بعض الاحيان بما هو دونها يستحق مرتبا يتراوح بين الاحدى عشر والاربعة عشر جنيها ٠ واذا قارنا ذلك بما يحدث في مصر لوجدنا ان خريج المدرسة الثانوية (شهادة البكالوريا) وهو يوازي خريج كلية غردون يتقاضى مرتبا قدره سبعة جنيهات ونصف « طبقا لآخر تعديل » بغض النظر عن النسبة العالية من المثقفين في مصر والتنافس الشديد من اجل الوظيفة ٠

على أية حال ، فانه يمكن ان يقال ان الخريجين الذين يتمتعون بمثل ما تتمتع به من شهادات في البلدان الاخرى يتقاضون مرتبات لا تزيد عن

المبلغ الذي تريدون ان تهبطوا بمرتباتنا منه ، ولكن هذه الحجة تدحض نفسها بالتأكيد اذا طبقنا ما ذكرناه حول مصر من وجود التنافس الشديد في تلك البلدان بالاضافة الى وجود مجال واسع للتقدم والترقية نسبة لوجود مستويات أعلى للدراسة وتنوع هذه الدراسة . والحال يختلف جدا في السودان فليس امام الموظف السوداني أية فرصة لتلقي المزيد من التعليم « بما في ذلك طلبة مدرسة كتشنر الطبية » كلية الطب الآنوبالتالي ليس امام الموظف السوداني اية فرصة للترقية ، وعلى هذا الاساس فان مقارنتنا بالدول الاخرى تكون مسألة غير عادلة .

وبالرغم من ذلك فان المرتب الابتدائي المقدر بثمانية جنيهات ، وقد حدد على اساس انه يكفل مقابلة الحـد الادنى من متطلبات الموظف السوداني في فترة ما قبل الحرب عندما كانت تكاليف المعيشة أقل بكثير مما هي عليه الآن ومما لا جدال حوله ان تقدم الحياة وتطورها يتطلب بالتأكيد زيادة المنصرفات وهذه تتطلب بالتأكيد المزيد مـن الدخل ، وتكفي نظرة خاطفة لحياة السوداني في هذه المرحلة ومقارنتها بجماعة قبل الحرب لاثبات الفارق الاساسي بين الاثنين ، « يقصد الحرب الكبرى ١٩١٤ ـــ ١٩١٩ » فالموظف بلا شك انحرف بلا وعي منه في المدنية الحديثة وهذه حقيقة لا تسمح له بالهروب من متطلبات هذه المدنية منمطعموملبس ومسكن وتعليم ... الخ .

ومما لا شك فيه ، ان مبلغ الخمسة جنيهات ونصف التي حددت الآن كمرتب ابتدائي لخريج كلية غردون لا يمكن ان تكفي بأية حالمنالاحوال لسد حاجياته شخصيا حتى ان كان لا يعنى بغير معدته ، ناهيك عن سد حاجة من يعتمدون عليه من الاهـل والاقارب بحكم الدين والتقاليد والعادات التي تتحكم في هذه البلاد ، والتي تدركونها سيادتكم جيدا .

ولكن ـــ حتى اذا افترضنا المستحيل وأهملنا كل هذه الروابط ـــ فكم من هذا المرتب الضئيل يصرفه الموظف في طعامه ، وكم منه في ملبسه

وكم منه في مسكنه ، وكم منه في مواصلاته « مع ملاحظة ان سعر الابونيه ـ في الترام حيث كان وسيلة التنقل الوحيدة بين المدن ـ يتراوح بين ٨٥ قرشا و ١١٥ قرشا وكم في تثرياته وقبيل كل ذلك كيف يمكنه ان يعد نفسه للمستقبل وما فيه من أثقال وآمال كحيازة منزل او زواج وأطفال وتعليم ... الخ . »

يا سعادة الحاكم العام :

اننا لا نريد ان نثقل على الحكومة بطلبات غير معقولة ولكن كل الذي نسعى اليه هو ان نكون قادرين على مقابلة حاجياتنا الاساسية ، وسيادتكم لا شك توافقوننا ، على ان هذا هو أقل ما يمكن ان تطمع اليه نفس انسانية لقد توصلنا ، بعد تدقيق وتمحيص وتحقيق في القانون الجديد ، انه لا يؤخرنا خطوات الى الوراء فحسب ، بل انه سينزل بنا الى مستوى الطبقات الدنيا من سائقين وخدم ... الخ .

لقد عانى خريج كلية غردون مدى اثني عشر عاما من الدرس والتحصيل ليتمكن من تحسين حياته والنهوض بها ومن الصعود بفضل علمه الى مستوى الطبقات العليا التي يلتصق بها دوما في مجال عمله وحياته الخاصة .

ان المدخرات التي يمكن ان تتجمع من هذا التخفيض في المرتبات وبالتالي في المستويات لا يمكن ان تكون وسيلة فعالة في انقاذ الوضع الراهن والحالة المالية السيئة ، ولا سيما وان الحكومة في حاجة لغوث سريع لموازنة الميزانية في السنوات المقبلة والمدخرات التي يمكن ان تجمع من هذا التخفيض لا يمكن ان تبلغ مبلغا محترما لسنين كثيرة مقبلة .

ورغم ذلك فاننا لا نتجاهل حقيقة ان الحكومة في حاجة لاي غوث مهما كان ضئيلا لتقديم الحالة المالية السيئة ، ولكن الاذى المترتب على هذا التخفيف والذي ينسحب على الموظف ليفوق بكثير ما يمكن ان يعود

من التخفيض من حسنات واننا نعتقد ان الحكومة لن تخسر على الأطلاق، اذا ضحت بهذا المبلغ من اجل ان تحفظ الوطن والمواطنين من عوادي الدهر •

كفاءة الموظف السوداني واخلاصه في العمل :

لقد انسلخت الى الآن خمسة وعشرون من الاعوام منذ ان دخل الموظف السوداني الذي تلقى العلوم الحديثة الى الخدمة الحكومية •

وفي هذه الفترة اضطلع الموظف السوداني بمسئوليات كثيرة في عدد من مصالح الحكومة ، ونحن لا نتردد مطلقا في القول بأن الموظف السوداني قد أبدى كفاءة واخلاصا وحيوية ومواظبة تؤهله لتولي المسئولية حتى في الاقسام الهندسية الصعبة التي لم يتخصص فيها ، وقد اهله لكل ذلك استعداده الطبيعي وحرصه على اثراء معلوماته واستفادته من الخبرة العملية وقبل كل ذلك ما لقيه من عون ومساعدة من موظفي حكومة السودان الممتازين الا ان الموظف السوداني في وضعه الحالي كموظف صغير محجوب عن المسئول البريطاني ، عاجز عن اظهار مواهبه للرئيس البريطاني وأهليته لتولي مناصب أرفع ، وفي الفرص البسيطة التي تمكن فيها البعض من قيادة بعض المكاتب ثبت ما لدى الموظف السوداني من مواهب جمة وتمكن البعض من تولي مناصب كبيرة •

وبالاضافة الى ذلك فان التقارير ــ التي لا شك قد اطلعتم عليها لتثبت بوضوح كفاءة الموظف السوداني وحبه لعمله •

يا سعادة الحاكم العام :

ان الموظف السوداني ، مسلح بحبه لعمله وباخلاصه في خدمة بلاده وبالكفاءة التي أثبتها ، وبالخبرة التي اكتسبها ليتقدم الى سيادتكم طالبا العطف والعدالة وطالبا وضعه في مكانه الطبيعي ــ خلف المسئول البريطاني •

التعليم :

يا معالي الحاكم العام :

ان الظروف الراهنة قد أثبتت بما لا يدع مجالا للشك ــ نسبة لقلة التوظيف وازياد عدد السودانيين المتعلمين ــ ان الوقت حان لاجراء تغيير أساسي في التعليم العالي في البلاد حتى يمكن تفادي العطالة ــ في هذا الوقت المبكر ــ والتي تطل الآن برأسها وتهدد بأن تصبح مشكلة يتعذر حلها وتصعب معالجتها . وان المناهج الحالية في التعليم تهدف في المقام الاول لاعداد موظفين لحكومة السودان . ولكن الحاجة تتطلب الآن ان يعد الطلاب في السودان للخدمة في مجالات أخرى غير الحكومة وذلك بواسطة :

١ ــ ترقية مستوى التوجيه الحالي في أقسام كلية غردون الحالية الى المستوى الذي يمكن لخريجيها ان ينافسوا الاجانب الذين يزحمون القطاع الخاص بفضل درجات تعليمهم العليا .

٢ ــ العمل على ان تشمل مناهج التدريس المزيد من المهن التي لم توفر حتى الآن مثل التجارة والقانون والزراعة والبيطرة ... الخ وان هذا من شأنه ان يفتح للخريجين آفاقا جديدة لكسب عيشهم دون الاعتماد على الحكومة .

ولاء الموظف السوداني :

ان الموظف السوداني يحس بمجهودات الحكومة للنهوض بهذا الوطن والتي يتحدث في حالة المدنية التي وصلنا اليها في ثلث قرن وهو زمن قصير جدا بالنسبة لاعمار الشعوب ، وان الموظف السوداني ليحس انه هو نفسه نتاج لهذه الجهودات ولهذا ولاءه للحكومة لا يمكن الا ان يكون حقيقيا وصادقا وان يكون ولاء يدفعه لخدمة الحكومة في كل وقت وتقدير ما تقدم به ، وعكس ما يحس به من احاسيس صادقة ومن مظالم في بعض

الاحيان ، وهذا الولاء لا شك يختلف عن الولاء المزيف الذي تبديه بعض القطاعات الاخرى من الناس والمدفوعة باغراضها الخاصة .

يا سعادة الحاكم العام :

ان أقصى ما يرغب فيه الموظف السوداني هو ان يعيش في تفاهم تام وتعاون مع حكومته وان يؤدي وظيفته الاساسية في الادارة وتقدم البلاد كعضو حي من مجموع السكان . وهو ايضا حريص كل الحرص وعند طرح آماله وآلامه على حكومته ومنفعتها وتقدمها ولا يمكن ان تعدمطالبه كنوع من فقدان الثقة او الجحود بافضال حكومته .

عمومـي :

يا سعادة الحاكم العام :

ان الامل هو محور الحياة في هذا العالم ، وبالامـل وحده يتحمل الانسان مصاعب الدنيا ، وان الموظف السوداني امتثالا بهذه الحكمة ليتحمل في صبر بالغ ان يرى من هم دونه يقفون حائلا بينه وبين مكانه الطبيعي في الصدارة بعد البريطانيين ـ مدركا للاسباب التي وضعتهم هناك ، ولكنه في الوقت ذاته يأمل ان يصحح هذا الوضع وان يتحرك هو الى مكانه الطبيعي .

وانه مما لا شك فيه ، ان من المهم جدا ان يوضع الموظف السوداني في مكان متساو ـ ان لم يكن افضل من زميله الموظف غير البريطاني وانه لا ينبغي ألا يكون في القوانين ما يجعله يحس بانه في مرتبة أقل من الموظفين غير البريطانيين. ومن المهم أيضا وبقدر متكافىء أن يلقى الموظف السوداني من المعاملة من رؤسائه ما يحيي فيه جذوة الامل في المستقبل ويشجعه على العمل دون استرخاء ، والا فان الموظف لا شك سيفقد آماله ويترك عنانه لليأس ويقع فريسة خيبة الامل .

اننا لنؤمن انه ليس من وظيفتنا ان نقترح للحكومة الحلول اللازمة

الحالية الراهنة ، ولكن اخلاصنا للحكومة يدفعنا لان نتقدم بهذه الحقائق للحكومة •

ان نصف الموظفين الذين يعملون الآن في خدمة الحكومة غير بريطانيين وغير سودانيين • وهم يتقاضون من المرتبات ما يقرب من ربع مليون جنيه، وهو ما يساوي مرتبات السودانيين العاملين بالحكومة ومما لا شك فيه ، ان عدد هؤلاء الموظفين ومستوى مرتباتهم عالي جدا ناهيك عن التكاليف الاخرى تتكبدها في سبيلهم الخزينة ، وانه من مصلحة البلاد في الظروف الراهنة ، ومن أجل اقتصادنا ، ان نستغني عن أكبر عدد ممكن من هؤلاء الموظفين لا سيما وان هناك عددا كافيا من السودانيين يمكن ان يملأ وظائفهم بجدارة •

ونود ان نلفت انظار سيادتكم لمسألة اخرى ايضا ، وهي ان البنوك والمؤسسات التجارية تستفيد من هذه البلاد وليس أقل ان تفيدها بتعيين أبنائها في وظائفها ونرجو ان يعمل سيادتكم على ان يفرض على هذه البنوك والمؤسسات التجارية أمرا بأن تعين السودانيين بدلا من الاجانب الذين تعينهم الآن •

الآن وقد شرحنا لسيادتكم كل ما عن لنا شرحه في هذا الظرف الذي كان يطيح بآمالنا ، ندرك تمام الادراك ان العطف ، والعون الذي قدمه سيادتكم دائما لهذه البلاد ، لن يزول الآن ونحن في هذا الوضع الصعب الحرج واننا لعلى ثقة ان سيادتكم ستستجيبون لكل مطالبنا وستزيلون ظلاماتنا وستحولون متاعبنا الى آمال وانشراح ، وستعملون على ان تحققوا كل ما نصبو اليه من خير ورفعة لهذا الوطن ولشعبه •

أحمد السيد الفيل

عمر اسحق

محمد نور خوجلي

ميرغني حمزة

عبد الماجد أحمد
محمد علي شوقي
محمد الحسن دياب
عثمان حسن عثمان
حسن علي هاشم
محمد صديق فريد

ملحوظة :

في حالة رغبة الحكومة اجراء أي اتصال حول هذه المذكرة الرجاء الاتصال برئيس لجنة الموظفين السيد احمد السيد الفيل .

لم يقم الحاكم العام وزنا لهذه المذكرة وأغفلت الحكومة امرها وأصدر الحاكم العام أمرا يحل لجنة العشرة فورا حتى لا يتيح الفرصة لمناقشات تدور بينها وبين الحكومة تساعد في نشر الوعي الوطني وهو أكثر ما يخشى حدوثه الانجليز .

الحكم للعقل ليس الحكم للصور

دعونا نخرج قليلا عن عالم التقارير والوثائق التي تحدثت عن الازمة الاقتصادية في أوائل الثلاثينات وأدت الى اضراب طلبة الكلية واجتماع الخريجين لانتخاب لجنة العشرة وتقريرها للحاكم العام وما تمخض عنه من فشل وتعالوا معي الى عالم الشعر لنرى ان كان هناك من شاعر هزته أحداث تلك الفترة ، فعبر عن مشاعرنا وما كنا نحس به من غيظ وسخط ؟

بلى ! كان هناك شاعر الجيل الذي كان له في كل مناسبة شعر يتجاوب معنا ، ذلكم هو أستاذنا عبد الله عمر البناء .

وكنا نعرف أن جريدة « حضارة السودان » كانت تحتفي بشعره وتقدمه في ديباجة أخاذة مشيدة به ، معتزة مزهوة بما تنشر له !

ولكنها اليوم توصد أبوابها في وجه الشاعر ، وتأبى نشر قصيدته هذه ، لان الحكومة لم تكن راضية عن القصيدة ، فهي تمس سياستها وتنال منها وتغمزها في أسلوب شعري جيد .

وحسنا فعلت الحضارة ! فقد تناولتها أيدي الشباب المتعلم وأخذ كل منهم يهديها للآخر ... من كان في العاصمة ومن كان خارجها يعمل في أقصى الاقاليم ، كان البريد يزخر بها أنى اتجه .

أذكر أني كنت آنذاك أعمل مدرسا في بادية الكبابيش وجاءتني

رسالة من صديق يحدثني عن القصيدة المحرمة ويرسلها اليّ ولعله لا يدري أية سعادة غمرتني بها وأنا في ذلك القفر البدوي أقرأ أكثر من مرة قصيدة البناء فأجد فيها شفاء الغليل مما كنا نعاني .

اننا دائما نحن للماضي حنينا موجعا وان كان حاضرنا خيرا منه – لو صح ذلك – فقصيدة البناء التي استعرضها اليوم تنقلني الى تلك الفترة التي كنا نشكو من قسوة الحياة فيها وطغيان الاستعمار واذلاله للشعب عامة والمتعلمين خاصة ...

ومع ذلك فأنا أتوق الى ذلك العهد وأتشوق اليه ، ويخيل اليّ ان مرارة تلك الايام تتذوقها الآن شهدا ، بل أحلى من الشهد !

ماذا قال البناء ، وكيف خاطب مشاعرنا آنذاك ؟ وانه يبدأ قصيدته بهذه الثورة النفسية التي جعلته يرفض سراء الحياة فهي ليست من وطره، وينكر الصفاء على قلبه ، وان جمال الطبيعة من حوله لن يكشف الضجر عنه ، ولا الغناء ولا الاوتار ، ففي هذه الايام المظلمة القاسية لا يتطلع الى الانس والبهجة الا جهول بما يحدث في بلاده من مآسي :

يا ناضر الروض ما السراء من وطري
ولا الصفاء الى قلبي بمنتظر
سلوت عن بسمات الزهر رائعة
وعن شميم الشذا من عزمه العطر
وليس للطل منظوما ومنتثرا
ان يكشف الهم عن قلب به ضجر
ولا غناء حمام الايك ينعش من
آماله ، لا ، ولا التوقع بالوتر
لا يظبي الانس والايام مظلمة
الا جهولا ، وليس الجهل بالخبر

أمـا فتـى قلبـه مثل بطـل بـه
على خبايـا الزوايـا فهو في كـدر

ويقف بنا الشاعر عند أرض الجزيرة ليجلو لنا محنتها القاسية وقد هبط سعر القطن وطحنت الازمة آمال المزارعين ، فهربوا من حواشاتهم وتركوها للغزاة من أواسط وغرب أفريقيا ... زحف اليها « البرقو » من السودان الفرنسي « تشاد اليوم » والفلاتة من نيجيريا ، ورضي بهم رجال الادارة لكي ينتجوا القطن الذي أصبح مـادة هامـة لمصانع ليفربول ولانكشير في انجلترا ... وصمـد بعض المزارعين السودانيين للازمـة فعملوا بغير أمل في الكسب في تلك الحواشات ، وكانت محنة مزارعـي الجزيرة من أقسى المحن التي مرت بها البلاد آنذاك لما نالهم في أنفسهم من ضرر ولان الوافدين الغرباء سنحت لهم فرصة تملك الحواشات في أرض الجزيرة الفيحاء ... والشاعر اذ يجلو تلك المأساة ، يذكر بالخير عهد الجزيرة قبل الخزان عندما كانت تروى بالمطر « دموع الميا » فتنيل الخير لاهلها وتنقذهم في السنين السود :

مـا للجزيـرة جـلا اللـه كـربتهـا
تخالها ــ وهيأرض الخلد ــ في سقر!
جـداول تتبـارى وهـي طـافحـة
كأدمـع الحـزن لا توليك عن ثمـر
وشقـة في اكتسـاب المـال مهلكـة
والمـال ليس له في القـوم من أثـر
أرض دمـوع الحيا كانت تصوغ لهـا
في كل أونـة عقـدا مـن الـدرر
والغيـث ينعش أهليهـا اذا كلحـت
سود السنـين وضلت حكمة البشر

ويذكر الشاعر مأساة الجزيرة بعد أن جرت فيها جداول ماء الخزان بعد المطر ، فاذا بخصبها « يضني العباد » وان لم يستفد من زرعها غير البقر التي كان يلقى اليها القطن علفا !

ما بـال فيضك يا نيل الحياة غدا
فيها سقاما ، وما للترب غير شري !
ما بـال خصبك قد أضنى العباد ولم
تظهر مواقعه الا على « البقر »
ما بـال من جوهدوا في خدمة صمتوا
كأنما قد رموا بالعي والحصر !
هل أضمر النيل غدراً للألىء قهروا
مجراه أن يركب البيداء بالحفر
أم أكبر الترب من سكانه صلفا
فأشقاهم أدبا بالضيق والعسر
أم كان لله شأن في خليقته
ولقاهمو منه خطبا غير منتظر

وينتقل بنا الشاعر الى مأساة أخرى كنا نضج منها ... كانت الحكومة قد خلقت نظام الادارة الاهلية وحشدت له النظار والعمد والمشايخ ، وقوت من شأنهم وأسندت اليهم سلطات واسعة ، وأمدتهم بسلطات قضائية باعدت بينهم وبين أهلهم وعشيرتهم وسائر الناس لما عرف بهم أكثرهم من سوء تطبيق هذه السلطات ، وجنوحهم الى التشفي والانتقام من مخالفيهم جهرا أو سرا ... وكان الانجليز يؤيدونهم في كل ما يفعلون سعيا منهم لتوطيد هذا النظام الجديد ... يتلفت الشاعر الى هذه الفئة الجديدة التي كان في مقدورها أن تنصح الحاكمين وتوجههم لمعالجة الموقف بما يعود بالخير للبلاد ، ولكنهم صمتوا ، بل سايروا الحاكمين في

سياستهم . والشاعر هنا يجعلهم مجرد صور لا تحس بمسئولية الحكم ولا بمسئوليتها نحو البلاد ...

ويقول :

يـا أمـة هـي بالاحكـام مـولعـة
الحكم للعقل ليس الحكم للصـور

سألتكـم ـ وخطـى الاعمـال واقفـة
وسلعـة القطـن أمست شر متجـر

ماذا سكوتكـم ؟ وماذا كان قولكمـو
عن البـلاد وما تخشـاه من ضرر ؟

من للبنـين وقـد ضاق الخنـاق بهـم
وأصبحوا حين عز العلـم في غـرر

أيتركون على حكـم الهـوى همـلا ؟
وهم همو للمعالي خـير مدخـر ؟

ردوا الجـواب ، رعيتم يا بني وطنـي
أو أتقوا الله وأسعوا سعي ذي حذر

فالارض شائكـة وعـر مسلكهـا
وكلكـم عجـل ماشي عـلى الابـر

والبناء هنا يذكر هؤلاء الذين قربهـم الانجليز من رجالات الادارة الاهلية بواجبهم نحو أبنائهم المتعلمين الذين أخذ الانجليز يحاربونهم في أرزاقهم فخفضوا مرتباتهم وقللـوا من شأنهم ، ويذكرهم بأن الخير كل الخير في البر بالوطن .

مـا كـرم المـرء شيء مثـل غـيرتـه
على الشبيبـة يحيي كـل منـدثـر

ولا فخـار بغـير الصالحـات ... ولا
يبقى سوى البر بالاوطـان في السير
رب الضعيف على الانصاف تلقـى بـه
عونـا على الدهر ان تأمره يأتمـر
ولا تسـق بالعصـا قومـا ذوي شرف
فالحـر يأنف أن يرضـى بمحتقـر

ويهيب بالشباب ، ان كانت دور العلم لم تعد غير مجال للكوارث التي تحيق بهم ، فليتجهوا الى الصناعة ففيها منجاة من الخطر !

ما الحكم ، ما العلم ، ما الاعمال أجمعهـا
الا نمـاذج من وعـظ ومن عبـر

وقد يبدو ما جاء في هذه القصيدة عاديا في هذه الايام التي نعم فيها الناس بالحرية ، ولكنها آنذاك كانت ثورة حفل بها الشباب ، فحفظهـا أكثرهم عن ظهر قلب ، وتناقلها في كل مكان وزاد من أثرها ان الحكومة حاربتها ، وأبت جريدتها الرسمية أن تنشرها ، بعد ان كانت تحتفي بشعر البناء وتضعه في الصدارة .

لاضعاف فرص الخريجين للقيادة

قلت من قبل أن الانجليز لم يخفوا حنقهم ومقتهم للخريجين بعد ثورة ١٩٢٤ اذ أخذوا يناصبونهم العداء جهـرة ، وأحس الخريجـون في كل المكاتب التي يعملون فيها بكراهية رؤسائهـم الانجليز لهم وتحقيرهـم لشأنهم كلما واتتهم فرص التحقير ، بل كانت هذه الفرص تخلق خلقا ومن أتفه الاسباب •

وبادلهم الخريجون نفس شعور الكراهية والحقد ، ولكنهم لم يكونوا في موقف يمكنهم من التجمع واتخاذ خطوة ما ، كانوا يتوقون لليـوم الذي يجتمعون فيه في صعيد واحد ليجمعوا أمرهم على خطوة ما تظهر قوتهم وترصد أعداءهم •

ولم يقف الانجليز في كراهيتهم للخريجين عنـد حد ابداء مشاعرهم فقط بل عمدوا الى اصدار القوانين واللوائـح التي تسلب الخريجين ما كانوا يتمتعون به من حقوق ضئيلة بالنسبة لغيرهم من الموظفين الاجانب ولا سيما الانجليز الذين كانوا يحظون بنصيب الاسد من الخزينة •

عمد الانجليز الى مرتبـات الخريجين وعلاواتهم فأنقصوها وبتروا الاجازات الى أقل حد ممكن ، بدلوا الدرجات القديمة التي كانت أفسح مجالا الى أخرى قيدت خطوات الترقي •

وكان الظن بعد أن أقصي الموظفون المصريون بعد ثـورة ١٩٢٤ أن يحل الموظفون السودانيون محلهـم في الوظائف التي شغرت باقصـاء المصريين ، ولكن الذي حدث ان قرب الانجليز اليهم الموظفين السوريين واللبنانيين وشغلوا بهم المناصب وأدنوهم وجعلوا منهم سدا يحول بينهم وبين الموظفين السودانيين •

ثم خطوا خطوة خطيرة هدفها اقصاء الخريجين من أي تطلع لقيـادة المجتمع فاتجهوا لخلق نظام الادارات الاهلية ، بهـدف قيام حكم محلي قيامه ودعاماته النظار والمشايخ والعمد ، فصنعوا منهم قوة أصبحت مركز الثقل في المجتمع آنذاك •

أصدروا أولا قانون سلطات المشايخ الرحل ، في عهد الطاغية المستر مكمايكل السكرتير الاداري وأوفدوا رسلهم الى نيجيريا لدراسة تجربة الادارة الاهلية التي بدأت هناك تحت رعايـة وتخطيـط أحد دهاقنـة الاستعمار البريطاني عندما كان يهيمن على نيجيريا •

وكان اللورد ملنر السياسي المعروف في تاريـخ مصر والسودان قد نصح حكومة السودان في تقريره المشهور بألا تقع في الخطأ الذي وقعوا فيه في مصر بافساح المجال للمتعلمين لكي يقودوا المجتمع ، وقد حـذر الحكومة تبعا لهذا الوضع من التوسع في التعليـم حتى لا يكثـر عدد المتعلمين ، هذا البعبع المخيف •••• والذي ابتلعهم فيما بعد رغم شدة الحذر ••• حقا ، من مأمنه يؤتى الحذر •

أخذ الانجليز بنظام الادارة الاهلية بعد أن شهدوا التجربة في تربتها نيجيريا ــ وصاروا يبحثون عن القيادات القبلية التاريخية التي لم يعد لها كيان ، وأعادوا كيانها من جديد ، فخلقـوا نظارا ونظارات من العـدم ومنحوها سلطات واسعة ، وشدوا من ازر النظارات التي كان وجودها أشبه بالرمز ومنحوها حياة قوية خصبة •

وجعلوا من جريدة حضـارة السودان ــ الجريدة الوحيدة آنذاك والناطقة باسمهم وان كانت تحمل أسماء السادة الثلاثة السيد علي الميرغني والسيد عبد الرحمن المهدي والشريف يوسف الهندي كأصحاب امتياز لها ــ جعلوا منها بوقا للنظام الجديد يتحـدث عنه في اسهاب ، ويقوم رئيس تحريرها المغفور له الشيخ أحمد عثمان القاضي بجولات في مختلف أنحاء السودان يشيد بالوضع الجديد ويعرض محاسنه ويثبت من دعائمه..

وأحس الخريجون بالخطر يحدق بهم من كل جانب ، فهذا النظـام الجديد موجه ضدهـم ، وهم يحاربون من قبـل رؤسائهم الانجليـز وأعوانهم داخل مكاتبهم بألوان من السلاح ــ وفي كل فترة يصدر منشور جديد يسلبهم من حقوقهم قدرا ... ولم يكن اضراب طلبة الكلية الا مجرد ذريعة ليعقد الخريجون اجتماعهم التاريخـي والاول من نوعه في نادي الخريجين بأم درمان مهد الحركة الوطنية بحق ... في مستهـل الثلاثينات ، حدثت أزمة اقتصادية عالية ، ونال السودان ما نال غيره من شواظ تلك الازمة ...

كان السودانيون بمعزل تام عن معرفة ميزانية بلادهم ، كيف توضع وكيف تنفق ؟ اذ كان الانجليز قد انفردوا وحدهم بوضع الميزانية ، فهي سر مغلق على غيرهم ، وخاصة السودانيين ، فلا أحد منهم يدرك كنهها أو يقترب من محيط أسرارها .

وفوجئوا بالازمة ، لان الغرم قد وقع عليهم وحدهم فقد استخدمت حكومة السودان رجلا زعمت انه من خبراء الاقتصاد ليصلح من شأن الميزانية ويعينها على اجتياز ذلك المأزق الذي وجدت فيه .

وجاء مستر « فاس » الخبير المرتقب ، فلم يجد أمامه لاصلاح الحال الا مرتبات الموظفين والعمال فأعلن عن اقتطاع ٧٫٥ ٪ من كل المرتبات.. ثم أعلن عن حاجة الحكومة الى « استدانة » شهرية من مرتبات الموظفين. لمن يشاء منهم ترد اليهم فيما بعد ...

ووجد هذا النداء استجابة ضئيلة من بعض الموظفين فأقدموا على منح الخزينة نحو ٥ ٪ من مرتباتهم فوق ٧٫٥ ٪ وبعضهم قدم أقل ... وبعض أكثر ... ولا أحب اليوم أن أتهم هؤلاء بما اتهمهم به اخوانهم في ذلك العهد ، بأنهم فعلوا ذلك تملقا ، اذ كان كل متبرع او دائن ، يتلقى خطاب شكر من رئيس مصلحته شخصيا . على ان هؤلاء كانوا قلة لم يكن لها أثر يذكر على الخزينة التي لم نكن نعلم مدى عجزها ، وأسبابه ، ولكنا كنا جميعا نحس بهذا الاقتطاع الجبري من مرتباتنا لترقيعها .

ثم هوى مستر « فاس » بفأسه على رؤوس الكثيرين من الموظفين والعمال ففصلهم من العمل بحجة « التوفير » ... احتال على بعض الموظفين والعمال بعدم معرفة الكتابة فحرمهم من العمل ، وقد اشتق السودانيون آنذاك من الكلمة الانجليزية التي كانت تستعمل لتوفير الموظفين والعمال كلمة « ترنشة » فيقولون : فلان ترنشوه ويعنون انه فصل من العمل ... بل ان الكلمة قد اتسع نطاق استعمالها حتى شملت الطلاق ... فاذا خبروا عن طلاق زيد ، قالوا عنه انه « ترنش » زوجته.. وهكذا استقبل السودانيون تلك الكوارث والفواجع في جو من السخرية ، ولم يهنوا او تهبط معنوياتهم للحد المزري بالكرامة .

وبعدت الشقة بين الخريجين والانجليز ، وعم السخط أوساطهم وتمادى الانجليز في الضغط على الخريجين ، الذين كانت تستوعبهم مكاتب الحكومة وتقيدهم الوظيفة ، اذ لا مجال للعمل الحر ، فالشركات القليلة القائمة كانت كلها انجليزية او تخضع للنفوذ الانجليزي ، وموظفوها الكبار كلهم انجليز ، يعاونهم مساعدون من الاوروبيين وأكثرهم من اليونان ولا يوجد سوداني واحد في مكاتب هذه الشركات الا في الخدمات الصغيرة التي يترفع عن ادائها السادة البيض كل هذا قد ساعد الانجليز لكي يشددوا ، النكير على الخريجين ويسوموهم العذاب ، وفي الوقت

نفسه يفرقون على زعماء العشائر السلطان والنفوذ والجاه ويضربون بقسوة ضارية كل من تحدثه نفسه بمعارضتهم أو النيل منهم • فقد كان واضحا منذ البداية ان الانجليز خلقوا نظام الادارة الاهلية للقضاء على نفوذ الخريجين في المجتمع ، وسد الطريق امام تطلعاتهم لكي يكون لهم شأن في حكم بلادهم •

ولا يمكن لاحد لم يعش تلك الفترة ويكتوي بنارها ان يتصور الى أي مدى كان الارهاب الذي بسطه الانجليز على مجتمع الخريجين وكيف كان قلم المخابرات يحصي كل خطواتهم ، حتى حياتهم الخاصة كانت ترصد وتحصى ••• ويحاسبون عليها حسابا عسيرا •

ومع الاسف ــ أكتب هذا وأنا حزين متألم ــ فان قلم المخابرات الرسمي لم يكن وحده في هذا الميدان ، فقد كان هناك أيضا بعض ضعاف النفوس من الموظفين جعلوا من أنفسهم عيونا على اخوانهم لدى الانجليز ••• ولم تكن هذه القلة بمجهولة من الآخرين فقد كان اكثرهم « مكشوفا » ولهذا فهو قليل الخطر ••• ولكن كان الخطر يكمن في تلك القلة البارعة الذكاء والتي كانت تحسن الظهور في الزي الوطني المتطرف، وتجيد أحاديث الوطنية ولكنها تعمل في الخفاء ما يخجل من القيام به الجواسيس المحترفون في قسم المخابرات • ولكن القافلة كانت تسير في حذر ويقظة رغم تساقط الضحايا هنا وهناك •

فالى نادي الخريجين بأم درمان لنلتقي بجمعهم الحاشد يواجه لاول مرة مشاكلهم جهرة •

المستشرق زويمر يحاضر في السودان

في مستهل الثلاثينات زار العاصمة السودانية القس المبشر المشهور صمويل زويمر ، الذي يعد من أشهر المستشرقين في تلك الفترة .

وكان زويمر قد اتخذ من الكنيسة الامريكية في القاهرة مقرا له وكان يجيد اللغة العربية الفصحى نطقا وكتابة ، وقد كان له اهتمام بالغ بالتاريخ العربي عامة والدراسات الاسلامية خاصة ، وكان يهدف من وراء هذه الدراسات الى البحث عن المطاعن التي يمكن ان يوجهها الى الدين الاسلامي .

وكان مقره القاهرة مقصدا لعدد كبير من العلماء المسلمين وغير المسلمين من مختلف الاقطار يناقشونه وقد يهاجمونه في قسوة لما كان يبثه من أفكار تمس من قريب أو من بعيد الدين الاسلامي او التاريخ العربي بقدر من التشويه .

وكان له مع علماء الازهر في تلك الفترة مساجلات حارة يذكرها من عاشوا تلك الفترة ، فقد كان زويمر دائما موضع هجوم اولئك العلماء، فاكتسب بذلك شهرة واسعة في كل الاقطار العربية .

ولهذا فان زيارته للسودان كانت حدثا اهتم له المثقفون والعلماء ، ولم تكن هذه الزيارة الاولى لزويمر فقد سبقتها قبل سنوات زيارة قصيرة سنعرض لها فيما بعد .

قلت ان زويمر كان متمكنا من اللغة العربية الفصحى ، وقد سمعت انه وضع كتابا باللغة العربية اسمه « الغواص واللآلىء في حياة الغزالي »•

وكان يحرر في مجلة « العالم الاسلامي » باللغــة الانجليزية • وفي صفحة ٢٣٨ من (المنجد) للاعلام كتب ما يلي :

(صمويل زويمر) مستشرق ــ محرر مجلــة العالــم الاسلامــي بالانجليزية ــ له مؤلفات قيمة في العلاقات بين المسيحية والاسلام ، منها (يسوع في احياء الغزالي ألفه سنة ١٩١٢) •

وزيارة رجل كهذا للسودان لا بد من ان تحظى بالاهتمام الكبير من العلماء والمثقفين ، ولم يلبث الا قليلا حتى أعلــن عن القاء محاضرة عن سيدنا عمر بن الخطاب في دار الارسالية الانجليزية في مقرها بأم درمان •

وفي الموعد المحدد جاء عدد كبير من العلماء والمثقفين ليستمعــوا الى هذا المستشرق الامريكي يتحدث باللغة العربية الفصحى عن سيدنا عمر•

واعتلى المنصة ، وأخذ يتحدث بلغة سليمة الا ان لسانه ما زال يعاني من لكنة العجمي بعض العناء •

وأحس المنصتون لحديثه ان زويمر يرفــع من شأن سيدنا عمر في مناسبات معينة لها صلة بالنبي الكريم وكأنه يريد أن يثبت من طرف خفي ان سيدنا عمر كان يوجه النبي ، وان القرآن قد نصره في غير موضع عندما أبدى آراء تغاير آراء النبي ، وقد استدل في هذا بموقفه من أسرى موقعة (بدر) فقد كان من رأي النبي ان يقبل فيهم الفداء فيطلــق سراحهم ، وعارض عمر هذا الرأي ، ونادى بقتلهم ، وهبط الوحي يتلو على النبي آيات قتلهم كما رأى عمر (سورة الانفال) ثم عرج على قصة (الحجاب) لنساء النبي ، وكيف نزل القرآن مؤيدا له (سورة الاحزاب) •

وعرج على قصة تحريم الخمر ورأي عمر فيها ونزول القرآن مؤيدا (المائدة ــ البقرة) .

وأشار الى بعض أقوال الاقدمين في سيدنا عمر وموافقة القرآن له في بعض آرائه التي خالف فيها النبي :

(نزل القرآن بموافقته في أسرى بدر ، وفي تحريم الخمر وفي مقام ابراهيم) .

بمثل هذا وغيره كان يتحدث زويمر في تلك الليلة لمستمعيه في الارسالية الانجليزية بأم درمان . ويذكر الحاضرون انه كان يدلل على قوة اثر عمر في الدين ان النبي الكريم كان يتلو عليهم الآيات (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر ... وهنا قال عمر : فتبارك الله أحسن الخالقين ، وجاء هكذا ختام هذه الآيات كما نطق عمر ...

وأفاض زويمر في الاشادة بعبقرية عمر متخذا من المواطن الذي أيد فيها القرآن آراء عمر دليلا على هذه العبقرية ، وكما قلت كأنه أراد من طرف خفي ، وفي خبث غير مستور أن يوهم المستمعين بأن عمر كان أبعد نظرا وأصح رأيا من النبي محمد صلى الله عليه وسلم .

وأحدثت المحاضرة ضجة في الاوساط الثقافية ، وثار الكثيرون على القس المبشر وتصدوا له بحملات عنيفة .

وكان زويمر فوق مكانته المسيحية ، الرجل المدلل لدى الانجليز المستعمرين الذين كان لهم آنذاك تفوذ قوي على البلاد .

ومع الاسف لم تكن هناك في تلك الفترة صحف في السودان لتكون منبرا لحملة العلماء ، فقد كانت هناك صحيفة « الحضارة » وحدها وهي صحيفة حكومية لا سبيل الى استغلالها في الرد على زويمر .

وكان العلماء والمثقفون ينتهزون فرص اللقــاء في بعض الاماكــن ليواجهوه بالرأي فيما تحدث به ويهاجموه فيما جاء في محاضرته .

وقد كان من أقسى هؤلاء عليه شيخنا طيب الذكر المغفور له الطيب السراج ، لقي زويمر لسوء حظــه ــ في المركب الذي كان يعبر النهــر بالركاب بين مدينتي الخرطوم بحري وأم درمان وشيخنا السراج كما نعلم قل نظراؤه في الشرق العربي غيرة على العروبة وتاريخهــا وتراثها ، وقد ساءه تهجم هذا الدعي على لغة العرب وتاريخهم ودينهم ، وهو العالم بكل هذا علما وافرا حتى صار في هذا مرجعا دقيقا بلغ حد الاعجاز .

وتناول الشيخ الطيب في المركب وهو يمخر بهم النهر القس زويمر وقد اجتمع حولهما كل الركاب وما زال يحاصره بالرأي والحجة حتى بان عجزه واتضحت جهالته بجانب غزارة علم الشيخ السراج .

ولما بلغت الباخرة شط النهر بأم درمان ، رأى الشيخ الطيب امعانا في احتقار زويمر أن يأمره بالانتظار حتى يخــرج جميع الركاب ليخرج في آخرهم ، فلما خرج الركاب أمره بالبقاء حتى تخرج الدواب وظل زويمر قابعا في مقعده وقد بدا عليه الهوان والصغار حتى لم يبق كائن حي في الباخرة . وتناقل المجتمع في كثير من الغبطة والرضاء ــ مواقف السراج من زويمر وكيف سخر منه وأذله ... وكان في هذا التصرف على ما فيه من قسوة ظاهرة ، متنفس للذين لم يجدوا فرصة الاقتصاص من القس الذي أراد أن يتطاول على مقام محمد صلى الله عليه وسلم عن طريــق الثناء على عمر .

قلت ان زويمر كانت له زيارة سابقة ، لعلها كانت في عام ١٩٢٧ ، وفي هذه الزيارة أراد أن ينفث سمومه بين طلبة كلية غردون القديمة ، فجــاء ليلقي محاضرة عن بعض البلاد العربية مبتدئا بالاراضي المقدسة ، وجمع

المستر يودال عميد الكلية آنذاك كل الطلبة للاستماع للمحاضرة ، وكان زويمر قد صحب معه آلة عرض لصور الاماكـــن التي سيتحدث عنها ، وجلس الطلبة في صمت وهدوء ، ووقف زويمر يتحدث ، ووقف بجانبه المستر يودال مدير الكلية ، الرجل القوي المستبد الذي يمثل الاستعمار في أقبح حالاته ــ وكان الجو مشبعا بالارهاب والكبت ، فماذا يفعـــل الطلبة لكي يفسدوا محاضرة زويمر وقد أكرهوا على حضورها والاستماع اليها ؟..

وبدأ زويمر يتحدث وجاء ذكر النبي وبالطبع لم يشفع زويمر اسم النبي بالصلاة عليه وصاح الطلبة كأنهم وجـــدوا انقـــاذ الموقف هنا ــ صاحوا بصوت كالرعد صلى الله عليه وسلم !..

وذهل زويمر وصمت برهة ثم واصل حديثه ، ووجد الطلبة في الصلاة على النبي طوق النجاة من الاستماع للمحـــاضر ، فكان اذا ذكر زويمر (الحجر الاسود) مثلا دوت أصواتهم .. صلى الله عليه وسلم .. واذا ذكر بقعة في الاراضي المقدسة .. ارتفعت أصواتهم بالصلاة على النبي.. ولم يملك مدير الكلية غيظه ، فصاح فيهم معاتبا بأن الصلاة انما تكون عند ذكر اسم النبي فقط ، فكان الرد ان ارتفعت الاصوات بالصلاة على النبي ، وأدرك زويمر وصاحبه ان هذا يعني رفض الطلبـــة للاستمـــاع للمحاضرة ، فطوى أوراقه وذهب ومعه صاحبه مدير الكلية وقد احمر وجهه من فرط الغضب ، ولكن ماذا يفعـــل ؟ وقد سلك الطلبة الاذكياء أسلوبا لن يستطيع ان يدينهم بسببه ، وماذا عساه يقول عن طلبة يصلون على النبي ؟!! وهل يقبل منه المجتمع السوداني المسلم أن يعتبر الصلاة على النبي جريمة يعاقب عليها أبناؤهم !.

وشيعهما الطلبة بأصوات تدوي كالرعد ... صلى الله عليه وسلم امعانا في اغاظتهما !..

السيد علي الميرغني وعرش السودان

هل عرض الانجليز على السيد علي الميرغني ان يختاروه ملكا على السودان وذلك في نهاية الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ — ١٩١٩) وظل العرض قائما حتى زيارة اللورد ألنبي للسودان في ابريل ١٩٢٢ ؟•

ظلت الاجابة على هذا السؤال تدور بيننا ، وفي مجتمعات ولقاءات المثقفين الخاصة دون تحديد قاطع ، اذ كان بعضنا يقطع بحقيقتها وبعضنا يتشكك فيها والبعض الآخر ينفي وينكر حدوث ذلك •

ورأيت وأنا أنقب وأبحث عن الحقائق التاريخية التي يعن لي البحث عنها ان أتصل بالسيد علي الميرغني شخصيا وأسأله عن هذا الامر ، وأنا أعلم انه لن يتردد في ذكر الحقيقة ولكنه اذا لم يرد الاجابة لسبب ما فانه قدير على تحويل دفة الحديث الى وجهة أخرى بلباقة دون احراج له او لسائله وتلك حقيقة يعرفها كل المتصلين به •

وجئت اليه مع صديقين من خاصته وجلست قبالتــه أتأمله وهو في التسعين من عمره أو يزيد قليــلا متماسك الجسم يتحدث بطلاقــة دون تلعثم ، جيد الذاكرة ، وبعد أن أدرنا معه حديثا أنس اليه بادرته بسؤالي عن حقيقة عرض الملك عليه من قبل الانجليز ، والاختلاف حول تأكيــد هذه الحقيقة أو نفيها ، فأجابني في يقين وتثبت ، نعم تقدم الي الانجليز

بهذا العرض واعتذرت عنه . قلت هل حدث ان كتبوا اليك رسائل تحمل هذا المعنى ؟ فقال كلا كانوا يبعثون الي برسل من كبارهم يتحدثون معي في هذا الشأن. قلت : ولماذا رفضت ؟ قال : ان الملك الذي يصنعه الانجليز بيد يمكن ان يسحبوه باليد الاخرى متى أرادوا لانه ملك لا يقوم برضاء الشعب ورغبته وانما يكون مفروض عليه ، ومن السهل انتزاعه والامثلة على ذلك عديدة .

ونقول : لماذا فكرت انجلترا في ايجاد عرش في السودان ؟ المعروف انها بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى وانتصارها وحلفائها في هذه الحرب وقد كسبت بلادا جديدة من تركة الخلافة العثمانية خاصة رأت أن تشكل نظما جديدة للحكم في البلاد التي تبسط نفوذها عليها تضمن ولاءها وتؤمن استعمارها . ومن العسير أن أدخل هنا في ذكر تفاصيل ما أحدثت من تغيرات في تلك الفترة ولكنا نعرف ان السودان بحكم المعاهدة بينها وبين مصر بعد الثورة المهدية أصبح مناصفة بينهما الا ان هذه المناصفة لم تكن مطبقة في الحكم الذي كان الانجليز يستأثرون به تقريبا ثم صاروا يبذلون كل جهودهم الخفية والواضحة لابعاد مصر عن السودان لينفردوا به تحت وصايتهم كما يزعمون .

وبعد انتهاء الحرب الاولى عام ١٩١٩ كونت حكومة السودان وفدا من كبار السودانيين من رجال الدين ، كبار العلماء ، وزعماء العشائر برئاسة السيد علي الميرغني ليرفع التهنئة باسم السودان لملك انجلترا بمناسبة انتصار انجلترا وحلفائها في تلك الحرب . وكان مع السيد علي الميرغني من رجال الدين السيد عبد الرحمن المهدي والشريف يوسف الهندي ، ويبدو ان رئاسة السيد علي لهذا الوفد لفتت اليه كبار المسئولين بانجلترا ورأوا فيه الرجل الذي يمكن ان يجعلوه ملكا على السودان وهم يخططون سياستهم الجديدة .

وكتب المسئولون في انجلترا الى حاكم عام السودان يعرضون عليه هذه الفكرة ويطلبون رأيه فيها وقيل ان كبـار معاونيه وفي مقدمتهم « مكمايكل » السكرتير الاداري عارضوا هذه الفكرة ذاكرين ان السودان يتكون من قبائل مختلفة وطائفية مختلفة وانه من الصعب ان يرتضوا بقيادة واحدة من بين السودانيين .

ومهما يكن فان هذا العرض عرف لدى القيادة الوطنية في مصر ممثلة في المغفور له سعد زغلول ومن حوله من أقطاب حزب الوفد المصري كما سيجيء الاستدلال عليه في هذا الحديث .

واحتدمت الثورة في مصر ضد الانجليز على النحو المعروف ورفعت شعار جلاء الانجليز عن وادي النيل كله والوحدة بين مصر والسودان ، ونشطت السياسة الانجليزية لكي تفسد هذا الشعار وجددت محاولتها هذه المرة لكي يقبل السيد علي الميرغني لتجعله ملكا على السودان وفي شهر ابريل عام ١٩٢٢ كما ذكرت ، زار السودان اللورد ألنبي زيارةرسمية كان يشغل منصب نائب ملك انجلترا لمصر والسودان ومقره القاهرة ، وكان بحكم وضعه ممثلا للملك انجلترا صاحب نفوذ لا يقاوم في تلكالفترة وفي زيارته هذه الى الخرطوم بعث برسول خاص للسيد علي يجدد له تقديم العرض وهذه المرة لم يكن لمعاوني الحاكم العام كلمة اعتراض لان السياسة العليا آنذاك التي أملتها ظروف الثورة في مصر وشعاراتها وغير ذلك من عوامل تحتم ايجاد موقف في السودان يكون لمصلحة سياستهم، وقد أبدى السيد علي الميرغني الاعتذار ولم يقبل العرض .

وعرف أيضا في مصر لدى قادتها ان اللورد ألنبي في رحلته تلك عرض الملك على السيد علي ونجد أثر ذلك في مقال للكاتب المعروف فكري اباظه نشره في تلك الفترة يسخر فيه من اقامة عرش في السودان .

وأنا هنا لا أجد وثائق رسميـــة لاستدل بها وان كنت أوقن بأن ما تحدث به الي السيد علي الميرغني والآخرين غيري يكفي للاستدلال على صحة هذا العرض ، ولكني أضع أمام القارىء بعض ما نشر في مصر في تلك الآونة ممن لهم أوثق الصلات لاقطاب السياسة المصرية الذين لا تخفى عليهم خافية من تصرفات الانجليز .

عثرت على كتاب تاريخي نادر اسمه « ذكريات سعد عبد العزيز ماهر ورفاقه في ثورة ١٩١٩ » ومؤلفه هو الدكتور يوسف نحاس الذي يعد من أقطاب الحركة الوطنية في مصر منذ نشوب ثـورة مصر ١٩١٩ ومن الشبان المقربين لسعد زغلول شخصيا ، حرص في كتابه هذا على تسجيل يوميات متصلة سجل فيها الكثير من دقائق تلك الفترة كما عاصرها مع سعد زغلول ورفاقه ، ولكي نعطي القارىء صورة عن هذا الرجل أقدم مقطتفات من كتابه تبين تعريفا كافيا عن شخصيته فقد كان يكتب ويسجل عن مشاركة فعلية فهو صديق شخصي لسعد زغلول وعبد العزيز فهمي واسماعيل صدقي واحمد ماهر وكل أقطاب ثورة ١٩١٩ ، كما كان على صلـــة وثيقة بالسلطان حسين كامل والملك فؤاد عندما تبوأ العرش كما تؤكد مذكراته .

ومن الخير أن أنقل فقرات يسيرة من هذا الكتـــاب لزيادة التعريف بمؤلفه حتى نحسن تقويم ما كتب .

يقول في صفحة (٧) :

« عرفت الزعيم الخالد سعد زغلول عام ١٨٩٦ لما كنت طالبا بمدرسة الحقوق الفرنسية بالقاهرة وكان والدي فتح الله نحاس يحدثني عن متانة أخلاق هذا الرجل حديثا جعلني مشوقا للقائه وفي صيف ١٨٩٧ قابلت سعد في باريس وكنت أتأهب لتأدية أول امتحان في الدكتوراه في العلوم

الاقتصادية والمالية فسألني عن موعد امتحاني ليكون حاضرا معي وكان قد حضر ليؤدي امتحان الحقوق في باريس ، فلما اجتزت الامتحان بتفوق وقف سعد وقبلني فرحا لما ناله شاب مصري كان والده من اصدقائه » .

ويقول في صفحة (١٢) عن نشأة الوفد : « يعرف الجميع كيف نشأ الوفد . كنت مع الرجال الاولين الذين فكروا في انشائه وكنا نقضي كل أيامنا من الصباح الى الغروب في بيت سعد ... واتفق على أخذ توكيلات من الامة للوفد بأن يتولى المطالبة بحقوق المصريين ، فقال لي سعد : اجلس على مكتبي لنملي عليك صيغة التوكيل ، وأخذ أعضاء الوفد الحاضرون يناقشون كل كلمة فأصحح وأعيد الى ان وفقنا الى الصيغة التي وقع عليها الافراد والهيئات فكانت فتح باب العمل للوفد » .

ويقول في صفحة (١٩) : « لما شرع في اختيار أعضاء الوفد المصري وأراد سعد أن أكون منهم ولكن عبد العزيز فهمي عارض في ذلك قائلا : نحن في حاجة الى شخص نثق به ثقة كاملة من غير هيئة الوفد الرسمية ، فاذا أردنا مثلا ايفاده للخارج في أمر ذي بال استطاع بسهولة الحصول على جواز سفر ، واذا طرأ ما يدعو ان نستودعه أوراقا هامة او نقودا اطمأننا اليه كل الاطمئنان ، ويوسف نحاس خير من ندخره لمثل ذلك فسألني سعد عن رأيي فأجبته : ان ما يختار لي صديقي عبد العزيز فهمي وتقرونه عليه يصادف من نفسي كل ارتياح » .

ووددت لو اتسع المجال لانقل من مذكرات هذا الرجل الكبير ما يؤكد انه كان من صناع التاريخ في تلك الفترة ومن الذين ـ بحكم وصفهم ـ يعرفون حقائق السياسة العليا ، وان ما سجله في يومياته في الجزء الاخير من هذا الكتاب عن أحداث ثورة ١٩١٩ ليعد مرجعا تاريخيا قيما للغاية . ويقول عن عرض الانجليز الملك على السيد علي الميرغني ما سجله على

صفحة (٨٥) عن يومي ٢٩ و ٣٠ ابريل ١٩١٩ من مذكراته ما نصه :

« عرض البريطانيون على الحسيب النسيب السيد علي الميرغني ان يقيموه سلطانا على السودان فأبى » •

ولا يمكن لهذا الرجل وهو في هذه المكانة من السياسة العليا في مصر أن يرسل القول على عواهنه وانما عن تأكد ويقين ، هذا عن العرض الذي حدث في عام ١٩١٩ كما سجلته يوميات يوسف نحاس •

اما عن العرض الذي جاء حين زيارة اللورد ألنبي للسودان عام ١٩٢٢ فأنا أنقل هنا بعض فقرات من مقال للكاتب المصري المعروف فكري اباظه، والمقال موجود في كتابه « مقالات فكري اباظه » وقد كان من ألمع شباب وأعضاء الحزب الوطني الذي ألفه المغفور له مصطفى كامل وقد اتخذ فكري اباظه اسلوبا سهلا ساخرا جعله من نجوم الكتاب في مصر ومن أكثرهم جرأة ، وقد كتب هذا المقال الساخر في جريدة « اللواء » اليومية لسان حال الحزب الوطني آنذاك وذلك عقب عودة اللورد ألنبي من السودان ويبدو ان أقطاب الحزب الوطني ومنهم فكري قد علموا بمشروع الانجليز بعرض ملك السودان على السيد علي الميرغني مثل أقطاب مصر في تلك الفترة ، فكتب فكري اباظه في مقاله هذا بأسلوبه الساخر يقول بعنوان « مولاي صاحب الجلالة ميرغني الاول ملك السودان » !

« هل سمعت أيها القارىء العزيز نبأ تأليف المملكة العظيمة الفخمة ، المملكة الزهراء الصفراء السوداء ، مملكة التبر والعاج والغزلان مملكة السودان !

عاد اللورد أخيرا من رحلته الميمونة •• سفر سعيد وعود حميد أيها العميـد !••

انها لم تكن « نزهة » أيهـا المصريون فان النـاس لا يتنزهون في السودان ••• صيفا ! انما كانت « عملا سياسيا خطيرا » واللورد ألنبي (ابو) الاعمال والافعال •

ان جنابه لا يترك مصر عفوا والحالة الفكرية تشتعل اشتعالا لا يتركها (عفوا) والحالة السياسية لا تقر على قرار ، لا يتركها (عفوا) والوزارة المصرية عديمة الانصار ، لا يتركها الا لتأدية واجب أجل أهمية وأخطـر شأنا ، ولقد كانت دائرة هذا الواجب السودان !

قيل ان انجلترا بعد ان ارتكزت في الحجاز على ملك الحجاز وبعد ان اعتمدت في آسيا على فلسطين وملك العراق ، تريد ان تركز في أفريقيـا على السودان ، وعلى ملك السودان لتأمين الجنوب واليمين واليسار ، ولتعاكس نقطة الاتصال في الشمال ••• فهي اذن في حاجة الى (ملك) من صنع (لندن) يظل طول حياته صنيعة (لندن) •

ويقول فكري اباظه في ختام مقاله موجها الحديث للسيد علي الميرغني:

(أي مولانا الملك « ميرغني الاول ») ••• لا تحبس عنا المـاء ان كلفوك (بحبس) الماء ولا تنكر علينا الاندماج انكلفوك بانكار الاندماج قل لهم ان النيل لا يتجزأ •

وان مصر والسودان توأمان لا ينفصلان ولا يتعاديان ! بهذا الشكل « تبيض » وجوهكم في الاولى والآخرة ، ويعلم الدخيـل ان بضاعتـه خاسرة بائرة » !

حسبي هذا القدر من مقال فكري اباظه عضو الحزب الوطني بمصر وقد نشرته جريدة اللواء بتاريخ ٤ مايو ١٩٢٢ ، وذلك عقب عودة اللورد ألنبي الذي حدثت زيارته الى السودان في أبريل ١٩٢٢ •

استطيع ان نقول الآن وقد وضحت الامور بجلاء ، ان السيد علي كان بعيد النظر وهو يعتذر عن قبول ملك من صنع الانجليز ، وهو رجل طائفة دينية وليس بقائد سياسي مما يجعل ملكه مزعزعا ومن قبل الشعب هذا اذا لم ينزعه عنه الانجليز كما فعلوا مع غيره •

ومن العجب ان مصادر تاريخيـــة عديدة تشير الى ان الانجليز قد فكروا في تنصيب « أغاخان » الزعيم الروحي لطائفة الاسماعيلية بالهند ليكون ملكا على السودان ، ثم عدلوا عـــن ذلك وقد سمعت من بعض الثقات في بغداد عند زيارتي لها انهم فكروا فيه أيضا لملك العراق قبـــل ان يختاروا فيصل الاول وهو من أبناء الشريف حسين من الحجاز •

وتقول مصادر أخرى انه عرض هذا الملك على جمال الدين الافغاني وهو في أوج نشاطه العلمي الثوري لعلهم يكسبونه لجانبهم ولكن جمال الدين الافغاني رفض عرضهم في اباء وترفع ــ الحمد لله ان السودان لم يجد له الانجليز ، ملكا يضعونه عليه فما أشقـــى الشعـــوب التي منيت بالملوك •

بين التني واحمد محمد صالح والعباسي

يا للقلوب الرقيقة والمشاعر المرهفة عندما يأسرها الجمال ويتملكها الحب ويسحقها الفراق ، فتقبل على الشعر لعلها تجد فيه العزاء وما يزيدها الا وجدا على وجد !

في عام ١٩٣٧ وعلى صفحات مجلة الفجر طالع قراؤها في شغف بالغ رائعة الشاعر يوسف مصطفى التني الذي كان من ألمع شعراء ومثقفي جيل الثلاثينات ، وكان عنوان قصيدته « الانشودة الحزينة » ، وما أكثر من تعلقوا بها وغنوها وحفظوها عن ظهر قلب .

تقول القصيدة الوجدانية :

ذهب البشر اللعوب — وحلا الحزن الرهيب
فأعذروني يا صحابي — كم نأى عني حبيب

★ ★ ★

آسري الساخر من حبي — وللسخر ضروب ...
قد جفا النيل فما النيل — ولا الروض يطيب
وارتضى نجدا جديبا — فزها النجد الجديب

أترى يرجع لي يوما فيحيي ويذيب
ساحر البسمة مغر بارع الصوت لعوب
كلما استنشد غنى وهو جذلان طروب
لو يغيب البدر عنا فعن البدر أنوب
غاب يا أنسي بدري أكذا أنت تغيب ؟!



والصبا الناعم في شخصي حبيب لا يشيب
غاب عني مثلما ينسلخ البرق الخلوب
وأنا نهب كروب لا تدانيها كروب
يطمع القلب ولو يسأل رفدا لا يجيب
وهو رغم الصد لو تعلم مرموق حبيب !

وفي الابيات التالية يرسم التني ببراعة ضحكات حبيبه وهو « ينغم فيها » و « يقطعها » ويذوب وجدا في ثنايا التنغيم والتقطيع والتموج فيقول :

نغّم الضحكة منه فأبى الرشد يثوب
كلما قطع منها قطعت منا قلوب
كلما موج فيها في ثناياها أغيب !



وحبيب لم تزل لي في تجنيه خطوب
طار للنور وخلاني على النور ... أذوب
ساكن النجم آمالي لك في النجم وثوب ؟!
ساكن النجم ، اغتني أنا في الارض غريب

وفـؤادي ، ضن فؤادي فهـو في الركب قريـب
طـار للنـور وخلانـي على النـور ... أذوب !

★ ★ ★

أيهـا المُنكـر حزنـي فاتـك الـرأي المصيـب
ذاك تريـاق فـؤادي كـم نـأى عنه حبيـب !

واستاذنا احمد محمد صالح الكهل المشبوب والوجـدان المفتـون بالجمال المربى المتزمت المظهر ، الرقيـق المخبر والذي قل ان يفصح عن حقيقة وجدانية في شعره ، تثيره قصيدة التني ، وتبعث فيه كوامن الحب والاسى وتكاد تلمح الدموع تتساقط من خلال كلماته الوجدانية من فرط تأثره وأساه فيقول :

غرك الوعـد الكـذوب هو كالبـرق الخلـوب
او كمـا لاح سراب يتـراءى مـن قـريـب
كـم نفـوس حائـرات بـين خفيـق ووجيـب
فـاذا مـا رأت النـور علـى النـور تـذوب
كـم حرقناهـا بخـورا للهوى هذي القلـوب !
ووراء الامـل الساخـر كـم شقـت جيـوب

ويهفو قلب الاستاذ احمد لايام شبابه المونق ويستعيد ذكراه واجف القلب حزينا :

ذكرنـي عيـش المونـق والمـرعـى الخصيـب
وشبابـا سائـل الغـرة ريـان القضيـب
أيقظـي شيطـان شعري عـل شيطانـي مجيـب
تلـك أحـلام شبابـي آذتتنـي بالمغيـب

وهنا يصف استاذنا احمد رحمه الله حبيبه « موفور الصبا » وسحر هاروت بعينيه وانه كلما غنى مغنيهم « ذكر حبيب » عربدت عيناه فيهم « فجريح وسليب » ــ ألا رحمك الله يا استاذنا احمد لكم فعل بكم الجمال وبنا في عهد الصبا ، يقول ذاكرا حبيبه :

وحبيب غــاب عن أفقـي — فــالافــق جــديــب
لــج في الهجــران حتـى — خلتـــه ليس يـؤوب
ساحــر النغمــة والخطرة — بســـــام طــــروب
واذا مــا اهــتز تيهــا — فقضيـــب وكثيـــب
سابغ النعمة موفور الصبا — غــــر لعــــوب
سحــر هاروت بعينيــه — وللسحــــر ضــروب
كلمــا غنــى المغنـــي — منشدا ذكــرى حبيــب
عربــدت عينــاه فينــا — فجريـــح وسليــب
كــم هصرت الغصن منه — وهــو ريــان رطيــب
فثنــى نحــوي جيــدا — فضــح الظبــي الربيــب
ودنـــا حتــى اذا مــا — خلتــه جــد قــريــب
طــار للنــور وخلانــي — على النــور ••• أذوب

وكم نقم الشعراء على المشيب وهم يسترجعــون ذكريات شبابهم . وهكذا فعل احمد ، سخط على مشيبه الذي راع حبيبه فتولى عنه فقال :

راعــه هــذا المشيــب — فتــولــى لا يجيـــب
قلت يا ابن النــور مرآك — وان ضـــاء كئيـــب
أنــت في العــين قذاهــا — أنــت واللــه مريــب !
أنــت بــددت أمانــي — فمــالــت للغــروب

ويعود احمد ليذكر حبيبه مرة أخرى الذي ترك اللوعة في قلبه والدمع

في عينيه فيعديه بأبيه وقد ابتعد عنه ويحمل الريح شوقه وحنينه اليه :

بأبـي من خلـف اللوعة والجفـن السكـوب
هجر النيل فليس العيش فـي النيـل يطيـب
ومضى يحتـل نجـدا وهـو في النجد غريـب
بلغيـه اننـي مـذ غاب يا ريـح الجنـوب
شارد اللب قليل الصبـر موصـول النحيـب

ومن قرية « الشيخ الطيب » شمال الخرطوم حيث تتعالى قباب كبار المتصوفة من أقطاب الطريقة « السمانية » وحيث مدارس العلم والقرآن التي كان الامام المهدي من طلبتها عندما وفد اليها من دنقلا ليتلقى المزيد من العلم على يد الشيخ العالم محمد شريف نور الدائم والد الشاعـر الفحل محمد سعيد العباسي الذي تبلغه قصيدة احمد محمد صالح وهو على مقربة من قباب أهله ومجالس علمهم وقرآنهم فينتفض وجدا وهو المعذب القلب بذكريات الصبا المفتون بكل ما هو جميل والذي جاء شعره ترجمانا صادقا لعواطفه المشبوبة وقد كان في شبابه كما يقول المعاصرون فتى جميل الصورة ممشوق القوام يذكرنا وهو يتحدث في شعره عن تعلق الحسان به بعمر بن أبي ربيعة اذ يقول العباسي وهو في أوج شبابه عندما يزور حيا بدويا وكان كلفا بأحياء البادية . يقول :

اذا نـزلت بحـي طافـت بـي ولائـده
يفدينني فعـل موجـود بمـودود
فكـم بـرزن الـى لقايـاي في مـرح
وكـم ثنـين الـى نجـواي من جيـد
لو استطعن وهـنّ السافحـات دمـى
رشفنني رشـف معسـول العناقيـد

فلا عجب ان تهزه هو قصيدة صديقه احمد محمد صالح وتبعث من أعماقه ذكريات صباه ومراتع لهوه ويسرع الى أم درمان يحمل أنينه وحنينه ممثلا في قصيدته لاخيه احمد واضعا لها عنوان « يا علم أخذ العلم » :

تذكرت عهد الصبا الباكر
ومرتع اللهو من حاجر

وأيامنا الغر في ظله
وما للعشيرة من سامر

ومثوى لدات كزهر الربيع
طيبا وكالقمر السافر

وما بالمسارح من شادن
غرير ، ومن شادن نافر

وزينب سكرى بخمر النعيم
تعثر من مرطها السابري

ومن حق العباسي ان يبكي على زمنه الغابر حيث كاد الحسان يرشفنه رشف معسول العناقيد ، انه يقف ويقول :

وقفت وقد كاد يشجي الجماد
بكائي على الزمن الغابر
ألا هل لذا السرب من عاذل
وهل لي في العتب من عاذر ؟
حللن لدي بحكم الهوى
مكان السواد من الناظر

وجانيـت في حبهـن المشـير
وعاصيت فيه هـوى الآمـر

فلما ذوى الغصـن جاوزنـي
سراعـا الى مـورق نـاضر

ومن حق الحسان ان يتجاوزن العبـاسي وقد ذوى غصن شبابـه ويتجهن الى آخر « مورق ناضر » ••• فيا للحسرة !

ويقول العباسي :

أخذن حلـى كنت أولـى بهـا
وزنّ بها الجيـد من آخـر
غفـرت ولـو كان في بردتـي
فتى الامس ما كنت بالغافـر

وماذا يفعل العباسي غير ان يغفر لهن وقد انتزعن منه حلى شبابـه وزين بها جيدا آخر لم يعبث به الشيب ولو كان العباسي ما زال في شباب الامس لما غفر لهن وها هو يذم شيبه الذي جعل الحسان يتجاوزنه سراعا فيخاطبه :

فيا شيب ما أنت نعـم الرفيـق
ولا مرحبـا بـك من زائـر

ان العباسي يبقى على عهده مع الجمال فلا ينسى :

يـراد مـن القلـب نسيانكـم
ووالـله مـا مـر بالخاطـر

وكيف وقـد صنعت في ذكركم
جواهـر مـن كامـل وافـر

وان تقــرب الــدار اسمعتكــم
شــوارد كالمثــل السائــر

ويتجه العباسي بعد هذا فيثني على صديقه احمد محمد صالح الذي شجاه شعره وأثار في نفسه من الذكريات ما أثار :

فيا احمــد الخــير نلت المنــى
وحوشيت من جــدي العاثــر

شدوت فأحرقت منــا القلــوب
بما صغت من لفظــك الساحر

ومــا ذاك بدعــا وقد هزهــا
قديمــا عــراك الهوى الآسر

فأفديــك احمــد مــن ناثــر
ضليع وافديــك من شاعــر

ويمضي في بقية قصيدته مبديا اعجابه بشعر احمد مفتونا به وفي اعماق نفسه حسرة تتقد جمراتها كلما ذكر الجمال والشباب •

رحمهم الله تعالى فقد عطروا حياتنا القاسية بنفحات شعرهم الوجداني الرائع • وكان ذلك في عام ١٩٣٧ •

شخصية غامضة تمر بالسودان في الثلاثينات

حتى الآن ما زال الغموض يكتنف تلك الشخصية العجيبة التي هبطت العاصمة فجأة في عام ١٩٣٠ والتف حولها عدد من الشباب المثقف يتتلمذ عليها ويستريب فيها !

كنت في السنة النهائية بقسم العرفاء الملحق بكلية غردون في ذلك العام عندما سمعت من أصدقاء وزملاء يسكنون حي ابو روف بأم درمان ، وقد قضوا عطلة الاسبوع كعادتهم عند ذويهم ، ثم عادوا يحملون الينا نبأ غريبا عن شخص أوروبي مسلم يتحدث الانجليزية بطلاقة يلبس جلبابا سودانيا أبيض اللون يرتدي عليه « جاكتة » ويلف على رأسه العمامة وعلى رجليه « شبط » عادي ، يتكلم بجانب الانجليزية ، اللغة العربية الفصحى ، وقد استأجر منزلا صغيرا في حي « ابوروف » كان يملكه شخص يسمى صادق الجزولي .

وبهرهم منه ثقافته الواسعة وعلمه الغزير ، ولعله كان متخصصا في علم الاجتماع والاجناس .

كان أول من لفت اليه الانظار السيدان عبد الرزاق العتباني والمرحوم عمر الريح من أبناء أبي روف .

وأخذ الطلبة من سكان حي ابو روف يروون ــ كلما ذهبوا في عطلة

الجمعة الى ذويهم ـ الكثير عن عمق ثقافته وعن تحلق عدد من الشباب المثقف حوله يدرسون عليه ، علم الاجتماع ، وقد كانوا متعطشين للعلم فما كانت كلية غردون القديمة تروي غليلهم منه فهي تكتفي بالنذر اليسير اذ كانت مهمتها الاساسية تخريج موظفين يحسنون اداء واجباتهم المكتبية، لا اكثر .

وذات مساء جاء به نفر من الطلبة الى داخلية الكلية حيث أدى صلاة العصر والمغرب معهم ، وكان يجيب على أسئلتهم في مختلف ألوان المعرفة بتبسيط وتوسع يدلان على عمق ثقافته حقا .

وكان يسمي نفسه « صالح مؤمن » وبهذا الاسم عرفناه ، وكان يحمل شهادة تؤكد اسلامه ، استخرجت له من مراكش التي كانت تقع آنذاك تحت الاستعمار الفرنسي ، وقد كتبت بالعربية والفرنسية معا ...

لم يستطع أحد ان يدرك لماذا اسلم في مراكش التي يحكمها الفرنسيون وماذا كان يعمل هناك ؟ فقد حدث المتصلون به انه كان يتحاشى التحدث عن كل ما يتصل بشخصه مكتفيا بحقيقة واحدة ، هي ان اسمه صالح مؤمن اعتنق الاسلام في مراكش ، وكان يحرص على تقديم الشهادة التي تثبت اسلامه تأكيدا لزعمه ، وكان يؤدي الصلوات في حينها ، وكان يلقي أحاديثه العلمية باللغة الانجليزية .. أهو انجليزي ؟.. ذلك ما كان يتعمد عن الخوض فيه كلما سئل عن نفسه .

وكان يحرص حرصا واضحا على الاندماج في مجتمع السودانيين بكل طبقاته ، اندماج من يريد التعرف الى كل شيء ، فهو يتحدث في السوق اذا ذهب اليه الى كل من يلقاه ، بل يتعمد ان يفرض نفسه هنا وهناك متحدثا ومتسائلا وباحثا .

وفي تلك الفترة كان الانجليز في أوج سطوتهم ونفوذهم ، وكانوا يحصون على الناس — وخاصة المتعلمين — كل همسة .

ومن هنا كثر الهمس والتساؤل ، هل صالح مؤمن هذا جاسوس انجليزي جيء به ليستفاد من دراسته لافكار المثقفين واتجاهاتهم وهو يندمج معهم بوصفه مستشرقا مسلما قادما من مراكش ؟

وقوّى من هذا الاتهام الغموض الذي كان يحيط بشخصيته ، ثم انه كان يهاجم الاستعمار الانجليزي في اكثر جلساته مع جلسائه من الشباب المثقف ، وكان يحمل على هذا الاستعمار في عنف صارخ ؟ أكان يجرهم بهذا الهجوم الجريء لكي يكشف عن دخائل أفكارهم ؟.

ثم ان انجليز السودان الحاكمين ، الذين كانوا يضيقون ذرعا بما هو دون ذلك بكثير ، كيف يتركون الحبل على الغارب لهذا الاجنبي الواضح الذي علموا بأمره منذ اللحظات الاولى لقدومه واتخاذه هذا الحي الشعبي مسكنا والذي اشتهر بأنه يضم نخبة ممتازة من المثقفين الذين عرفوا بصدق الوطنية وكراهة المستعمر ؟ كيف ارتضوا وجوده وتغاضوا عنه ؟

قال تلاميذه ، ان مفتش مركز أم درمان كان يقحم على جلسائه معهم شيخ الحارة « عبد الحكيم » ليعرف ماذا يقول للملتفين حوله ، وكان صالح مؤمن يقول لتلاميذه ساخرا — وهو يتحدث اليهم بالانجليزية — : « ترجموا حديثي هذا لعبد الحكيم ليفهمه وينقله للمفتش ! » كأنما هو يتحدى السلطة !

وهذا جعل الاتهام عند بعضهم ينتقل الى وزارة المستعمرات في انجلترا فلعلها بعثت به متنكرا ليتعرف الى احوال المستعمرات والى أي مدى أفلح حاكموها الانجليز في التجاوب مع المحكومين وتفهم رغباتهم حرصا

على استدامة سيادة الامبراطورية ... هكذا كانت بعض الشكوك حوله اذ حاروا في أمره .

وكان يدرس عليه بانتظام من شباب ابوروف السادة ، ابراهيم يوسف سليمان ، وخضر حمد ، ومكاوي سليمان أكرت ، وحسن احمد عثمان ، والشيخ الطيب السراج الذي كان يقول عنه صالح مؤمن « السراج نكسة ترجع بنا سبعة قرون الى الوراء » !!.

والذين يعرفون المرحوم السراج بزيه العربي الذي يرجع للعهد العباسي ، وحياته الممعنة في تقليد الحياة العربية القديمة ، يتذوقون قطعا طعم « النكتة » في تعريف صالح مؤمن للسراج ، بأنه نكسة قرون للوراء !.

وكان يتردد على مجلسه أحيانا « الدكتور » مكي شبيكة ومحمد عشري الصديق و « الدكتور » محمد زكي مصطفى وآخرون من شباب ذلك العهد ــ ولكن من ذكرت أولا كانوا حوارييه الذين لا ينقطعون عنه كل يوم يدرسون عليه علم الاجتماع ، وعلم الاجناس ، ولكن القلق حول حقيقة شخصيته كان يستبد بهم .

وكان صالح مؤمن يجيد لغة الاسبرانتو التي أراد لها واضعها ان تكون اللغة العالمية ليتخاطب بها الناس على اختلاف لغاتهم ، وقد حاول صالح مؤمن أن يعلمها لتلاميذه هؤلاء ، وشرعوا فعلا في طلب الكتب الخاصة بدراستها حسب توجيهاته ، ووصلت الكتب الى بعضهم ، الا ان رحيله المفاجيء كما سيجيء حال دون ان يبدأوا في تعلمها منه .

ومما ضاعف من ريبتهم في استاذهم صالح مؤمن هذا ، انهم رأوه يحرص على تدوين مذكراته في كراسات خاصة ، وكان يكتبها بلغة

الاسبرانتو حرصا منه الا يفهمها احد اذا وقعت في يده ، فقد كان العارفون لهذه اللغة قلة نادرة ، بل وفي درجة العدم في هذه المناطق التي يمر بها ويكتب عنها كالسودان .

وذات يوم وصل البريد المصري يحمل من الصحف مجلة روزاليوسف وبين صفحاتها خبر يقول : « ان لورنس الجاسوس الانجليزي المعروف غادر مراكش في طريقه الى الصومال والحبشة » .

ولورنس يعرف القراء الدور الخطير الذي لعبه في الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ ــ ١٩١٩ عندما كان مستشارا للشريف حسين حاكم الحجاز وكيف دفع العرب في تلك الفترة ليقفوا مع انجلترا وحلفائها في حربها ضد المانيا وحلفائها ومنهم الاتراك الذين كانوا يبسطون نفوذهم على البلاد العربية ، وقد وعدتهم انجلترا كتابة بأن تؤول البلاد العربية الى أهلها بعد ان يتم اجلاء الاتراك عنها ، ثم غدرت بهذا الوعد على النحو الذي يعرفه القراء ، اذ استولت عليها هي وفرنسا .

وكان هذا الخبر الذي نشرته آخر ساعة بمثابة الضوء الكاشف على شخصية صالح مؤمن الغامضة ، وسرعان ما ذاع بيننا ان صالح مؤمن هو الجاسوس البريطاني لورنس جاء من شمال افريقيا متخفيا في طريقه الى الحبشة والصومال .

وزاد من قوة هذا الاتهام ان صالح مؤمن ــ كما ذكرت ــ جاء من مراكش في شمال افريقيا وبيده شهادة اسلام استخرجت له من هناك امعانا في التضليل كما خيل الينا .

ثم انه كان يجيد معرفة القبائل العربية ودقائق الحياة الصحراوية

والبدوية مما لا يتسنى الا لرجل عاش طويلا في هذه البيئة وعنىبدراستها عناية فائقة .

ثم انه عالم في الآثار ، مقتدر في حل الرموز الهيروغلوفية، وكان دائم الاتصال بالمستر اديسون مدير متحف الآثار بكلية غردون بالخرطوم وقالوا انه كان يعاونه على فك طلاسم كثير من الرموز التاريخية الموجودة في تلك الآثار وخصوصا ما كان منها بلغة قدماء المصريين ، وقد قيل ان لورنس من محبي علم الآثار ومن المهتمين به والعارفين بدقائقه .

ومن هنا قويت الشبهات في اتهام صالح مؤمن بأنه لورنس ...

كان يسكن كما قلت في دار بحي ابوروف ، لم تكن لديه أثاثات تذكر في الدار ، كانت حياته بسيطة للغاية وأهم ما كان يحمله « شنطة » صغيرة من الحديد كان يودعها مذكراته التي يكتبها يوميا بالاسبرانتو وأوراق أخرى لا يدري أحد سرها ..

وكان يزور تلاميذه أحيانا في منازلهم ويأكل معهم الطعام السوداني « الكسرة والملاح » دون تأفف ، وكان لا يأنف من تناول أي طعام يقدم اليه .

وكان يعقد حلقات دراسية غالبا في الدار التي يسكنها مساء كل يوم، ما لم يدع الى دار احدهم ليتحدث هناك .

وذات يوم ، وبعد ان جاءت مجلة روز اليوسف للسودان تحمل ذلك الخبر الذي ضاعف من ريبة المتصلين به ، اتفق تلاميذه على تدبير مؤامرة لسرقة « الشنطة الحديدية » وافراغ محتوياتها ودراستها عسى ان يجدوا الدليل المادي الذي يكشف عن حقيقته .

ودبرت المؤامرة على ان يأخذه ابراهيم يوسف سليمان وبعض اخوانه من داره الى شاطىء النيل ليجلسوا على الشاطىء فترة في الهواء الطلق .

وفي هذه الفترة ، يحضر الزميلان مكاوي سليمان اكرت وخضر حمد، ويتسلقان سور الدار من الجانب الخلفي ويدخلان غرفتــه ويستحوذان على الصندوق الحديدي السحري !

ونفذ الجانب الاول من المؤامرة بسهولــة ، وخرج صالح مؤمن مع تلاميذه الى الشاطىء وخلت الدار للسارقين !

وما كاد مكاوي سليمان يعتلي السور ، ويطل منه على السكن ، حتى رأى الجيران وقد جلسوا في ظل السور المجاور ينظرون اليه ؟! وأسقط في يده وهبط مسرعا ليحذّر زميله بأن الجيران يجلسون في فناء دارهم ولا سبيل الى الهبوط ! وعادوا بخفي حنين وفشلت محاولة سرقة الصندوق الحديدي لمعرفة ما بداخله .

ويقول مكاوي سليمان ، ان الرجل أسر اليه بأن اسمه « جستاف مارا » وانه بلجيكي الاصل وتخرج في جامعة لوفان البلجيكية وهي من الجامعات العريقة المشهورة وانه التحق بجامعة لندن ليحصل على شهادة علم الاجناس .

ولكن السيد مكاوي قد ظل يشك في هذه المعلومات وقد زار بلجيكا مرتين وكان في كل مرة ينوي ان يزور هذه الجامعة وان يراجع سجلاتها التي تحتفظ فيها عادة باسماء جميع خريجيها ليعرف ان كان هناك حقيقة خريج بهذا الاسم ؟

قد مضت فترة طويلة على زيارة ذلك الرجــل الغامض ومن بقي من شباب الثلاثينات حائر في أمره أهو جستاف ؟ أم لورنس ؟؟ أم شخصية أخرى ، كان لها هدف آخر ؟.

وفجأة ــ مثلما ظهر ــ سافر صالح مؤمن من أم درمــان الى كسلا ومنها الى عدن .. ثم الى أين ؟ لا أحد يدري ممن اتصل بهم فيالسودان.

ومن كسلا كتب رسالة الى مكاوي سليمان اكرت يقول فيها انه تلقى أمرا من مفتش أم درمان الانجليزي ليغادر السودان فورا، فسافر بالقطار الى كسلا ومنها يتجه الى عدن، وذكر في رسالته قصة طريفة وهي انه ركب الدرجة الرابعة في القطار ، لضيق ذات يده كما يزعــم ولكي يجد ــ في الحقيقة ــ فرصة أوسع للتحدث مع السودانيين العاديين من أفراد الشعب الذين يستعملون هذه الدرجة عادة استكمالا لدراساته ، ويقول انه قد حقق معه في كسلا اذ كانت قوانين حكومــة السودان آنذاك لا تبيــح للاجانب ان يستعملوا الدرجة الرابعة في اسفارهم حتى لا يختلطوا بأبناء الشعب العاديين !!.. كما زعم .

وانقطعت أخباره ولم يكتب لتلاميذه، او على الاخصلتلميذه مكاوي سليمان بعد ان خاطبه مرة أخرى من عدن .

وظللنا لفترة طويلة نتساءل من يكــون هذا الرجل الاوروبي أخضر العينين الذي يعيش في أي مستوى عادي وهو على درجة عالية من العلم والثقافة والذي احتمل الانجليز في تلك الفترة الحرجــة وجوده في حي شعبي بأم درمان يتحدث لسائر الناس ويجمع المثقفين حوله ويحاضرهم ويزور داخليات الكلية ويصلي مع الطلبة ويحاضرهم دون اذن سلطات الكلية ، وما كان أقساها آنذاك وهي تصرفــات في جملتها وتفصيلهــا ترفضها السياسة الانجليزية في تلك الفترة بل لا تسمح بحدوث أدنى منها بكثير ، فكيف أفسحت له بكل هذا المجال ؟! ثم يسافر فجــأة دون ان يحدث أحدا او يودع تلميذا زاعما بأن السلطات أمرته بالسفر الفوري ؟!

من يكون صالح مؤمن هذا ؟ ما زال السؤال بلا جواب .

بين الشيخ قريب الله والفنان كرومه

ربع القامة أسمر اللون مع ميل للسواد ، مهيب الطلعـة يتلثم برداء كبير ذي ألوان هادئة ، من فوق عمامته وينسدل حول عنقه وكتفيه حتى منتصف ظهره ، واسع العينين ، على خديه (شلوخ) رفيعة ، كثير الصمت طويل التأمل ، لا يفيض في الحديث الا عندما يتكلم مع مريديه وتلامذته في شئون الدين ، لا يفتأ لسانه وقلبه يردد القرآن .

ذلكم هو الشيخ الورع قريب الله ابو صالح حفيـد الشيخ الطيب قطب الطريقة السمانية الذي كان له أثر عميق في نفوس الشباب خاصة عندما شهدناه في أواخر العشرينات ، وأوائل الثلاثينات ، وهذا بالتحديد بدء مشاهدتي له عن قرب مع زملاء لي من طلبة كليـة غردون في تلك الفترة ، وليست هي بدء الفترة التي تألق فيها نجمه كصوفي وعالم ورع يلتف حوله خلق كثير يتتلمذون عليه ويعبون من منهله في مسجده العامر، الذي أقامه في حي ودنوباوي بأم درمان وداره الملاصقة له ، حيث لا تنقطع أصوات الذاكرين والتالين للقـرآن والمنشدين لمدائح الصوفية طـوال ساعات الليل والنهار الا قليلا .

كان همنا ــ في تلك الفترة ــ ونحن نعيش في داخلية الكلية ــ عندما يسمح لنا بمغادرتها ظهر الخميس عقب الغداء لنعود اليها مساء الجمعة ،

ان يسارع أكثرنا الى أم درمان حيث نلتقـي بصاحب لنا فيها ، يلقننـا بالترحاب والشوق ، وكانت حفلات بيوت الاعراس مقصدنا الاول نروح فيها عن أنفسنا ، فهي اللهو الوحيد الذي تقدمه لنا المدينة ، وكنا نجـد عند رفاقنا أخبار بيوت الاعراس حيث يغني مطربو ذلك العهد ، ويرقص الفتيات ، وكان (بيت العرس) حيث تقام (اللعبة) أو (الحفلة) مسرحا يباح فيه الدخول لمن يشاء .

فنقضي أكثر الليل حيث يطيب لنا ، وكان أحب المطربين الينا «كرومة» ولهذا حديث يجيء فيما بعد ... وفي صبيحة يوم جمعة ، اقترح علينـا بعض هؤلاء الرفاق ، ان نذهب لاداء صلاة الجمعة مع الشيخ قريب الله في مسجده بودنوباوي ... وعجبنا لهذا الاقتراح ، كان بعضنا لا يؤدي الصلاة أصلا ، وللشباب تبرمات ونزوات وتمرد !

وألحوا علينا واستجبنا وحدثونا طويلا عن هذا الشيخ الجليل ، وعن الذكر الذي يؤدي بعد الصلاة ، وعن الشعر الصوفي العذب الذي ينشده بعض المريدين بأصوات ترق لها القلـوب ، وعن فلان وفلان ... الخ من بعض مثقفي ذلك العهد الشباب وقد تتلمذوا على هذا الشيخ وانخرطوا في سلك مريديه ...

وذهبنا معهم ، وكان اول ما وقع في نفوسنـا موقعا جميلا ــ امام المسجد ــ الشيخ محمد علي بكار رحمه الله ، وهو صاحب معهد بكار الديني العلمي الذي أنشأه على نفقته وما يزال قائما يؤدي رسالته على خير وجه ــ هذا الامام العالم ــ أسمعنا خطبة الجمعة غير ما ألفنا من أكثر أئمة المساجد في ذلك العهد كانت معانيها جديدة تعالج الادواء الاجتماعية المنتشرة ، وكان اداؤه ممتازا ومؤثرا ، في صوته نبرات حادة ، ترهف لها الاسماع وتشدها لسماع ما يقول ... وما أحسن ما كان يقول ...

وبعد الصلاة انتظم الكثيرون في حلقة كبيرة داخل المسجد ، يقف في وسط الجانب الغربي منها الشيخ قريب الله ملثما بردائه كما وصفت وقورا مهيبا ــ وأسرعنا نقف خلفه نتأمله ونستمع للمنشدين والذاكرين ــ كان هناك عدد من الشبان يتولون الانشاد ، عرفتهم جميعا فيما بعد ، في أولهم شاب تقي اسمه (قنديل) جميل الصوت حلو الايقاع ، وكان هو أيضا مؤذن المسجد لحلاوة صوته ... وكان جديدا على مسامعنا كل الجدة ، الطريقة التي كانت تؤدى بها كلمة « لا اله الا الله » .

تؤدى باللسان أولا في تنغيم ينسجم مع اداء المنشدين ، ثم ينتقل اداؤها الى الحلوق ، فتسمع لها فحيحا منغما لا تخطىء فيه فهم ترداد كلمة (لا اله الا الله) ... ثم ينتقل الاداء الى الصدر فيخرج فيما يشبه أنات الواله المتواجد في حب الله ... كل هذا والشيخ يهتز مع أنغام الذكر اهتزازا خفيفا ويدير حلقة الذكر ــ على ما أذكر ــ باشارة من يده ... وفتنا بهذا الذي شهدنا ...

لم يعد يوم الخميس ، عندما نغادر الداخلية مطلبنا فيه كرومة ورفاقه ــ وان لم تتخل عن سماعهم ــ وانما كنا نتلهف لظهر الجمعة لنخف الى مسجد الشيخ قريب الله .

لنستمع الى خطبة المرحوم ودبكار الجديدة المعاني ولتفيض النشوة الروحية في نفوسنا ونحن وقوف خلف الشيخ نستمع الى الذكر ، ويستهوينا صوت قنديل وصاحبه بتلك الاناشيد الصوفية التي تسمو بالنفوس الى أعلا الآفاق !.

وما زالت أصواتهم عالقة بقلبي وفكري وهم يرددون قصيدة ابن الفارض ــ ان لم أخطىء في نسبتها له :

ارج النسيم سرى من الزوراء
سحرا ، فأحيا ميت الاحيـاء

★ ★ ★

وهمهمة ودمدمة الذاكرين :

« لا اله الا الله » تمازج النغم الحلو فتبلغ النشوة الروحية ذروتها.. وتسمع منهم أحيانا لحنا خفيفا ، كأنمـا هو يركض ركضا في أبيـات مستهلها :

هـذه جنتنـا يـا سامعينـا

★ ★ ★

ويرددون المقطع الاول في خفة (هذه جنتنا ...) ويشتد انفعـال الذاكرين ...

ويا فرحتنا عندما يصمت الذاكرون والمنشدون ويأخذ الشيخ قريب الله في الانشاد كان له صوت عميق مؤثر حلو النبرات كان أحيانا ينشد من أشعار بعض الصوفية الآخرين ، وكم كان يأسرنا ويبهرنا انشاده لهذه المقطوعة لصوفي قديم لا أذكر من يكون :

ولما وردنا ماء مدير نستقي على ظمأ منا الى منهـل النجـوى
نزلنا على قوم كرام بيوتهـم مقدسة ، لا هند فيها ولا علـوى
فلا حق لنا نار على البعد أضرمت وجدنا عليها من نحب ومن نهوى
سقانا فحيا وأحيا نفوسنا وأسكرنـا من خمـر اجلاله غـوا
مدام عليها العهد الا يسيغها سوى مخلص في الحب خال من الدعوى
مزجنا بها التقوى قلوبنا فيا من رأى خمرا يمازجهـا التقـوى

شربنا فبحنا ، واستبيحت دماؤنا أيقتل بواح بسر الذي يهوى
وما السر في الاحرار الا وديعة ولكن اذا رق المدام فمن يقوى



أكون كاذبا اذا قلت انني أستطيع أن أنقل بدقة ذلك الفيض الروحي الذي كان يغمر كل من كان يستمع لذلك الصوفي الورع ينشد بصوته العميق المؤثر هذه الابيات ، او امثالها من الشعر الصوفي .

ولا أجيء بجديد اذا ذكرت هنا ان الشيخ كان شاعرا مبدعا وكان كثيرا ما ينشد خلال فترات الذكر بعض مقطوعاته الصوفية ، يذكر الاخوان معي بعضها ، كقوله :

موائد احسان يضوع لها نشر وحضرة ايقاف جلاليبها الستر
وبعض وجوه أشرقت من بهائها تلوح لنا منها البشاشة والبشر
وانس نديم لا يمل حديثه وشرب مدام طاهر كأسها بكر
يمر بها في آخر الليل شادن من الملأ الاعلى يفوح له عطر
على صاحب التهليل عند نزول من تعالى مكانا ان يحيط به فكر
هنيئا له بالله طابت حياته لياليه غر ثم أيامه زهر
هنيئا له قد فاز فوزا مؤبدا وفي ملكوت الله كان له ذكر

ومن يرد الاستزادة من شعر الشيخ فليبحث عن ديوانه المطبوع « رشفات المدام » وان الديوان — كما علمت — لا يحمل كل شعره لقارئه ، واني لاسف اذ لا أملك منه نسخة ...

وتلقفنا حياة العمل بعد انقضاء عهد التلمذة ، فطوحت بنا هنا وهناك ولم نجد فرصة لنؤدي صلاة الجمعة مع الشيخ ، ونستمع الى ودبكار

وقنديل ورفاق قنديل ، رحمهم الله ، حتى فجعنا بنبأ وفاة الشيخ قريب الله في شهر رمضان من عام ١٩٣٦م على ما أذكر ـ ومعذرة لهذا الخلط بين الشهر العربي والسنة الميلادية ! ـ اذ ارتبطت بها كل مقدرات حياتنا وبقيت في أعماق نفوسنا هذه الذكريات الحلوة ننشرها لمن عاشوها ولمن جاءوا من بعدنا ولم يعيشوها !

ثم ... ماذا كـان بـين الشيخ قريب الله الصوفي الورع ، والفنان البوهيمي كرومه !؟.

(٢) كرومة كما يعرفه أبناء جيله

ربع القامة ، أقرب للقصر ، أسمر اللون ، ممتلىء الجسم في غير ترهل ، وسيم الطلعة على خديه « شلوخ » عريضة في أعلاها وكانت من سمات الجمال آنذاك للجنسين معا ، أنيق في ملبسه الى حد المغالاة ، يحب لبس (القفاطين) ويشتريها من الانواع الغالية ، وقد يغير ثيابه مرتين في اليوم الواحد ، خاصة اذا علق بها أدنى قدر من « الوساخة » فسرعان ما يعود الى داره ليستبدل ثيابه بغيرها ، يحمل في يده دائما عصا جميلة من « الكريز » تكملة للاناقة ... وله فيها مآرب أخرى سيأتي ذكرها هنا .. وكان ينتعل في رجليه « جزمة » يحسن اختيارها من المحلات الافرنجية في السوق الافرنجي بالخرطوم ، وأشهرها محل « ديفز براين » الذي يستورد السلع الانجليزية الذي يرتاده الانجليز وكبار الاجانب وقلة من « الافندية » الارستقراط ويختار « جوربا » ملائما للون « الجزمة » مع ان الاحذية الرائجة بين الكثيرين من السودانيين هي «المراكيب الفاشرية» نسبة لمدينة الفاشر التي انتشر فيها هذا النوع الجيد من « المراكيب » وقد اشتهر بصناعته الوافدون من نيجيريا ، وما يزال هذا النوع محتفظا ببعض الراغبين فيه بعد ان كان يحتل المكان الاول عند تجار الاحذية !

هذا هو المطرب المبدع ، الذي فتن عشاق الطرب بصوته الرائع وجعل

الفتيات يتهافتن على حلبات الرقص التي يغني فيها ليرقصن على ألحانه الشجية ... عبد الكريم عبد الله مختار الذي عرف باسم « كرومة » .

وقد كنت أعرف ان اسم « كرومة » هو اسم « التدليل » الذي كانت تناديه به أمه ، تصغيرا لاسم عبد الكريم ، وهو تصغير « تعظيم » كما يقول النحاة ، وهو التعليل الذي يعرفه الناس . ولكني التقيت بالشاعر عمر البنا ، وكان من اصدقائه الحميمين لتوافق اهتماماتهما بفن الغناء ، وقال لي عمر ، ان والدة عبد الكريم أطلقت عليه اسم « كرومر » وذلك عندما زار السودان في عام ١٩٢٢ اللورد كرومر واستقبل استقبالات رسمية فخمة ، فبهرها ذلك وأطلقت على ابنها اسم « كرومر » لعله يكون رجلا عظيما مثله !.. واختفت « راء » كرومر من الالسنة ليبقى «كرومة»! وأكد لي انه عندما كان يزور دار كرومة ولا يجده كان يسأل أمه « أين اللورد ؟ » ويعني بذلك تأكيد اسم اللورد كرومر !.. أذكر هذا والعهدة على الراوي المعاصر ...

وقد ولد كما هو معروف في أم درمان وتلقى تعليمه في مدرسةالهجرة الاولية ولم يزد على ذلك ، وقد عرف في عهد تلمذته بحلاوة الصوت بين زملائه ومدرسيه ، ومن هنا كانت بداية انطلاقه في عالم الطرب حتى صار من أعلامه الذين فتن بهم الناس ، وقد أخذ يتألق بين مطربي تلك الفترة منذ منتصف العشرينات .

أذكر وأنا تلميذ في مدرسة سنجه الاولية ان سكن بجوارنا رجل أنيق وسيم ، ممتلىء الجسم ، أقرب الى القصر ، جاء من أم درمان ليعمل « ساعاتيا » وكان عازبا ، وكنا معجبين بأناقته وظرفه ، وعرفنا اسمه « عبد الله مختار » ثم ترامى الى اسماعنا انه والد الفنان « كرومة » ...

ولما جئت الى الخرطوم للالتحاق بقسم العرفاء الملحق بكلية غردون

القديمة والذي يتخرج فيه مدرسو المدارس الأولية ، وأخذني بعض من عرفت من زملائي الطلبة سكان أم ذرمان ، وشهـدت لاول مرة كرومة يغني ، خيل الي انني أرى أمامي « عبد الله مختار » بكل سماته ووسامته وأناقته ، الا ان كرومة كان يختلف عنه بظاهرة « الشلوخ » العريضـة على خديه ! ولا شيء سوى هذا !

يتفق كل أصدقاء كرومة وعارفوه انه كان دمث الخلق حلو المعشر ، محبوبا بينهم ، وكان شجاعا يرهبه أولئك الذين كانوا يتعمدون افساد حفلات الرقص ، في بيوت الاعراس ، عندما تحجر عليهم العربدة والنزول الى حلبة الرقص « لاخذ الشبال » كما جرت العادة من الراقصات ، اذ كان كرومة يضع عصا « الكريز » على ساعده وهو يغني فاذا ما أحدث بعض هؤلاء الصعاليك عربدة وحاولوا ضرب الموجودين كعادتهم ، أعمل فيهم عصاه غير هياب ولا وجل !.. لهذا كانوا يتهيبون التعرض للحفلات التي يغني فيها كرومة ، بجانب حرصهم على الاستمتاع بالاستماع لاغانيه.

وكان مع شدة بأسه وشجاعته ، مهذبا حييا خجولا. قال بعض زملائه المطربين ، ومن كانوا يغنون معه « شيالين » أو « كورس » بلغة اليوم ، بلغ من حيائه وأدبه انه كان لا يدخـن السجائر والفتيـات جلوس على « السباتة » في حلبات الرقص ، فكان في فترة الاستراحة القصيرة ، يخرج من مكانه ويختار ركنا بعيـدا عن الفتيـات والنساء ، وربما خرج الى الشارع ان لم يكن في الدار مكان ملائم لستـره ، ثم يدخن سيجارته ، ويعود بعدها الى مكانه ليستأنف الغناء !

ولقد سألني بعض الشبان ، اذ وصفت كرومة بأنه فنان « بوهيمي » وقد توهموا انني أردت بذلك انه لا اخلاق له ، ولعلي فيما ذكرت هنا ما ينفي ذلك ، وانما أردت بالتحديد انه كان مفتونا بالجمال مولعا به وقد

عاش حياته هائما به ، ولهذا لم يتزوج قط ، ولكنه مع هيامه بالجمال كان مهذبا جدا في سلوكه الانساني مع سائر النـــاس ، حريصا على مراعـــاة الآداب العامـــة الى الحـــد الذي كان يأنف من أن يشرب سيجارة امام الفتيات والنساء لانه يعد هذا التصرف الذي يبدو الآن غريبا وغير مهضوم خروجا على آداب السلوك المعهودة في ذلك الوقت !..

كان لكرومة تموجات في صوته تسكر طربا ، « وبحة » لعلهـــا سر روعة ذلك المزمار الساحر ، وتوقيعات خاصة على « الرق » الذي اشتهر بها ذات روعة خاصة ، ضاعفت من سحر صوتـــه وادائه على مستمعيه ، وكان شباب أم درمان ــ المفتون بغناء كرومة ــ يرهف سمعه في الليـــل الهادىء ــ ولم تكن المدينة صاخبة آنذاك ــ عساه يستمع الى توقيعات « رق كرومة » ويتجه نحوها ليستمع اليه !..

وكانت فتيات أم درمان يسرعن الى بيوت الاعراس التي يغني فيها كرومة متى دعين اليها دون ابطـــاء ، وهن في أبهى زيناتهـــن ! وكن لا يصطنعن التردد عندما يدعو العريس احداهن الى حلبة الرقص بل تسرع الى الحلبة سعيدة بالرقص على أنغام كرومة ! بل كن اذا ما أوشك الليل ان يمضي لينصرف كرومة ــ وكان عددهن كبيرا ــ ان تندفع الى الرقص اكثر من واحدة ، وتلك ظاهرة كانت تنفرد بها حفلات كرومة الراقصة .

وكان من التقاليد الاجتماعية ان تجلس الفتيات في هذه الحفلات على « سباتة » أو أكثر تفرش على الارض مباشرة ، ويولين ظهورهن للشبان، الا انهن كن يخالسن النظر ناحية الشبان ، ويتغامزن خفية ان كان هناك ما يستحق التعليق ... على بعض الشبان !..

ومما أذكره أغنية لطيفة عبّر فيها الشاعر عن مخالسة النظـــر هذه ،

ولعله كان متيما باحداهن ، وكانت تنظر اليه خلسة في مثل هذه الحفلات فقال :

تسرق عيونها بشيشي !
والنار تقوم في قشيشي !

أي انها تسارقه النظر « بشيشي » ! فتندلع النار فيه !•• وهي احدى صور الحرمان في ذلك العهد الممعن في الانفصالية بين الجنسين !•• وما يزال هناك من يحن الى ذلك العهد ، بينما يسخر منه كثير من أبناء الجيل الجديد ! كما سيسخر منهم أبناؤهم غدا وهم يتحدثون عن حياتهم الاجتماعية !

قلت ان كرومة كان أنيقا الى حد المغالاة وكان يعنى باختيار أنواع لطيفة من العطر تفوح من ثيابه ، ولهذا فان مصنع «الشبراويشي» للعطور في مصر ولعله أول مصنع للعطور في البلاد العربية ، أنتج عطرا معينا ، وضع على زجاجته صورة كرومة وسمي العطر باسمه ، فعل ذلك بعد ان تأكد من شعبية الفنان الانيق ، وأذكر ان هذا المصنع أنتج أيضا نوعين من العطور وضع على زجاجة احداهما صورة المغفور له السيد علي الميرغني وعلى الآخر صورة المغفور له السيد عبد الرحمن المهدي ، وجاء عطر كرومة ثالثا لهما ••• وذلك بعد استئذانهم جميعا •

وكان كرومة ذا موهبة معروفة في تلحين الاغاني في سهولة ويسر ، واليه تنسب ألحان أكثر الاغاني التي عرفت فيما بعد باسم « أغاني الحقيبة » رحمه الله وغفر له •

(٢) لقاء كرومة بالشيخ قريب الله ..

الليل خافت الاضواء والحركة ، يسري نسيمه رخاء ، والقمر يرسل أشعته الفضية على دور أم درمــان الداكنــة ـ وجلها من الجالوص ـ فيضفي عليها شيئا من الرواء ، وخلف هذه الجـدران وجـوه تهفو لها القلوب وتظمأ الارواح ! ففي كل حي وجـوه ألهمت شعراء الاغنيـة ، وأطلقت أوتار المطربين وسارت على ألسنة الناس ، في أم درمان وفي سائر مدن السودان ، التي كانت « البقعة » منارة هادية لها في كل جديد يصدر عنها . هناك في حي « القلعة » حيث الوجه الفاتن الذي ألهم «ابو صلاح»:

العيــون النوركــن بجهــرا
غير جمالكــن مبين السهــرا
يا بدور « القلعة » وجوهرا

وفي « ودنوباوي » تلك التي كانت تلهب مشاعر الشباب كلما تثنت في حلبة الرقص ، ويغنون لها :

في النسايــم شاكــي
لي « نوباوي » تــروح
بي لطــف تغشاكــي
يــا شريكــة الــروح !

و ••• ثم ماذا ؟•• الفرع المال في « بيت المال » !••

وفي العباسية الحسناء « اسيا » التي تمنى عمر البنا ان يحمل اليه النسيم عبيرها مساء كل يوم ، عسى أن يخفف عنه ما يلاقي من « ألم البين » فيقول :

يا نسيم الروض زورني في الماسية
وجيب لي الطيب من جناين « آسيا »
وانعش روحي من ألم البين !

ولا يمانع « عتيق » ان تضيع حياته فداء لساكن « الموردة » :

ما عندي مانع حتى ولو
ضيعني ساكن الموردة

ويشدو عبيد عبد الرحمن وسيد عبد العزيز لحسان « المسالمة » •• « لي في المسالمة غزال » •• « وآه من جور زماني » •• « وحاول يخفي نفسه » •• « وهل يخفى القمر في سماه » !•• كلا يا سيد ! لن يخفى قمر المسالمة !••

شباب أم درمان يجوب هذه الاحياء كل ليلة عساه يظفر ببيت عرس فيشهد في حلبة الرقص الفاتنات اللواتي ألهمن الشعراء •• ولا يثلم شرفهن أن يغني فيهن الشعراء ، فهن مصونات •• كظباء مكة صيدهن حرام !•• وقد يكون هذا الشعر الذي قيل فيهن مدعاة لجذب خيرة الشباب ليتزوجوهن ••• كما حدث فعلا !

ليست بيوت الاعراس بما فيها ومن فيها هي كل ما تطرب له المدينة ويتجاوب معه شبابها وكهولها وشيوخها ، فهناك أيضا مساء كل خميس

وأحد ، رجال الطرق الصوفية بمظهرهم الخاص ، واعلامهم الضخمةالتي ترفرف عالية يجوبون الشوارع في صفوف متراصة ، تجمــع انماطا من الناس ترتفع أصواتهم بالمدائح والاناشيد الدينية ، بعضهم يقرع الطبول والدفوف ، وبعضهم بغير طبول او دفــوف ، ويتقدم كل مجموعة منهم صف طويل من الشباب يحملون المصابيح المضيئة ، فتزين تنظيمهمويخرج النساء والصبية والاطفال الذين قد يهبون من نومهم ليشهدوا الموكب ، وترتفع زغاريد النساء اعجابا او التماسا « للبركة » من صاحب الطريقة ! ويود الصبية والاطفال ان لو انخرطــوا في الموكب لفــرط اعجابهم بما يشهدون !•• حتى اذا ما بلغت هذه المواكب الدور التي تقصدها قضوا اكثر الليل في المدائح والاذكار ــ كل على طريقته ــ وجعلوا الليل نكهة خاصة •• لا تقل طيبا عن تلك التي تنبعث من بيوت الاعراس ••• وقد فقدت أم درمان هذه المظاهر ــ الا لماما ــ ومن غير ان نحتفي بها كما كانت تفعل بالامس •••

كرومة •• يتوسط حفل عرس في حي ودنوباوي •• الذي تمنى فيه ابو صلاح ان يغشى النسيم « بي لطف شقيقة الروح » •• وقد اكتظت الدار بالجنسين ، ككل حفل يغني فيه كرومة ، الذي انطلــق صوته في هدأة الليل صافيا عذبا ، يهز المشاعر طربا ، والفتيات يتهافتن للرقص •• على •• الحانه الشجية ••

دار العرس ليست بعيدة عن دار الشيخ قريب الله ، وقد جلس الشيخ التقي الورع على « تبروقة » الصلاة وحوله بعض مريديه وتلامذته جلوسا على « البروش » يستمعون الى ارشاداته واحاديثه الموجهة للخير كعادته معهم •• ويصمت الشيخ في بعض الفترات ولا يتحدث ، وانما ينصرف الى تأملاته وينفرد بنفسه ••

ويحمل النسيم الى الشيخ ومن معه صوت كرومة الرائع يغني :

يا ليــل ابقــالي شاهــد !
على نار شوقــي وجنوني !
يــا ليــل !٠٠٠

وينصت الشيخ الى هذه المناجاة العذبة لليل ٠٠ الليل الذي يقيمــه تعبدا وتهجدا وتلاوة للقرآن ٠٠ الا ما احسن هذا الذي يسمع من كلمات ويلتفت الشيخ الى تلاميذه سائلا ٠٠ من هذا الذي يغني لليل ؟!٠ ويقولون انه مطرب اسمه « كرومة » ٠٠ ويصمت الشيخ قليلا ٠٠ ثم يتجه اليهم قائلا ٠٠ اذهبوا اليه واطلبوا منه ان يأتيني مشكورا ٠٠ ويخف بعض تلامذته الى حيث يغني كرومة في بيت العرس القريب ٠٠

كرومة ، وقد فرغ من اداء الاغنية وجلست الفتاة التي كانت ترقص « على السباته » لتخلي الدائرة لاخرى ٠٠ ووصل رسل الشيخ ، وهمسوا في أذن كرومة ٠٠ الشيخ قريب الله يريدك أن تحضر اليه الآن !٠٠ ويفزع كرومة ويضطرب ، ويحار ٠٠ ماذا يريد منه الشيخ ، كان بجانبه صديقه الشاعر عمر البنا ، يستمع للحديث ، فيقول له مشجعا : سأذهب معك ، ونهضا ٠٠ ويخب التلاميذ أمامهما ٠٠ كرومة ينتابه قلق شديد ، وقد قر في نفسه ان الشيخ لا بد قد سمعه يغني ، وانه سيؤنبه على مسلكه ويزجره ويقول هذا لصاحبه الذي لم يكن بأقل منه قلقا وحيرة ٠٠ ويبلغان الحجرة التي فيها الشيخ وبعض مريديه ، وينحني كرومة مسلما ومقبلا يد الشيخ ويلقاه الشيخ في بشاشة ولطف ، وتهدأ نفسه بعض الشيء ٠٠ ويشير اليهما الشيخ ان يجلسا ، ويجلسان على البرش ٠٠ ويؤتى لهما بشراب من العسل الممزوج بالماء ٠٠ يرشفانه في بطء ويزداد اطمئنان كرومة ٠٠٠

وينظر الشيخ الى كرومة ويقول له : لقد سمعتك الآن تنشد كلمات طيبة عن « الليل » ٠٠ فهلا اسمعتني اياها ؟ ٠

كان هذا آخر ما فكر فيه كرومة ، ولكنه نهض منتشيا بهذا الطلب ، ونهض معه عمر البنا ليقوم له بمهمة « الشيال » او « الكورس » •• وبدأ كرومة يغني مطلع القصيدة في شيء من الاضطراب :

يا ليـــل ابقالي شاهـــد
على نار شوقي وجنوني !

الشيخ ينظر بعيدا ساهما ، الليل •• كم له فيه من تسبيح وتهليل ، وكم شهد له بما يلقى من تعلق وشوق للذات الالهية •• ألم يقل في احدى قصائده عن هذا الليل :

يمر بهـــا في آخر الليـــل شـــادن
مـــن الملأ الاعلى يفوح له عطر
على صاحـــب التهليـــل عند نزول من
تعالى مكانـــا لا يحيط بـــه فكر
هنيئـــا لـــه بالله طـــابت حيـــاته
لياليـــه غـــر ، ثـــم أيامـــه زهـــر
هنيئـــــا لـــه قـــد فاز فوزا مؤبـــدا
وفي ملكـــوت الله كـــان له ذكـــر
تلاشى لديـــه الهم والغـــم والعنـــا
وحان لديه القصد • وانجبـــر الكسر

ويردد كرومة المقطع الاول من الاغنية ، وقد طابت نفسه فما أحلى وأعذب أن يغني للشيخ قريب الله ••• ويغني المغنـــي وكل على هواه ،

ويترفع صوت كرومة بكل ما يحمل من نبرات ساحرة (بحة) •• آسرة :

يا ليل ••• صار ليك معاهد
طـرفي اللـي منامـو زاهـد

يـا ليـل •••!

دنا لي سهـرك ••• وأشاهـد
فوق لـي نجمـك ظنونـي !

يـا ليـل •••!

ويهتز الشيخ ••• ويرتفع صوته في صيحة من تملكته نشوة الليل•• ليل الصوفي العابد •• صاح •• الله !•• ويسمـع كل من في الحجـرة صيحة الشيخ •• الله ! وقد انكفأ على « التبروقة » مغشيا عليه !

ويصمت كرومة ذاهلا ••• ولا يزيد على هذا المقطع ، وصمت كل من في الحجرة ، وهم يرون الشيخ منكفئا مغشيا عليه !•• ويا لامثال الشيخ من الليل وذكر الليل !••

ويسرع تلاميذ الشيخ الذين جاءوا بكرومة وصاحبه وقد وقفا وسط الحجرة كتمثالين جامدين لما أصابهمـا من دهشة ••• ويصحبانهما الى خارج الدار ليكملا ليلتهما في دار العرس ، وليتركا الشيخ حتى يفيق مما غشيه من هذا الكلام الذي يدرك وحده عمق معانيه ••• وليكمل ليله في عبادته وتهجده وذكره •••

وما أبعد الشقة بين ليل كرومة ••• وليل الشيخ قريب الله !

والله يعفو عن كثير ••• ولعل كرومة قد أظلته رحمة الله التي تمثلت في قوله تعالى :

« قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا » •

لجنة (ديلاور) للتعليم ومحمد عشري

أبناء الثلاثينات ــ وأعني من بقي منهم ــ ما زالــوا يذكــرون ان الانجليز كانوا يهتمــون اهتماما بالغا بتدريس اللغة الانجليزية في كلية غردون التذكارية ، لعلها المادة الوحيــدة التي كانوا يولونها كل الرعاية والاهتمام من بين المواد الاخرى ولهذا كان الخريجون يجيدونها الى حد ان بعضهم من السهل عليه ان يتعمق قراءة كبار كتابها وشعرائها واشتهر بالثقافة الانجليزية كأحد أبنائها .

وفي مستهل تلك الفترة استقدم الانجليز لجنــة من خبراء التعليــم الانجليز برئاسة أحدهم ويسمى (ديلاور) واشتهرت اللجنة باسمه وكان الغرض من استقدام هذه اللجنة ان تقوم بدراسة جديدة لبرامج وطرق تدريس اللغة الانجليزية في الكلية مع نظرة عامة للتعليم كله ليس بغرض النهوض به بل لتقديم اقتراحات مدروسة لتدريس اللغة الانجليزية .

وقد أثار هجوم هذه اللجنة اهتماما بالغا لدى المثقفين في تلك الفترة، وقد حيل بينهم وبين الاتصال بها لتقديم أي مقترحات او افكار حــول التعليم في السودان وكما نعلم فان للانجليز آنذاك سطوة وقدرة تجعل من العسير تحدي ارادتهم فظلت لجنة (ديلاور التعليمية) تعمل بمعزل عن السودانيين مكتفية باصتفاء معلوماتها من ذوي الرأي والاختصاص

من الانجليز ، ولكن الشاب (المرحوم) محمد عشري صديق وهو من الذين اشتهروا بعمق ثقافتهم الانجليزية يجرأ ويضع مذكرة ممتازة عن التعليم كله في السودان ، كما وكيفا مبديا ملاحظات موضوعية لسياقة مقترحات تعني النهوض بمستوياته ويدعم مذكرته بالاحصاءات الدقيقة عن انواع وعددية المدارس القائمة آنذاك وعدم جدواها بوضعها القائم لتحقيق رسالة التعليم كما يريده قطر ناشيء متوثب ، واستطاع محمد عشري أن يرسل هذه المذكرة الموضوعية الضافية الى رئيس اللجنة الذي قيل انه أعجب بها ولكن لم يكن فيمقدوره أن يفعل شيئا بشأنها لانوضع وتقرير السياسة التعليمية في السودان من شأن القائمين بالامر فيه هنا (في الخرطوم) ولكنه أطلع مدير الكلية الانجليزي (طبعا) على المذكرة وتركها له ، ومن حسن حظ الشاب محمد عشري ان ديلاور أدرك من الشعور الذي لمسه من مدير الكلية عندما تلى المذكرة ، أدرك انه سيبطش بهذا الشاب لانه تطاول فقدم هذه المذكرة من وراء ظهره لرئيس اللجنة فطلب ديلاور من مدير الكلية ان يعده الا ينزل أي عقوبة على هذا الشاب كأن لم يفعل شيئا ، واستجاب مدير الكلية مكرها لهذا الرجاء ولكنه ظل يشكو من تصرف محمد عشري لعدد من كبار الخريجين وبعض شبابهم باعتبار ان ما فعله عشري يعتبر تصرفا غير لائق وما كان يجب أن يحدث منه ويصمه بالادعاء والغرور .

وكان محمد عشري من خريجي قسم الهندسة بالكلية ومن المبرزين فيه وكان يعمل مهندسا بالحكومة بعد تخرجه ويبدو ان الانجليز انتقاما منه أحدثوا له في عمله مضايقات شديدة فما كان منه الا ان قدم استقالته من العمل الحكومي وكان هو العمل المرموق الذي يعد قبلة الانظار ، وتقدم للمدرسة الاهلية بأم درمان لتعيينه مدرسا أهليا وبمرتب أقل من الذي كان يتقاضاه في وظيفته الحكومية ، ومع الاسف فقد كان الوضع الذي فرضه الانجليز على لجان هذه المدارس الا تعين مدرسا الا بعد

موافقة مصلحة المعارف ، وقد عد أعضاء لجنة المدرسة الاهلية بأم درمان كسبا كبيرا للمدرسة ان يعمل محمد عشري مدرسا بها وتقدموا لمصلحة المعارف يطلبون الاذن لهم بتعيينه فرفضت المعارف ـ وكان عشري من أعلام المثقفين الذين تعتز المدارس الاهلية بانضمامهم اليها وما كان يقبل أحدهم ان يعمل بها لضعف مرتباتها الا من صدقت وطنيته ـ وقد خشي الانجليز ان يبث عشري روح الوطنية والتمرد عليهم بين الطلبة ويبث روح الوطنية ، فأصروا على رفض طلب لجنة المدرسة الاهلية بتعيينه مدرسا بها ، وربما كان أيضا من عوامل هذا الرفض ما عرفوه من ان بعض شباب الخريجين وكهولهم كانوا يترددون على محمد عشري في داره بحي الموردة بأم درمان بعد ان علموا بالمذكرة مبدين اعجابهم وتقديرهم لما قام به اذ كانت المذكرة في جملتها تعبيرا صادقا لما كانوا يحسون به من نقص فاضح في التعليم كما وكيفا .

كان من بين أعضاء لجنة المدرسة الاهلية خريجون كبار معتدلون لهم وزنهم واعتبارهم عند الانجليز والمجتمع كله فظلوا يلحون على المسئولين من الانجليز حتى قبلوا أخيرا بعد لأي بأن يعمل محمد عشري مدرسا بالمدرسة الاهلية التي تعادل اليوم الثانوية العامة ، وبمرتب ضئيل اذا ما قيس بالمرتب الذي كان يتقاضاه في وظيفته الحكومية ، وكان كما قلت يعد من أبرز المهندسين الذين تخرجوا في الكلية آنذاك وهو أيضا من أعلام الشباب المثقف الذي تعقد عليه الآمال وقد قبل هذا الوضع بل سعى اليه بوطنية لما اكتنفته المضايقات العديدة التي شنها عليه رؤساءه الانجليز والموعز بها لانه تقدم بمذكرة موضوعية هادئة متزنة عن التعليم في السودان وقدمها الى رئيس اللجنة التي جاءوا بها خصيصا لتقدم لهم نصائحها وارشاداتها في هذا الموضوع ، فكبر عليهم جدا ان يتقدم شاب سوداني من صغار الموظفين بمثل هذه المذكرة ويتدخل في أمر افترضوا ان يكون بحثه وقفا عليهم وحدهم !

ولولا شفاعة رئيس اللجنـــة المستر ديلاور لكان انتقامهـــم من هذا الشاب مريرا وما كانوا يبالـــون من شيء آنذاك والقـــوة والسطوة في أيديهم ، والوعي الوطني لما ينضج بعد •

رحمك الله يا عشري لكم قاسيت وأبناء جيلك من طغيان المستعمرين، فأي جريمة كانت — لولا صلفهم — ان يتقدم شاب سوداني مثقف بآراء نيرة ومدروسة في شأن يهم وطنه ومستقبله اكثر مما يهم المستعمر ، بل ان الاختلاف الشاسع جدا بين نظرته للتعليم كوطني يحس بواجبه نحو أمته وبين مستعمر يريد التعليم مطية زلولا لتحقيق أغراضـــه في اخماد الروح الوطنية لدى أبناء الشعب •

دكتور هوفل وشيخ العلماء

يا لها من أيام ! تلك التي كان الخريجون يهتبلون فيها كل فرصة وسانحة ليسددوا سهامهم للمستعمرين ويعمقوا كراهيتهم في ضمير الشعب ، اعدادا له لمعركة الخلاص ...

نحن في عام ١٩٣٧ ، وفي مستشفى أم درمان الحالي حيث كان أكثر الاطباء من الانجليز ، ومدير المستشفى أحدهم وهو الدكتور هوفل بطل هذه القصة .

كان النظام يسود ادارة هذا المستشفى ... ومن حسنات الانجليز البارزة حبهم للنظام وحرصهم على تطبيقه بدقة ، وأخذ كل من يخالفه بالشدة .. وقد كان هذا الحرص من الدعائم الاساسية لنجاحهم في فن الادارة ، وقد كانت ادارة المكاتب في السودان ــ او الخدمة المدنية كما يطلق عليها ــ مثالا للنظام الدقيق مما جعلها نموذجا فريدا لا مثيل له في كل افريقيا والشرق الاوسط آنذاك ، شهد بذلك كل من اتيحت لهم الدراسة المقارنة للادارة في مختلف هذه البلاد .

وقد خصصت لزيارة المرضى في المستشفيات ساعات معينة في يوم محدد من كل اسبوع ، وكان جرس المستشفى يقرع قبيل انتهاء الزمن

المحدد للزيارة لبضع دقائق ايذانا للزوار لكي يبدأوا في الخروج ، ويقرع الجرس الثاني والاخير في تمام الزمن المحدد لانتهاء فترة الزيارة ، ولا يجب ان يبقى زائر واحد في المستشفى بعد قرع الجرس الاخير .

وكان مدير المستشفى ، أو أحد الاطباء المسؤولين — وجلهم من الانجليز كما ذكرت — يحرص على الطواف على غرف المرضى بعد قرع الجرس الاخير مباشرة ليتأكد من ان كل الزوار قد خرجوا ولم يبق منهم أحد يقلق راحة المرضى بعد انتهاء فترة الزيارة .

وفي أحد أيام الزيارة هذه ، كان يرقد في احدى غرف مستشفى أم درمان ولد صغير هو ابن الشيخ احمد محمد ابودقن شيخ علماء السودان آنذاك ، وجاء الشيخ يعود ابنه ، وجلس بجانبه مشفقا ، فقد كان الولد يعاني من ألم شديد ، وقرع الجرس الاول ، ثم الاخير ، ولم يخرج الشيخ من غرفة ولده ، بل ظل جالسا بجانبه يرعاه ...

وأقبل الدكتور هوفل مدير المستشفى يتفقد غرف المرضى ليتأكد أن ليس هناك من زائر باق بينهم ، وفي غرفة الولد المريض رأى الدكتور هوفل شيخ العلماء ما يزال جالسا رغم انتهاء فترة الزيارة ، فأثاره المنظر ، وسأل الشيخ عن سبب وجوده .. وقال الشيخ : انه سيخرج بعد ان يطمئن على ولده أكثر ، وازدادت حدة ثورة الدكتور هوفل وانفعل ، وتقدم نحو شيخ العلماء ، وكانت له لحية طويلة تتدلى حتى صدره ، فأمسك بها محاولا اقتياده الى خارج الغرفة !..

وبالرغم من ان المغفور له شيخ العلماء كان معروفا بحدة الطبع عندما يثار ، الا انه تمالك أعصابه وتصرف في حكمة ، اذ غادر الغرفة في هدوء.

ولم يدر الدكتور هوفل انه بامساكه للحية الشيخ قد فجر القنابل الفتاكة التي كان الخريجون يدخرونها لمثل هذه المواقف ضد المستعمرين.

وأي فرصة أسعد من هذه التي يهان فيها شيخ علماء الاسلام بالسودان على يد أحد الطغاة المستعمرين لكي يلهبوا شعور المواطنين باسم الدين ضد هوفل ورفاق هوفل الحاكمين المستبدين ؟!

خرج الشيخ هادئا ليرفع شكوى رسمية للمسؤولين عما حدث له من اهانة على يد الدكتور هوفل .. وتنتشر قصته في سرعة فائقة لتلهب المشاعر الوطنية والدينية ...

وتبنى الخريجون في مؤتمرهم العتيد اثارة القضية على نحو جماهيري واسع ، فأرسلوا البرقيات النارية لحاكم السودان العام يحملونه مسؤولية هذه الاهانة التي لحقت برجل يمثل أعلى منصب اسلامي في البلاد ... وأوعزوا الى مختلف الجهات لكي تبرق محتجة مظهرة ثورتها وسخطها واستنكارها !.. لقد حركوا كل التيارات في براعة لتبدي ثورتها !.. وانهالت البرقيات على الحاكم العام ، ومن كل أنحاء السودان ، ثائرة مهتاجة ، وعززها طائفة من العلماء ، وساندها كبار رجال الدين ...

وزاد النار اشتعالا تحرك جماهير من أهل الشيخ وعشيرته ثائرين ناقمين مهددين ...

وانحنى الانجليز — كالعهد بهم — للعاصفة ، ولو كانت عاصفة سياسية خالصة لعرفوا كيف ينكلون بمثيريها ويبطشون بهم ، ولكن العاصفة هذه المرة قد لبست مسوح الدين ، وهو أمر مفرط في حساسيته ، فهم يعرفون جيدا مدى عمق الاحساس الديني لدى السودانيين فلجأوا الى الحكمة ، وقدموا الاعتذار تلو الاعتذار لشيخ العلماء في خضوع واستكانة واكرهوا الدكتور هوفل لكي يقدم اعتذارا شخصيا ... ففعل !

وحسبوا ان الستار قد أسدل ... ولكن الخريجين أرادوا أن يستغل الحادث استغلالا سياسيا الى أبعد مدى ممكن ، والا يسدل عليه الستار

الا بعد استنفاد أغراضه في استنفار الناس ضد الحكم الاستعماري الجاثم على صدر البلاد ...

وحدث في تلك الايام ان قدم من القاهرة الطبيب السوداني المعروف الدكتور بخيت محمد عمر ليعمل لاول مرة في مستشفى الخرطوم . والدكتور بخيت كما هو معروف : أحد طلبة كلية غردون القديمة الذين سبقوا بالهرب الى القاهرة للدراسة في معاهدها فأثاروا سخط الانجليز الذين حرموا عليهم العودة للسودان وقالوا انه تحريم أبدي ، وظل هذا التحريم قائما منذ ان هربوا في عام ١٩٢٤ ، وما تلاه ، حتى أعلن عقد الاتفاقية بين حكومتي انجلترا ومصر عام ١٩٣٦ وقد كان من بين بنودها اصدار العفو عن جميع المجرمين السياسيين، فأطلق سراح علي عبد اللطيف ورفاقه الذين كانوا في المنفى « بواو » ، وسمح للطلبة الذين هربوا في سبيل العلم للقاهرة ان يعود من يشاء منهم للسودان ، وكان الدكتور بخيت محمد عمر قد أكمل دراسة الطب ، وعين طبيبا في مستشفى القصر العيني بالقاهرة ، وتخصص في الجراحة ، وبعد المعاهدة المذكورة رؤي ان يتفق معه للعمل في مستشفيات السودان ، واختيرت الخرطوم مقرا لعمله .

واعتبر الخريجون عودة الدكتور بخيت انتصارا للارادة الوطنية ، وهزيمة للاستعمار الذي حدد موقفه من هؤلاء الطلبة الهاربين لتلقي العلم بمصر ، واعلن انه لن يسمح بعودتهم مرة أخرى لوطنهم !.. كما قرر ان يمنع اي عون مادي يرسل اليهم من السودان !

وأراد الخريجون ان يعلنوا بهجتهم بهذا الانتصار الوطني ممثلا في عودة الدكتور بخيت مظفرا بالعلم وبتحطيم الستار الحديدي الذي ضربه الانجليز ليحول دون عودته واخوانه ، فدعوا لحفل تكريم ضخم في نادي الخريجين بأم درمان ، ووجهوا الدعوة لزملائه الاطباء في العاصمة المثلثة

مع من دعوا ، وكان بينهم عدد من الاطباء الانجليز كما ذكرنا ، كما وجهوا الدعوة لكبار الموظفين البريطانيين في العاصمة المثلثة .

وأغفل الخريجون عمدا دعوة الدكتور هوفل ، احتقارا منهم لشأنه، وامعانا في الاساءة اليه ، وانتقاما لموقفه من شيخ العلماء .. وعلم الانجليز المدعوون ـ أطباء وغير أطباء ـ باغفال دعوة الدكتور هوفل وما وراء هذا الاغفال ـ فقرروا هم بدورهم مقاطعة الحفل فلا يحضره واحد منهم ...

وأقيم الحفل واحتشد النادي بالمدعوين من السودانيين وغير السودانيين من كل الجاليات التي دعيت للحفل ، واختفى البريطانيون تضامنا مع الدكتور هوفل ، ولم يؤثر اختفاؤهم على جو الحفل ، بل زاده روعة ووطنية ، وانطلق الخطباء والشعراء وقد وجدوا مجال القول واسعا خصبا ... وكان لهذا الحفل الوطني صدى عميق في تلك الاونة اذ كانت هذه هي المرة الاولى التي يضطر فيها الانجليز الى مقاطعة حفل ، اذ كانوا يصرون دائما على الحضور والجلوس في الصدارة ... حتى الحفلات التي كانت تقام باسم الاعياد الدينية لم يتخلفوا عنها ... ولاول مرة تضيق صدورهم ويعزلون أنفسهم ، وقد عد تصرفهم هذا انتصارا للحركة الوطنية النامية .

ان الرواية لم تتم فصولها !.. كان الانجليز في تلك الفترة التي بدأ فيها الوعي الوطني يتجه نحو النضج ، قد رأوا ان يطعموا الادارة بلون جديد من الشبان السودانيين المثقفين ، فأعلنوا انهم قد زهدوا في الاداريين السودانيين القدامى لان اكثرهم من طبقة « نعم سيدي » وليست لديهم الجرأة لكي يقدموا الرأي الناصح اذا ما كان ضد رغبة رؤسائهم الانجليز، وقرروا اختيار نوع جديد من الشبان المثقفين يدربونه على الادارة توطئة لرفع مسؤوليات الاداري السوداني وتأهيله لوظائف أكبر من الوظيفة التي يحتلها آنذاك وكانت لا تتجاوز درجة « مأمور » ... وكأن الانجليز

بهذه المحاولة الجديدة يريدون أن يلتقوا أو يتقدموا خطوات نحو مواجهة الشعور الوطني الذي أخذ يستعر ·

وفعلا أختير عدد من الشبان النابهين الملحوظي المكانة في المجتمع لاول دفعة لهذا الوضع الجديد ··

وقد ظن بعض الناس خيرا في اختيار هذه المجموعة الاولى للادارة واخذوها دلالة على تراجع الانجليز لكي يفسحوا مجال التدريب إمام الشبان المثقفين ليحملوا مسؤولية الادارة ·

ولما وقع حادث الدكتور هوفل ، وقاطع الانجليز حفل الخريجين لتكريم الدكتور بخيت ، وكان هؤلاء ما زالوا طلبة في مدرسة الادارة التي يشرف عليها أحد دهاقنة الاداريين الانجليز واسمه (بيرفس) وكان من أكثر الاداريين الانجليز معرفة باللهجات والعادات السودانية لتجوله في مختلف أنحاء السودان ·· ودار نقاش بينه وبين طلبة الادارة حول موقف الاداري السوداني في مثل موقف مقاطعة رجال الدولة الانجليز حفل الخريجين الذين تربطهم معهم الزمالة الوطنية ··· ماذا يكون موقفه ؟ لو كان مأمور مركز أم درمان مثلا ، ودعي لهذا الحفل ، وعلم ان كل رؤسائه الاداريين من الانجليز قد قاطعوا الحفل ، هل يلبي الدعوة ؟·· أم يقاطع ممتثلا لموقف رؤسائه ؟ وهل اذا قبل الدعوة يكون قد خرج على الجهاز الاداري الرسمي الذي ينتمي اليه وقد قاطع هذا الجهاز الحفل ؟·· أم يعتبر تصرفا شخصيا لا غبار عليه ؟

وقد كان حريا ان تدور هذه الاسئلة في أذهان طلبة الادارة الجدد ، فقد كان الاداريون الانجليز هم كل شيء في الدولة ، وان كل اداري سوداني يجب أن يتصرف في مثل هذه الظروف تصرفا يلائم السياسة التي

يحددها الانجليز • ورد مستر بيرفس يقول : ان التصرف الطبيعي المنتظر من مأمور أم درمان السوداني في مثل هذه الاحوال هو مقاطعة الحفل ، لان المأمور يمثل الدولة التي قرر رجالها المقاطعة ، ولكن يمكنه اذا شاء أن يعبر عن شعوره الخاص نحو تكريم مواطن زميل بأن يقيم للدكتور بخيت دعوة خاصة في داره !••

وكانت هذه الاجابة الحاسمة بمثابة الضوء الكاشف لزيف ما كان يدعو اليه الانجليز آنذاك من تدعيم الادارة بعقول أكثر تحررا وجرأة !• وانكشف الزيف الاستعماري وان لم يكن مستورا عن كل ذي بصيرة •

صور من حياة كانت حافلة بالجهاد أهديها لشباب اليــوم حتى لا ينسوا ما قدمه الاولون •••

الحاكم العام يخالف سياسة معاونيه
ويوعز بدعوة بعثة اقتصادية مصرية

فبراير ١٩٣٥

بعثة مصرية تجارية زراعية تزور السودان بمسعى خاص من السير سايموز حاكم السودان العام لاول مرة منذ ان أخرج المصريون من السودان بعد مقتل السير لي استاك حاكم السودان العام في شوارع القاهرة عام ١٩٢٤م عقب عودته من انجلترا في طريقه للسودان واتخذت انجلترا مقتل استاك مبررا لاخراج الجيش المصري وكل المواطنين المصريين من السودان ، وكان مجيء هذه البعثة المصرية لاول مرة بعد خروج المصريين حدثا ضخما ، فماذا كان وراء هذا الحدث ؟؟

كانت الحالة الاقتصادية في السودان سيئة جداً مما دعا الحكومة الى فرض استقطاع يبلغ ٥ ٪ من مرتبات الموظفين والعمال كما عمدت الى الاستغناء عن خدمات الكثيرين منهم ، فرأى الحاكم العام السير سايموز انه مما يحسن الوضع الاقتصادي ان تستأنف العلاقات الاقتصادية مع مصر فأوعز الى أحد كبار التجار اليونانيين وهو « كونتو ميخالوس » رئيس الغرفة التجارية (بالخرطوم) وكان أغلبية أعضائها من التجار الاجانب ، أوعز اليه ان يضمن خطابه السنوي للغرفة في اول عام ١٩٣٥

حديثا عن سوء الحالة الاقتصادية وضرورة عودة العلاقات الاقتصادية مع مصر ، وفعل ذلك ، وكان لهذا الخطاب أثر بعيد المدى ، وكان سايموز قد عاد من مصر وقد قام باتصالات هامة في هذا الشأن ، ورأى ان تثمر الدعوة لتحقيق هذا الغـرض الاقتصادي عن طريـق الغرفة التجاريـة بالخرطوم والقاهرة .

ثم رأى أن يبدأ العمل لتحقيق زيارة وفد مصري تجاري زراعي عن طريق شخصيات غير رسمية فأوفد المرحوم الشيخ احمد عثمان القاضي رئيس تحرير جريدة حضارة السودان الرسمية التابعة للحكومة آنذاك ، وهو رجل ذو شخصية قوية كان يعمل قاضيا شرعيا ثم اختارته الحكومة رئيسا لتحرير جريدة الحضارة وكان الانجليز يثقون فيه ، أوفده وألحقه بكوتتو ميخالوس اليوناني رئيس الغرفة التجارية بالخرطوم فعملا معا مع الغرفة التجارية في مصر لاعداد الوفد الزائر .

وهنا يجب ان نسجل للتاريخ ان الحاكم العام في خطوتـه تلك كان ـ كما علمنا ـ مختلفا كل الاختلاف مع كبار رجال الادارة الانجليز في السودان والذين كان من سياستهم التي يؤمنون بها ويرفضون أيةتغيرات لها ان يفتح باب للعلاقة بين السودان ومصر وقد عارضوه في فكرتهولكنه سار فيها قدما بحكم وضعه كحاكم عام للسودان .

وجاءت البعثة المصرية للسودان يرأسها فؤاد اباظه باشا رئيس الغرفة التجارية بمصر .. وكان من بين أعضائها شخصية محبوبة لدىالسودانيين الذين يعرفونه وهو الدكتور محجوب ثابت الـذي كان شديد التعلـق بالسودان والحديث عنه باعجاب في الصحف والمجلات المصريـة ، كما اشتهر بالدعابة والمرح ، وكان من خلصاء الزعيم المصري المعروف سعـد زغلول ، ولامير الشعراء أحمد شوقي بك شعر طريف يداعب فيهالدكتور محجوب ثابت أثبت بعضه في ديوانه المطبوع .

لهذا ما كاد القطار الذي يقل البعثة يصل محطـة الخرطـوم وقد استقبله جمهور كبير حتى تقدمت اليه مجموعة من الشبان المثقفين وحملت محجوب ثابت على الاعناق حتى بلغت به السيارة المعدة له ، محجـوب ثابت ولد من أم سودانية وأب مصري وهو يفخر بذلك .

وتنقلت البعثة بين عدة مناطـق في السودان ، في الجزيرة والشرق والغرب فقوبلت باستقبالات رائعة ربما كان مبعثها الاول اظهار العلاقة القوية بين السودان ومصر والتي أنكرها عليهم الانجليز وحاربوها بعنف .

قلت ان كبار الموظفين الانجليز آنذاك لم يكونوا راضين عن فكرة هذه البعثة وحضورها ولكنهم لم يستطيعوا أن يقفوا أمام صمود الحاكم العام وراء فكرته ، وكان السير سايموز الحاكم العام يولي اهتماما كبيرا للسودان والسودانيين ولم يشتط في تطبيق السياسة الاستعمارية الخالصة التي كان يسير عليها معاونوه وقد رأيناه يسافر الى مدن في رحلة رسمية ليجد الفرصة ليحضر احدى الاجتماعات التي تعقدها الجمعية الادبيـة المعروفة ويجلس مع الاعضاء في غرفة صغيرة داخل النادي ويستمع الى برنامج من كلمات قصيرة أعدوها باللغة الانجليزية عندما علموا بزيارته لهم فيستمع اليهم باهتمام ويشترك معهم في نقاشهم وتتم هذه الزيارة في غير أبهة السلطة الحاكمة .

وأراد معاونوه أن يخلقوا بعض المضايقات للبعثة المصرية ، ومن ذلك ان المرحوم السيد عبد الرحمن المهدي وجـه الدعوة للبعثـة لتزوره في جزيرة أبا وأعد لها استقبالا حافلا واتفق مع المسئولين أن يسمحوا للبعثة باستعمال الباخرة لنقلهم من كوستي حتى جزيرة أبا فوافقوا على ذلك ولكنهم في اليوم المحدد لاعداد الباخرة لنقل البعثة اعتذروا له ليفسدوا حفل التكريم اذ لم تكن هناك مواصلات لنقل البعثـة من كوستي لأبا ، ولكن السيد عبد الرحمن المهدي وكانت هناك حشود ضخمة من الانصار

قصد بهم فرع النهر المسمى بالجاسر وقرر أن يردمه الانصار لتسير العربات، وذهب مع أنصاره المحتشدين الى حافة الجاسر وأخذ بيده حفنة من التراب وقال بسم الله الرحمن الرحيم وألقاها على حافة الجاسر ، وكبّر الانصار وأخذوا يكيلون التراب على الجاسر حتى تمكنوا من ردمه ، واستطاعت البعثة المصرية أن تعبر الجاسر بالسيارات الى جزيرة أبا وأقيم حفل التكريم في موعده وقد أخبرني المغفور له محمد صالح الشنقيطي وكان من العارفين بدقائق هذا الخلاف بين الحاكم العام وكبار الاداريين والانجليز ان هؤلاء نقموا على السيد عبد الرحمن واعتبروا تكريمه للبعثة المصرية مناصرة لموقف الحاكم العام في تلك الفترة ، وكان من جراء هذه النقمة أن سحبوا منه التصديق الذي منحوه اياه بانشاء مشروع زراعي للقطن في منطقة « قندال » بالجزيرة .

وما من شك في ان البعثة المصرية استقبلت من السودانيين استقبالات حارة وحاشدة في كل المناطق التي طافت بها ، واحتفى بها بوجه خاص السودانيون في العاصمة المثلثة . ومما أذكر ان السادة « آل البرير » بأم درمان أقاموا لها حفلا فخما أعدوا فيه برنامجا اسمعوهم الاغنية السودانية ودعوا الفنان الكبير محمد احمد سرور لهذا الغرض وكان يصحبه فنان اسمه « السر » يجيد العزف على الكمان الذي ابتكر له بوقا صغيرا ركبه عليه ليزيد الانغام وضوحا وروعة ، وقدم سرور أغنية عبيد عبد الرحمن المشهورة « أفكر فيه وأتأمل » ولما كان الدكتور محجوب ثابت مشهورا بالدعابة فانه ما كاد يسمع سرور يغني هذا المقطع :

هواه بجسمي يتخلل
مجاري الدم اذا تحلل

صاح محجوب ثابت قائلا وهو يضحك بشدة « هو الشاعر ده طبيب ولا ايه » وضحك معه الحاضرون ، وكانت للدكتور محجوب لحية كثة

مستديرة ، كما أسمعهم سرور أيضا أغنية «اطرد الاحلام يا جميل واصحى» ولما عاد الدكتور الى مصر أشاد بالاغنية السودانية في الصحافة المصرية وقال انها تشبه الموشحات الاندلسية في رقة معانيها وعذوبة كلماتها وصدق عواطفها ونشر صورة الفنان سرور وبجانبه السر بكمانه كما أخذها لهما في ذلك الحفل •

وعند وصول البعثة في أول فبراير ١٩٣٥ أقام لها حفل تكريم خواجه كوتتو ميخالوس رئيس الغرفة التجارية بالخرطوم وخطب مرحبا بها في ذلك الحفل وأشار الى الخلاف السياسي بين انجلترا ومصر حول السودان وقال عن السودان انه (عظم النزاع بينهما) فشنت عليه مجلة « الفجر » هجوما عنيفا وأنكرت أن يكون له حق الكلام باسم السودان وان يصفه بأنه (عظم نزاع) ويبدو أن مجلة « الفجر » كانت متحفزة لهذا الهجوم منذ أن أخذ كوتتو ميخالوس يقوم بمساعيه لزيارة هذه البعثة للسودان، ووالت الهجوم عليه في أكثر من مقال ، وكانت هناك جريدة «السودان» التي يصدرها ويحررها استاذنا المرحوم عبد الرحمن احمد فكتب فيها عدد من الشبان المثقفين يناصرون قدوم البعثة ويحمدون لكوتتو ميخالوس ما هيأ من سبيل لزيارته ، وكان هؤلاء الشبان مأخوذين بفكرة عودة الصلات بين مصر والسودان بعد انقطاعها منذ ثورة ١٩٢٤ المعروفة فهاجمتهم « الفجر » وسخرت من دفاعهم عن الخواجه كوتتو ميخالوس اليوناني وأطلقت عليهم في مقال لها اسم « الاغاريق السود » •

وهكذا أحدثت تلك الزيارة نشاطا في صحافتنا على النحو الذي ذكرت طرفا منه •

ومهما يكن فقد كان شعور السودانيين نحو مصر ممثلا في استقبالات تلك البعثة أين ما حلت دافقا • وكانت تلك الزيارة من المعالم البارزة في فترة الثلاثينات •

مع علي نور شاعر المؤتمر

علي نور .. شاعر المؤتمر ، كما اطلق عليه في تلك الفترة القاسية التي اتسمت بالصراع المرير ضد الاستعمار تقوده طبقة الخريجين خفية وعلنا ، وقد كان علي نور شابا متوثبا يحدو الركب وهو في أول خطاه بشعره الثائر وفكره الثاقب ، ولم يقل بيت شعر واحـد في الحب والغـزل أو مجالس المجون والطرب ويكاد يكون شعره كلـه قاصرا على القضايـا الوطنية والهاب المشاعر .

طلبت منه قبل وفاته رحمه الله أن يعنى بتسجيل شعره ومناسبة كل قصيدة له ، وكان يغفل تسجيل شعره ولا يعنى به ، وأخذت أحثه على ذلك وبعد لأي كتب لي أربعة قصائد من شعره ومع مناسباتها التي قيلت فيها — ثم توقف بعدها رغم الحاحي عليه — وقد بدأها بالقصيدة التي أنشأها عقب الخلافات الحادة في صفـوف الخريجين في أول الثلاثينات حول رئاسة النادي بين المرحومين الشيخ احمد السيد الفيل ومحمد علي شوقي ، وهو أول خلاف يشق صفوفهم ويفرق بينهم اذ أعقبه ابتعـاد أكثرهم عن النادي لفترة طويلة .. وأنا أترك الحديث هنا لاخي علي نور رحمه الله رحمة واسعة وهو يقدم قصيدته عن ذلك الخلاف المرير الذي تألم وأسف له الجميع ، واصبح على مرارته معلما تاريخيا بارزا لا بد من الوقوف عنده لمن يؤرخ لتلك الفترة ، يقول علي نور :

... سارت بين صفوف الخريجين بلبلة بسبب من يحق له ان يتقدم الصفوف ويجلس على مقعد رئاسة النادي بينهم بعد انتخاب لجنة العشرة التي وجدت لازالة الحيف الذي لحق بهم في ذلك الوقت وكان ذلك أول حدث يحمل في طياته بدء العمل لصالح المجموعة .

وحدث بعد ذلك ان اختلف الخريجون اختلافا كبيرا اثر منازعات رئاسة النادي بين مؤيدي المغفور لهما محمد علي شوقي والشيخ احمد السيد الفيل ودار الناس في دوامة من الشقاق مدة طويلة ، وكادت المنازعات بين الطرفين أن تؤدي بكل الوشائج بينهم ـ فخرج «الفيليون» من النادي ولم يلبث ان تبعهم « الشوقيون » ـ اصبح نادي الخريجين قاعا صفصفا ، ويجدر بنا أن نذكر ان تلك المنازعات حول رئاسة النادي كانت تحمل في طياتها العريضة أي أقدر على البذل والتضحية في سبيل العمل العام وان بدا للكثيرين ان النزاع كان على مجرد الرئاسة ، وفي تلك الاثناء نشر طيب الذكر الشيخ عبد الله عبد الرحمن الامين قصيدة يرثي فيها الحال ويحث الخريجين على ترك المنازعات الشخصية والالتفاف حول الاهداف العالية . وكان مطلعها :

قاتل الله كاذبات الاماني
شغلت في النفوس كل مكان

فرددت عليه بقصيدة جاء فيها :

أنت أحسنت في اختيارك للفظ
وأحسنت في اختيار المعاني
يوم أرسلتها على القوم شعواء
وأعملتها كحد السنان
أشعلوها بالامس حربا عوانا
أنت أطفأتها بحرب عوان

جبن النـــاس عن مناصرة الحــق
وفي الحــق لم تكن بالجبــان

قد وعظت الرجال من منبع الشعــر
فأسمعت كل قــاصي ودانــي

حزت اعجاب من ثوى في أعالي النيل
أو كــان في قــرى كردفــان

غير ان الشبــاب في هذه الايــام
لا يسمعون الا « الاغاني » !

فاذا شئت فاحضر العود والــدف
وانشد موشحات «ابن هاني»

ان قومــي لهــم عيــون ولكــن
لا ترى كل واضح للعيــان !

سقــط النابــه النبيــل لديهــم
ويفوز البليــد في الامتحــان

ليس نــادي المدارس اليــوم الا
أثــرا من مخلفــات الزمــان

كنت بالامس أدفــع السوء عنــه
وأرى اليوم شأنه غير شأنــي

قد أردنــاه مُدنيــا مــن بعــاد
فاكتسبنا تباعــدا من تدانــي

وأقمنــاه للــوئــام وللـــود
فأمسى رهينـــة للهــوان

ضم في صــدره قلوبــا خرابــا
ليتهــا كالبنــاء في عمــران

« قهوة » شأنهـا صغـير ولكـن
في ضفاف العقول «كالبرلمان»

ان الخريجين الذين عاشوا تلك الفترة السيئة من تاريخ نادي الخريجين بأم درمان يصدقون علي نور في هذه الصورة القاتمـة التي رسمها في قصيدته هذه .

ولكن الشاعر الوطني يحيل هذه الصورة القاتمـة التي رسمها في قصيدته هذه الى صورة زاهية وهو يحـدو الركب الوطني في صراعاته المتوالية ضد الاستعمار ، وان كان يشوبها أحيانا بعض المرارة والاسى .

ويكتب الشاعر علي نور في مقدمـة قصيدته الثانية . نشرت هذه القصيدة (الماضية) في جريدة يحررها السيد داود منديل تسمى الجريدة التجارية فجاءني خطاب من سكرتير النادي يطلب مني أن أقدم اعتذارا كتابيا ترتضيه اللجنة ويهددني بتطبيق القانون الذي يرفت من النادي كل من يشين سمعته . وطلبت بدوري اعتذارا كتابيا أرتضيه لتوجيه تلك التهمة الى (اشانة سمعة النادي) ثم احتكمنـا الى المستر وليمز رئيس النادي .

والمستر وليمز هو مدير كليـة غردون آنذاك والـذي تنص قوانين النادي أن يكون شاغل هذا المنصب هو رئيس الشرف للنادي ، وهو نص فرضه الانجليز من بين الضمانات التي بموجبها سمح للخريجين بانشاء النادي .

ويستطرد علي نور وهو يكتب لي مقدمة قصيدته الثانية فيقول ان مناسبتها التاريخية :

في هذا الجو المكفهر كانت الجمعية الادبية بمدني تسير في خط آخر تدرب المشتركين فيها على الخطابة وارتجال الكلمات وتشجيع القراءة ، والاطلاع والبحث وتلخيص ما في الكتب التي لم يتمكـن الآخرون من

قراءتها نقلت في تلك الاثناء بصفة مؤقتة الى مدني واشتركت في الجمعية وكانت تقيم ندوات عامة ومحاضرات كلما جد جديد تدعو اليها جميع الاعضاء والمواطنين بعد اطلاع لجنة النادي على ما يقال ... اما في اجتماعاتها فكان الكلام مباحا ...

كنت أدير الندوة التي ألقى فيها صديقي احمد خير محاضرته عن زيارته للقاهرة واجتماعاته وحضر الندوة رواد كثيرون ، وقد عقد الاجتماع في الساحة الشرقية في النادي ، فقدمته بالابيات الآتية :

هذي يدي لسماء المجد أرفعها رمزا يشير الى المستقبل الحسن
لما نرجيه تحت الشمس من مطر وما تفديه بالارواح من وطن
دقوا البشائر للدنيا بأجمعها وللعروبة من شام الى اليمن
انا هممنا وارهفنا عزائمنا على النهوض بشعب بالعلا قمن
انا لبسنا ثياب العز ضافية فضفاضة بعد ثوب الذلة العفن
وبات كل فقير غاض مورده فينا يفيض له النعماء كل غني
يسعى له ويواسيه ويمحضه ودا ويألفه في المنزل الخشن
كنا بعيش بلا عقل يوجهنا الى الصواب ، ولا عين ولا أذن
بالامس ناحت باطلال بلادنا فليس تعرف غير الشجو والشجن
واليوم أورقت الاعواد وازدهرت لها ، فغنت باهزاج على فنن
وامتدت السيل للركبان واعتدلت هوج العواصف والانواء للسنن
مرحى لنا بأمانينا محققة ومرحبا بالشباب العامل الفطن
ان جاد للوطن العالي بعزمته وجهده ، فبلا من ولا ثمن
يمشي الشباب بأهليه على سنن والشيب يمشي بأهليه على سنن
هذا بحكمته يمشي على مهل وذاك يمشي بلا ريث ولا وهن
فان تركتم له آمال نهضتكم تركتموها لقوام ومؤتمن
ما خاب أو ضل أسباب الهدى بلد ألقى وأسلم للشبان بالرسن

وقبل ان اروي الابيات التي اختتم بها الشاعر قصيدته احب ان القي الضوء عليها لكي تتضح معانيها للقارىء ، فقد تذكر الشاعر ايامه التي كان ورفاقه يقيمون الخلايا السرية للعمل الوطني ، فعندما كان طالبا بكلية غردون القديمة اشترك في خلية سرية كانت على اتصال وثيق بجمعية اللواء الابيض تجند لها المناضلين بين صفوف طلبة الكلية ، وحق له ان يقول :

الله أكبـر هذا الـروح أعرفـه اذا تذكـرت أيامـي ويعرفنـي
كنـا ننميـه سرا فـي جوانحنـا متى استحال الى الاجهار والعلـن
يا احمد الخير قم وانشر صحائفه على جميع رجال الرأي في المـدن

ليس كل الخريجين انذاك كانوا يقفون في صف الحركة الوطنية وهي في بدء أمرها ، بل كانت هناك قلة والحمد لله يرتجفون ذعرا من كل موقف وطني قد يعرضهم لمواجهة من الانجليز من ذلك موقف نائب رئيس نادي الخريجين بمدني في تلك الليلة التي اقيمت فيها المحاضرة والقصيدة ، فقد اعترض على استمرار المحاضر في القاء محاضرته لانه تجاوز القدر المكتوب من المحاضرة وسمحت به لجنة النادي قبل الالقاء ، وغادر النادي بعد ان اثبت اعتراضه خوفا من تحمل المسؤولية ، الشاعر علي نور رحمه الله يكتب في تعليقه على هذا الموقف في ختام قصيدته يقول عن هذا الموقف ما يلي :

« واذكر ان نائب رئيس النادي وقف دون استئذان وقال :

« لقد تكلم المحاضر بأكثر مما اجازته اللجنة ، فهو يقرأ الان من الورقة السابعة ولم تطلع لجنة النادي الا على اربعة ورقات فقط ، وبذلك اوقف هذا الاجتماع ، وخرج من الدار .

قلت نحتكم للمحاضرين (وكان علي نور مدير تلك الندوة) فان اقروا استمرار الاجتماع يستمر فكانت الاغلبية بجانب المحاضر فاستمر في محاضرته حتى النهاية ، واعتقد ان مثل هذه المواقف التي سجلها علي نور في شعره تعطي صورة للجو الارهابي الذي فرضه الانجليز وبعض أعوانهم حتى في صفوف الخريجين ليحدوا من نشاط وحرية العاملين لنشر الوعي الوطني لمواجهة الاستعمار .

لقد تركنا علي نور في قصيدته الثانية منتشيا بما جد في نشاطنا الوطني من نقاش ، فهاهم الرواد الاحرار يحاولون اقتحام الحواجز التي وضعها الانجليز امام الوعي الوطني حتى لا ينمو ويتمدد فالشاعر يهتف فرحا بهذه المحاولات الوطنية ويقول :

دقوا البشائر للدنيا بأجمعها ... وللعروبة من شام الى اليمن
انا هممنا وارهفنا عزائمنا ... على النهوض بشعب للعلا قمن

ولكن هذه البشائر التي يدفعها الشاعر للدنيا بأجمعها يخص بها العروبة من شامها الى اليمن ، هذه الفرحة بالبشائر لم تدم طويلة عند الشاعر المرهف الحس الوطني فقد نبتت فكرة انشاء مؤتمر الخريجين بين اعضاء الجمعية الادبية في مدني وحملها الاعضاء الى نادي الخريجين بامدرمان ليتبناها ويحتضنها ويعمل لتحقيقها باعتباره شيخ الاندية ، وكان الخريجون يتلمسون الطريق ويتشككون في كل شيء فلم يستقبل اكثر اعضاء النادي الفكرة بالقبول والرضاء ودار حولها نقاش اثمر خلافا حادا، ضاعف من اثره ان اكثر الخريجين قد ابتعدوا عن النادي عقب الخلاف المرير الذي نشب بينهم حول رئاسة النادي في مستهل الثلاثينات كما اسلفنا القول عن قصيدة الشاعر آنذاك . ولكن اعضاء الجمعية بمدني ، وبينهم علي نور لم يتطرق اليهم اليأس فواصلوا جهودهم لكي يحملوا الخريجين في ناديهم بأم درمان ليتقبلوا فكرة المؤتمر واحتدم الخلاف وعنف بينهم ووجد علي نور في شعره منفسا عن الضيق أو اليأس الذي اعتراه وهو يرى فكرة المؤتمر التي تحمس لها مع رفاقه اعضاء نادي مدني تلقى ما لقيت في نادي الخريجين بامدرمان من خلاف مرير حولها .. وعدم الاقتناع بها من اكثرية الاعضاء .

انه يكتب في مستهل قصيدته التي انشأها في تلك الفترة (.. وانتقلت فكرة المؤتمر الى شيخ الاندية بامدرمان وبحثت في اجتماعات كثيرة كنا نحضرها في ايام الخميس من كل اسبوع « يحضرون من مدني ») وفي

تلك الاجتماعات شعرت بأننا ندور في حلقة مفرغة وان كثيرين يحاولون تعويق الحركة وقتلها فطلبت الكلمة في اجتماع من اجتماعات الخميس بشيخ الاندية وقد تملكتني موجة من موجات التشاؤم واسمعتهم هذه القصيدة:

أما آن للنفس أن تهـدأ ... وللدمع في العين أن يرقأ
أما آن للروح ان تستريح ... وللجرح في القلب أن يبرأ
أما آن للوطن المستضام ... ان يستفيـق وان يعبـأ
رأيت الزمان وأحداثـه ... تبدلنـا الاحسن للاسوأ
وما طلعت شمسنا بالجديد ... الا بكينا على ما نـأى
حياة الورى سنة من كرى ... وما لـذة العيش الرؤى
ولما وجدتك مستهزئـا ... صحبتك يا دهر مستهزئا !
اذا خرج الفأر من وكـره ... وهيـأ للقـط ما هيـأ
وقلنـا نعلـق أجراسنا ... فانـا وربـك لن نجرأ !

واسطورة الفئران والقط وتعليق الجرس مشهورة وهو هنا يرمز بها الى هؤلاء الذين تهيبوا فكرة المؤتمر لانها حركة ستغضب الانجليز حتما ــ فمن الذي يعلق الجرس آنذاك ؟ هكذا يتساءل علي نور أو قل يسخر علي نور من هؤلاء المهيبين ــ ولكن الفكرة تحققت بحمد الله وعقد الخريجون اول اجتماع عام للمؤتمر وكان عيدا وطنيا لم يسبق له مثيل ووقف علي نور في ذلك الاجتماع الاول يحيي مولد المؤتمر بقصيدة ادمت الاكف بالتصفيق ومنها أطلـق عليه لقب « شاعر المؤتمر » • بعد تلك الاجتماعات ذات طابع الخلافات الحادة بين الخريجين في ناديهم بامدرمان وفي مجتمعاتهم خارج النادي حول فكرة المؤتمر مما كاد يؤدي بها ، اجتمع الرأي بعد لاي ، وتغلب انصار فكرة قيام المؤتمر ، كان شاعرنا علي نور كما تتبعناه في قصائده الماضية في مقدمة الشباب المناصر للفكرة العامل لتحقيقها •• وتكونت لجنة تمهيدية تعد العدة لاجتماع عام يدعى اليه كل الخريجين الذين ايدوا الفكرة من العاصمة والاقاليم ، واسندت سكرتارية

هذه اللجنة التمهيدية للمغفور له السيد اسماعيل الازهري الذي كان آنذاك رئيسا لنادي الخريجين •

وفي عام ١٩٣٧ ـ وفي عيد الاضحى ـ حيث تتاح فرصة اجازة العيد للخريجين القريبين للعاصمة ان يحضروا ذلك الاجتماع التاريخي كما جاء بعضهم من الاقاليم البعيدة وقد اخذوا اجازاتهم السنوية ليتمكنوا من الحضور ، وفي ذلك اليوم التاريخي احتشد اكثر من الف خريج في ناديهم بامدرمان الذي كان بسيطا في مظهره وليس بهذه الفخامة والمساحة التي هي عليه الآن ــ وقد امتزجت أزياء « الافندية » بأزياء المشايخ بجببهم وقفاطينهم •• والعمم والطرابيش والقبعات وكانوا جميعا رغم تباين هذه الازياء يجمعهم شعور وطني وتعلو وجوههم كل مظاهر البشر والفرحة ، بقيام اول مؤسسة وطنية وحدت من آمالهم وجعلتهم ينظرون للمستقبل في ثقة هي الثقة التي يبعثها الاتحاد في الجماعة التي كانت تعاني من الخلاف والتمزق •

وكان لا بد لشاعرنا علي نور حادي الركب الوطني ان يلقي شعرا في ذلك اليوم التاريخي ، وكانت قصيدته التي اثبتها هنا هي القصيدة الوحيدة التي القيت في ذلك الاجتماع التاريخي والذي كنت من بين حضوره وما زال في سمعي دوي الهتاف والتصفيق وقد لا يجد شباب اليوم في هذه القصيدة ثورة جامحة بمعايير اليوم ولكنها يومذاك وفي ذلك الجو الارهابي الذي فرضه الانجليز كانت شيئا كبيرا وان جاءت بعض ابياتها ــ كما يبدو الآن ــ مغلفة بالحذر واترك لعلي نور ان يتحدث في مقدمة قصيدته كما سجلها في مذكراته •• يقول :

ثم قدر للرأي ان يجتمع ، ولمؤتمر الخريجين العام أن يرى النور في ثاني ايام عيد الاضحى المبارك في عام ١٩٣٧ فقد اجتمع تلبية لدعوة اللجنة التحضيرية ما يربو على الف خريج في تمام الساعة الخامسة وكان اكبر اجتماع يشهده الناس حتى ذلك العهد •• وكنت قد اطلعت السيد اسماعيل

الازهري على الشعر الذي اعددته ، واتفقت معه على المكان الذي اجلس فيه حتى اذا ما انتهى من كلمة الافتتاح واتاح للمتكلمين فرصة الكلام اتاح لي الفرصة .. وعندما قال الرئيس (الفرصة الآن برفع الايدي) رفعت يدي ضمن المئات فما كان منه الا ان نادى بأسمي ، فقمت الى المنصة والقيت لاول مرة امام المكيرفون القصيدة الآتية :

اليوم عيد ، وللخريجين	عيد ... وعيد
هذا سعيد وهذا	كما اردنا سعيد
هذا نداء قديم	وذا نداء جديد
جئنا اليكم وجاءت	من كل فج وفود
سيروا بنا للمعالي	سيرا حثيا وقودوا
فنحن ندري ويدري	حكامنا ما نريد
لا ترهبوا او تهابوا	فنحن نحن الجنود
حتى يقدر للسودان	المكان العتيد
ما فيه سود ولكن	فيه تقيم الاسود
اهلا وسهلا بمن	سيروا الامور ائتمارا
اهلا وسهلا بمن	جربوا وكانوا كبارا
اهلا بصابية القطر	والرجال الغيارى
اقول للحي لما	آنست في الحي نارا
ليس السياسة حظا	مجردا او « قمارا »
فلا تسوقوا اليها	فتى اذا حار ثارا
لا يحسن السير الا	اذا أثار الغبارا
يرى التصدر في	الناس مغنما واشتهارا
ولا يراه اضطلاعا	وذمة او ذمارا
هذا زمان عجوز	فيه القوي يفوز

وللضعيف المعنى ... يجيز ما لا يجوز
فان حمينا حمانا ... وانه نوروز
فذاك ما نتوخاه ... مصر والانجليز
لا يقبل الذل حر ... لا يهان العزيز
والعدل عهد طويل ... والظلم عهد وجيز
يفيد قول صريح ... ولا تفيد الرموز
هيهات يسعد شعب ... لم يدر ماذا يعوز
ما قر راع بواد ... لا ترضيه المعيز

اني احب بلادي ... والحب ما لا يقدر
وافتديها لانى ... اميز الخير والشر
ولست ارغب الا ... ربا هو الله اكبر
ولست الاه أرجو ... ولست الاه احذر
واعظم الناس عندي ... من ينفع الناس اكثر

اذا انتخبتم فجدوا ... واحسنوا الانتخابا
لا تؤمنوا بالدعايات ... واطرحوها ترابا
جيئوا بكل اصيل ... وجنبوها الذئابا
وابعدوا الانتهازي ... او اميطوا النقابا
فان بعثتم الى ... حاكم البلاد خطابا
فلا يكن فيه الا ... رأيا جريئا صوابا

وانه ليؤسفني وقد قدمت قصائد علي نور الاربع بمقدماتها التاريخية كما سجلها بنفسه تحت الحاح مني ان ينتهي تسجيله عندها ولا يجد فرصة من وقته ليكتب بقية شعره ــ وهو كثير ــ وكله مرتبط بالمواقف التاريخية قبيل الاستقلال وبعده ... ولقد حاولت من جانبي ان اعثر على بعض شعره من بعض أهله وأصدقائه ولم أوفق، رحمه الله رحمة واسعة.

علي الجارم في السودان وشعراؤنا

الزمان يوليو ١٩٣٧ تلك الفترة التي أولع فيها المثقفون بالادب فأقاموا له المهرجانات واحتفوا به في أنديتهم فقل أن يخلو ناد منها من جمعية أدبية تلقى بها الاشعار وتقام المناظرات والمحاضرات وتجد اهتماما بالغا من الناس •

وكان أدباء مصر ــ شعراء وكتابا ــ قادة ذلك الجيل ينهلون من معين آدبهم وثقافاتهم ويشيعون لهم ويروون أشعارهم ويختلفون حولها مثلما يختلف حولها الادباء هناك فأنصار لشوقي وأنصار لحافظ ومطران ومتشيعون للعقاد يرون في شعره فتحا جديدا ويضجون ابتهاجا بقصيدته او ملحمته عن ــ الشيطان ــ •

فالادب شعرا أو نثرا ، والشعراء في المقدمة كان سمة تلك الفترة الظاهرة ، وكان المثقفون أيضا يتشيعون في السياسة للاحزاب المصرية وكانت أغلبيتهم تتأثر بحزب الوفد المصري الذي كان يمثل التيار المصري الثوري ضد الانجليز وكان يقبلون على الصحافة المصرية في نهم بكل ألوانها السياسية والثقافية وكانت بمثابة النافذة التي يطلون منها على ما يجري في العالم من حولهم وخاصة الثورات المشتعلة ضد الاستعمار فيتابعونها باهتمام فائق •

وكان الانجليز تحقيقا لسياستهم الرامية الى اضعاف الصلات بين

القطرين قد قطعوا منذ عام ١٩٢٤ متذرعين بأحداث ذلك العام كل صلة رسمية قائمة.فأخرج الجيش والموظفون المصريون وأبدوا غضبهم ومقتهم سافرا على كل سوداني يتشيع سياسيا لمصر . ولكنهم لم يستطيعوا أن يقطعوا تلك الوشيجة الخالدة في اللغة ، ولهذا كان التيجاني يوسف بشير صادقا كل الصدق عندما قال يخاطب مصر :

وشجي من علائق الادب البـاقي ولا تحفلي بأشياء أخـرى

ولكن الانجليز لسبب ما رأوا أن يعيدوا الصـلات الرسمية الى ما كانت عليه قبـل عام ١٩٢٤ ودخلـوا في مفاوضات مع مصطفى النحاس رئيس الحكومة المصرية آنذاك ورئيس حزب الاغلبية ـ الوفد المصري ـ أسفرت عن معاهدة ١٩٣١ المعروفة والتي أعيـد بسببها الجيش المصري للسودان وخلقت بعض وظائف كبرى لحفنة قليلة جـدا من المصريين . ومهما يكن فقد تهلل السودانيون لزوال ذلك الحاجز الرسمي وان كانت المعاهدة قد حفزتهم ليفكروا جديا في كيف يستغلونها لمصلحتهـم . وفي هذا الجو الذي هلت فيه بوادر زوال الحواجز الرسمية دعت حكومـة السودان الشاعر المصري الكبير علي بك الجـارم ليزور كليـة غردون التذكارية ويرى دروس اللغة العربية فيها ويقدم تقريرا عن الطريقة المثلى لفتح كلية للآداب في الخرطوم وعلي الجارم كان من كبار رجالات التربية والتعليم في القاهرة وكان شقيقه المرحوم محمد نعمان الجارم يملأ منصب قاضي القضاة في السودان وهو منصب ظل الى ما قبيل الاستقلال محتكرا للقضاة والعلماء المصريين وحدهم .

وجاء علي الجارم الى الخرطوم فأحدث وصولـه دويا في الاوساط الادبية اذ كان من الشعـراء الذين رشحـوا في دولة الشعر لخلافة أمير الشعراء احمد شوقي بعد وفاته وكان خليقا به أن يخلف ـ شوقي ـ لولا ان شوقي ـ قد حلق في آفاق عجز الشعراء من أن يرقوا اليها .

وكان في العاصمة أيضا عندما وصل الشاعر الكبير علي الجارم وكيل وزارة الحربية المصرية ابراهيم باشا خيري ولعله ـ على ما أذكر ـ قد جاء ليمهد لعودة الجيش المصري تنفيذا لاتفاقية ١٩٣٦ أو ربما جاء لشيء يتعلق بثكنات الجيش المصري السابقة قبل رحيله عام ١٩٢٤ مهما يكن من أمر حضوره فقد هل موعد عيد جلوس الملك فاروق وابراهيم باشا خيري هنا والشاعر الجارم هنا ولم يكن خير من ان يدعو الباشا للاحتفاء بجلوس فاروق وأن يقول الجارم شعرا تهتز له محافل الادباء في السودان.

وفاروق في ذلك العهد كان بشبابه وحيويته أملا من آمال الشرق كله عقدت عليه الآمال والحناجر ، وتطلعت اليه الانظار والقلوب ولم يكن الاحتفاء بأعياده ملقا أو تمسحا بالاعتاب ولكنه كان تعبيرا عن آمال صادقة تعلقت به أن يكون من شبابه وحيويته ما يهيمنه لانتفاضة تحرر وادي النيل من مغتصبيه وتبعث في الشرق كله وقدة التحرر والانعتاق وأقام ابراهيم باشا خيري الحفل في الفندق الكبير وكان لا يدخله السودانيون الا في ندرة وقلة ودعا اليه النخبة والصفوة من كبار البريطانيين ورجال الجاليات الاجنبية ومن بلغت بهم مكاناتهم من السودانيين مستويات مثل هذا الحفل .

ووقف علي الجارم يلقي قصيدته . لم نسمعه بالطبع في ذلك المكان وأين نحن من حفل كهذا يقام في الجراند أوتيل ولكنا سمعناه فيما بعد عندما دعي الى نادي الخريجين بأم درمان .

وان له طريقة فذة في الالقاء جذابة الى أبعد مدى انك لا تمل سماعه أبدا ولو ألقى بيت الشعر اكثر من مرة ... ان كل من استمع الى القائه لن ينساه مطلقا وسيظل عالقا بسمعه لا يزول ولم نعجب عندما علمنا ان احمد شوقي كان يكل اليه القاء شعره في المناسبات . ووقف الجارم في ذلك الحفل في الجراند أوتيل ينشد :

عيد الجلى صدقت وعدك ... بالمنى وصدقت وعدي
علمت طير الواديين ... فغردت بحنين وجدي
ونظمت فيك فرائدا ... كانت لجيدك خير عقد
الشعر يبدي فيك ... زينته ، ووجه الروض يبدي
نثر الربيع بك الورود ... نضيده ونثرت وردي
ووشى البرود من الازا ... هد واتقى لك خير برد
فيه الرياض تبرجت ... وثنين من جيد وقد
كم من عيون غضة ... فيها ومن ثر وخد
وجرى النسيم مضمخ الا ... ردان من مسك وند
عيد الجلوس وكم حوت ... ذكراك من عز ومجد
أصبت وحدك في الزمان ... وأين ان لم تلف عندي
صاغت سوائره لهم ... تاجين من مجد وخلد
ولرب قافية بها ... ما شئت من خيل وجند
تسري فلا صعب ... لها ولها بعد ببعد
تثب الجبال وما لها ... بين الكواكب من مصد
الشعر زند للقوى ... وعدة للمستعد

ويلتفت الجارم ليحيي ــ فاروقا ــ تحية الامل المشرق ويرتفع به الى سماء المجد المرجو وواها لفاروق والف واه ... ماذا أضاع من مجد وهدم من بناء

فاروق يا اس الرجاء ... وملتقى الركن الاسد
جملت بالقول السديد ... وساطع الرأي الاسد
وهبت لك الدنيا مفاتح ... مجدها من غير رد
وضممت برد شبابك الزا ... هي على جد وجد
خلق كأزراء النسيم ... تفتحت عن نفح وند
وعزيمة لو لاطمت ... أحدا مضت أيا أحد

ظهـرت مــن حلف الزعيــم عنفـــــوان المستبـــــد
تجــري على سنــن المهيمــن بـــين ايمـــان ورشــد
مــن ســار في نــور الالــه سعــى اليــه من كل قصــد

ويستحث الشاعر فاروقا للمجد ويحدثه عن مصر البطولة... وهيهات لقد سلك فاروق غير طريق المجد ودفع الثمن غاليا

المجـد وهو منــى الحيــاة أعـــد للبطـــل المجـــد
حسنـــاء دون مجـابهـا وصـــدان من هجــو وصــد
تقـف العيــون حيـالهـا حــيرى علــى شغف وسهــد
مهــر البطولــة مــا أجـل فمــن يــوفــي أو يــؤدي
لا تبــك ان عــز السبيــل فــان نوحــك غــير مجـد
واعمــل بجهدك ما استطعت فلــن تفــوز بغــير جهــد
ــ فاروق ــ فــرد في الجلال يجـل عــن وصــف وحــد
العبقريــة ان تخلــق للنجوم بــغــير نــــد
وتنــال قسرا من فــم الــد نيــا حــلاوة كــل حمــد

ويلتفت الشاعر الى بلادنا والى ما لقي من بنيها من ترحاب وكــرم فيخصها بهذا الشعر السلس العذب :

انــي نزلــت بجــيرة سحــل
علــى النجـــدات حشــد

أنسيــت أهلــي بينهـــم
وسلــوت أخوانــي وولــدي

الضيــف فــي ساحتهــم
يجتــاز مــن رفــد لرفــد

عقــدوا خناصرهــم عــلى
صــدق الوفــاء أشد عقــد

ومضـت أواصرنـا تمـــد
الـى العروبـة خـير مـد

ونشرت جريدة « النيل » في اليوم التالي القصيدة كاملة وتناقلهـا الادباء في شغف ورددوا أبياتهـا في عجب واعجاب ولم يكن ندري اننا سنفاجأ في الغد وفي نفس الجريدة بخريدة لشاعرنا الملهم ومداحنا الفرد احمد محمد صالح وقد استهواه شعر الجارم وسحر الشعر يصدى وكان استاذنا احمد آنذاك ناظرا لمدرسة الخرطوم الاميرية وبينه وبين شقيق الشاعر فضيلة الاستاذ الجارم قاضي القضاة مودة وصداقة ويكاد قاضي القضاة يمر يوميا على استاذنا احمد في مدرسته يأتنس بحديثه قبل ان يذهب الى مكتبه فلما جاء شقيقه الشاعر علي الجارم عرّفه باستاذنا احمد وتوثقت بينهما الصلات وكلاهما شاعر موهوب . ومع هذه الصلات فان استاذنا احمد لم يكن من بين الذين دعوا لحفل عيد الجلوس في الجراند أوتيل وكان قد قرأ قصيدة الجارم قبل نشرها عند صديقه المرحوم الاستاذ حاج الامين في جريدة « النيل » ففعلت في نفسه فعل البابلي وفي سويعات كان قد انتهى من قصيدته التي ضمتها مشاعره وفي اليوم التالي تلقى عشاق الادب على صفحات جريدة « النيل » بخريدة شاعرنا الملهم واحتفت بها محافلهم وشجر النقاش أي القصيدتين حاز قصب السبق ومن تلك الفترة ينسى فينوس ـ احمد ـ الملهم :

أخلفت يا حسناء وعـدي وجفوتني ومنعت رغـدي
فينوس ـ يا رمز الجمال ومتعة الايـام عنـدي
لمـا جلـوك على المـلأ وتخيروا الخطاب بعـدي
هرعـوا اليـك جماعـة وبقيت مثل السيف وحدي
استنجز الوعـد النسيم وأسأل الركبات جهـدي
يا من رأى الحسناء تخطر فـي ثيـاب اللازورد
لو كان زنـدي واديـا لقيتهـم كفـي وزنـدي

أو كان لـي ذهب العـز لاحسنوا صلتـي وودي
لمـا تنكـر ودهـم جازيتهـم صـدا بصـد
هذي البراعـة في يـد لو شئـت كانت حـد
لو شئت سالت علقمـا سما يـرى عند التحدي
فـاذا رضيـت فانهـا سعـدا مصفى أي سعـد
لـي من بيانـي صـارم وكتـائب العزمات جندي
حسنـاء ليس أبوك بـا لرجل التحيـل المستبـد
حجبوا سنـاك وما دروا ان الكواكب ذات وقـد
لمـا طلعـت على شباب القطـر في يمن وسعـد
وتضوع الوادي وفـاح شذاك مـن عطـر ونـد
وبـدت معاني السحر في كل العقول فليس تبـدي
رفعـوا العمار وهللـوا وأتوك وفـدا اثر وفـد
نهلـوا وعلوا من جمالك فاستطابـوا خير ورد

ويلتفت استاذنا أحمد الى الجارم ويحدثه بل يتحدث الى شباب ذلك العهد في كل مكان في بلاد العرب ، كأنما هو يستوحي أحداث اليـوم تحدث حديثا سما فيه وارتفع فأثار الحمية في النفوس وهز المشاعر :

ملك القريض ووارث الـ ـمجـد المؤثل مـن مصر
غـرد كما شاء البيـان محدثـا عن خـير عصر
أيـام كان لواؤنا الجبار مـن تـل لـوهـد
وأذكر لنا عهد الجـدود وصف لنـا أيـام أحـد
في القادسية يـوم سـار النصر مـن بنـد لبنـد
قلـب صحائف مجدنـا مـن غـور لنجـد
يا وارث الادب التليـد ويا ابن الادب الاجـد
علـم شبـاب الواديين خلائـق الرجـل الاشد
علمهـم أن الخنـوع مذلـة والجبن يـردي
علمهـم أن العقـول تحـررت من كـل قيـد

علمهم أن الحياة تسير في جزر ومد
علمهم أن التمسح بالفرنجة غير مجدي
وأبن لهم أن العروبة ركن اعزاز ومجد

شعر قوي حي يشعل النار في النفوس تلقفه الشيوخ والشباب وحفظوه عن ظهر قلب وخاصة الابيات التي تحدث فيها عن رسالة الشباب وواجبهم وان التمسح بالفرنجة غير مجد وأن الخنوع مذلة والجبن يردي وأن العقول قد تحررت وان العروبة ركن اعزاز ومجد • ويختم شاعرنا قصيدته الرائعة بأبيات يوجهها لفاروق الذي كان أملا عريضا لم يتحقق لان فاروق قد أضاع فرصته في المجد ولان ترداد الحديث وتصوير أمل الناس فيه في تلك الفترة مؤلم ومحزن ، ومن تصاديف القدر أن نذكر أنه في حفل ابراهيم باشا خيري في الجراند أوتيل الذي ألقى فيه الجارم قصيدته هذه كان من بين الجلوس المحتفين بعيد الجلوس البكباشي محمد نجيب الذي جاء مع ابراهيم خيري للخرطوم • ومن كان يدري في تلك اللحظات وفاروق ملك القلوب وموطن الامل وموحي الشعراء ان يكون هذا الضابط الصغير على رأس القوة الثائرة التي أطاحت بعرش فاروق بعد تلك الجلسة بنحو عشرين عاما ولكنها الاقدار •••

ان الشعر الجيد لا تخبو جذوته ولا تنطفىء جدته وان زالت مناسبته ولقد حكمنا لشاعرنا أحمد يوم ذاك عن غير هوى أو تعصب انه بز الجارم في قصيدته وقد عدت للقصيدتين اليوم في هدوء ، فوجدتني ما أزال عند رأيي • أتراني ما زلت متأثرا بشعري القديم أو هو الحق ولا شيء غير الحق ؟!

وكانت أيام الشاعر الكبير علي الجارم التي قضاها معنا في الخرطوم في شهر مايو ١٩٣٧ أعيادا للشعر الذي ــ كما ذكرت ــ كان السمة الغالبة على مجتمع المثقفين آنذاك فما منهم الا شاعرا او غاو للشعر ، الا قلة نادرة •

وان كان حفل عيد جلوس فاروق الذي أقامه ابراهيم باشا خيري في الجراند أوتيل وكان من بين شهوده البكباشي محمد نجيب قد أهدانا رائعتي الجارم وأحمد محمد صالح فقد أهدانا حفل كلية غردون تكريما للجارم عدة قصائد لاساتذة اللغة العربية في الكليــة ، أولئك الاساتذة الذين جاء الجارم ليتعرف الى مدى ما قدموه لأم اللغات من جهود وليقرر على ضوء ذلك كيف تقوم كلية الآداب في الخرطوم كنواة للمدارس العليا التي تتالى قيامها بعد كلية الآداب حتى بلغت بحمد الله المستوى الجامعي الحالي .

وكان لا بد ان تكرم الكلية ضيفها وان تسمع في هذا التكريم شعرا جيدا رصينا وقد كانت تضم عددا من أعلام الشعراء في ذلك الحين وقد تطلعنا الى سماع صوت شاعرنا الكبير الاستاذ عبد الله محمد عمر البنا وكان من بين أساتذة الكلية ومن بين شعراء حفلها للجــارم . واحتشد المدعوون في رحاب الكلية يتوسطهم المحتفى به علي الجارم الذي ظل في هذا الحفل مستمعا لشعرائنا دون أن ينشد شيئا من شعره .

واختار البنا لقصيدته نفس الروي والقافية لقصيدتي الجارم وأحمد محمد صالح ، وتطلعت اليه الانظار عندما بدأ يتلو قصيدته التي استهلها بتحية الشاعر الذي جاءت زيارته في شهر مايو حيث يشتد وقد الحرارة (الصيف) عندنا وكان صيفا قائظا وجد فيه الشاعر مادة ليجعل من زيارة الجارم نسيما عليلا روّح عن الناس وقد الصيف :

ملك البيان قدوم سعــد   أهلا بعهدك خــير عهــد
زرت البــلاد وحــرهــا   يــزداد من وقد لوقــد
فنزلــت بــين ربوعهــا   مثل الغمام بغـير رعـد
فتنسمــت نفس النسيــم   ورَوحت مــن غير وعـد
ونقلــت مــصر وأهلهــا   بجميل وجهك فأل سعــد

أهلا بمبسمك الجميـل	وخلاقك المـرح الاشـد
وبوجه سدتـك الكريم	ورأيـك الحسم الاسـد

ويلتفت البنا الى الوشيحة الخالـدة ـ النيل ـ فـيرى فيه (حق القرابة) بين البلدين الشقيقين ولا يملك الا ان يشيد بهذا النيل الخالد وخضرة شطه وعرف نسيمه الفواح :

النيـل وهـو عـذوبـة	تجـري بمرحمة ... وود
حـق القرابـة بيننـا	وأخو الكرامة غير حـد
نرتـاد خـضرة شطـه	ونجل واديـه ونغـدي
ونشم عـرف نسيمـه	معنى الحياة بماء ... ورد

ويعود مرة أخرى الى الجارم ليثني على خريدته التي ألقاها بالامس في عيد الجلوس وشغلت مجتمعات الادب ، ويقول انها أعدته بسحرهـا وسحر الشعر يعدي :

أعليُّ يا ملـك البيـان	ومـا لذلك مـن مـرد
الشعر قلـت هو الفرند	فخذ نصيبك من فرنـدي
قلـدت نابغـة البيـان	ورمـت باقعـة التحدي
أو كالمنار على البحـار	يضيء مرتفعـا ويصـدي
أنشـدت أمس خريـدة	تاهـت بسالفـة وخـد
قنصـت حبائلك الحسان	فصدتهنَّ وأي صيـد
ونفثته سحرا فأعدانـي	وسحر الشعـر يعـدي
يا مـن تصـدى للعـلا	وعن الحمى دفع التصدي
هـذا علـيُّ قـائمـا	متألقـا يشدو ويسـدي
ألبست بـرد كرامة منـه	فضـاق علـيَّ بـردي
ورشفـت مـن كلماتـه	حبب الكـلام نظيم عقد
وقطعت في الخرطوم ما ..	غرس الألى برياض نجـد
وسمعت مـن نبراتـه	هزج الحمام فذاب رشدي
سكر الرفـاق وأقلعـوا	وحزت سكر الدهر وحدي

وهل يمكن لشعرائنا في ذلك العهد أن ينظموا شعرا دون أن يلتفتوا فيه الى العروبة وأمجاد العرب ولغة العروبة وأن يثيروا في طريقها حماس الشباب ، وكما فعل أحمد محمد صالح في قصيدته ، يفعل البنا لا عن تأثر ببعض بل لعمق ايمانهم وأصالة عقيدتهم في هذه العروبة .

قل للشبيبة جددي ... أمل البلاد بأن تجدي
وتلغني اللغة التي ... خلقت لمكرمة وخلد
لغة العروبة انها ... لبني العروبة خير حد
نزل الكتاب بنهجها ... وتألقت بسنا معد

ويختتم البنا قصيدته بأن عقد لواء الشعر للجارم ورضي أن يكونوا جنودا تحت هذا اللواء

ملك البيان لك الرضا ... من كل مكرمة ومجد
خذ من قريضك ضوءه ... أرجو لضوئك كل مجد
وانشر لواءك وابتهج ... انا وراءك خير جند

في هذا الحفل أيضا يقف أستاذنا الوقور الشيخ مجذوب جلال الدين، (والد الشاعر محمد المهدي مجذوب) ، ليلقي تحية للجارم ولكنه لا يسير على نهج سابقيه من حيث التأثر بقصيدة الجارم في الروي والقافية وانك لتحس في مستهل أبياته بذلك الشوق الدافق الذي يعرفه كل من ساير ذلك العهد شوق الرعيل الاول من اساتذتهم المصريين الذين تلقوا على أيديهم العلم والمعرفة وبصروهم بدقائق اللغة العربية وطافوا بهم على روائعها المنظومة المنثورة فتعلقوا بهم تعلقهم بهذه اللغة ، واستاذنا مجذوب جلال الدين يرى في زيارة الجارم ، صورة من ذلك العهد الحبيب عهد اساتذته المصريين الذين نهلوا وعلوا من فيض علمهم الغزير . واستاذنا المجذوب شاعر مقل ولكنه يجود شعره ويصقله وكنا قد حفظنا له من عهد بعيد بعض أشعاره الرقيقة في المجموعة التي اختارها سعد ميخائيل في كتابه « شعراء السودان » في منتصف العشرينات وما زلنا نتذوق في اعجاب قصيدته التي يقول في مستهلها :

مَلَكَ النُّهى والمُلْكَ بعض صفاته
رشأ أغن يتيه بين لذاته

يستهل استاذنا قصيدته للجارم مبديا فرحته الطاغية بعودة الشقيق الى أوطانه ، ومعبرا عن حنينه الى عهد أساتذته المصريين الذين تلقوا عليهم علوم اللغة والدين عند بدء التحاقهم بكلية غردون كطلبة :

أتيح الصفاء لاخوانه ... فعاد الشقيق لاوطانه
ولاق المحب حبيبنا ونلنا ... نعيم السرور بلقيانه
وجاشت صدور بزفراتها ... وفاض الفؤاد بتحنانه
وجاء الربيعان في موسم ... فغنى الهزار بألحانه
وخير الربيعين محيي النفوس ... ربيع القلوب بعرفانه

وكما قلت ان الشاعر يرى في الجارم أولئك الاساتذة الاجلاء تراه يذكر منهم استاذه المعروف « عبد الرؤوف سلام » الذي كان من أعلام اساتذة الكلية وأشدهم أثرا في نفوس تلاميذه :

أعدت لنا ذكريات مضت ... ـ بعبد الرؤوف ـ وأقرانه
بني الضاد أكبروا شأنه ... وحثوا على فهم فرقانه

وقد انفردت قصيدة استاذنا الجليل الشيخ مجذوب بهذا الجانب من الوفاء للاساتذة المصريين الذين أبعدوا عن التدريس في الكلية بعد ان تركوا أعمق الاثر في نفوس تلاميذهم الذين ورثوا عنهم حب هذه اللغة والتفاني في هذا الحب . وكان عميد الكلية ــ عندما ألقيت هذه القصيدة في حفل الجارم ــ المستر سكوت ، المستعرب المعروف كما كان من شهودها مدير المعارف الانجليزي وكبار أعوانه وكلهم انجليز وحشد كبير من الاساتذة والعلماء والمثقفين السودانيين .

وينفض الحفل وتصدر جريدة « النيل » اليومية حافلة به ، ويتناقله ــ كالعهد بهم ــ عشاق الادب ويثير بينهم نقاشا أدبيا ممتعا ، ولا يقف الاثر الادبي لزيارة الجارم عند الشعر الذي قيل في حفلات استقباله بل

فاضت الصحف في نشر كثير من شعر شعراء الشباب يقتنص كل منهم فرصة زيارة الشاعر الفحل ليحاول اظهار مقدرته على نظم الشعر .

وتطلع علينا مجلة « الفجر » لصاحبها المغفور له عرفات محمد عبدالله في عددها الصادر في يوم الاحد ١٦ مايو ١٩٣٧ فتحمل في بابها الاسبوعي آداب وفنون على هؤلاء المتشاعرين الذين ملأوا أعمدة الصحف بشعرهم عن الجارم وتحدد رسالة الشعر في وقت مبكر ، وتكملة لفائدة هذا العرض ، أنقل أهم ما جاء في « الفجر » في ذلك المقال :

... والذي دعانا الى هذا الحديث هو هذا الفيض من الشعر الذي امتلأت به أعمدة الصحف بمناسبة مقدم الشاعر المصري علي بك الجارم فكل من استقام له الوزن ساق القريض الى ملك القريض مادحا أو شاكيا وفيما يبدو لنا كانوا ينتظرون منه اصدار حكمه على مبلغ شاعريتهم . بل ربما انتظر البعض منهم أن يعطيه الجارم ـ ورقة براءة ـ كتلك التي يوزعها القسس أيام محاكم التفتيش أو ورقة حرية كالتي وزعتها حكومة السودان قبل سنوات على الارقاء الطالبين (الحرية) ! ولكن الجارم جامل الكل دون ان يعقد لواء الشعر لواحد من أولئك الشعر ودون أن يناول قصب السبق للفائز في حلبة البيان . والاستاذ الجارم من خيرة شعراء مصر وقد أنشد في عيد الجلوس لصاحب الجلالة الملك فاروق قصيدة كانت حديث الناس فلا تجد واحدا الا وهو يترنم ببيت أو بيتين من أبياتها العامرة ، والذي زاد القصيدة روعة وجلالا أنها قيلت في فاروق وأنشدها الجارم بصوته ذي النبرات المؤثرة وحركاته التمثيلية التي تشغل العين عن متابعة الاذن ، وهكذا يشغل حاسة النظر من ناحية وحاسة السمع من ناحية أخرى . ولا نريد التعليق على شاعرية الجارم فللناس في شعره آراء ونظرات .

وحسبنا أن نقول ان الجارم تفث شعره فأعدى شاعرين من شعرائنا هما البنا واحمد محمد صالح فنظم كل واحد منهما قصيدته على وزن

وروي وقافية قصيدة الجارم ... وقد أجاد الاثنان كل في موضوعه غير ان أغلبية محرري هذه المجلة لا يوافقون على هذا الطـراز من الشعر التقليدي ، شعر المدح والتباهي ، ذلك لانهم ينتمون الى مدرسة أدبيـة ترى ان خير الشعر ما ارتفع به صاحبـه من عبـادة الاشخاص وكرسه للافصاح عن خلجات النفوس وصوت الضمير ، والتعبير عن أماني شعب مغتصب الحقوق مهيف الجناح وتصوير المناظر الطبيعية وتسجيل التيارات الفكرية والاجتماعية ولهذا لزموا الصمت حين قام أعلام المدرسة التقليدية ينظمون قصائـد الترحيـب ويصوغون السوار (لاي كف بشرت بابن العميد وأي عبد كبرا) وها هم يهيبون بأعلام المدرسة التقليدية لينهجوا نهجهم ذاك وليساهموا بشعر لا يقوم على المناسبات ولكنه وليد الدرس والقصيدة وكم يكون سرورنا عظيما حين نسمع البنا يعالج بعض أدوائنا الاجتماعية في شعره الرصين وحين نسمع الاستاذ احمد محمد صالح ينشد بصوته الشجي نشيدنا القومي تدبجه يراعته الحرون .

اما هذا الشعر الذي درجـوا عليه نحو عشرين عاما فما قدموا ولا أخروا ، فخير منه السكوت ، ووالله بقدر ما كان سرورنا بجودة شاعرية الاستاذ احمد محمد صالح في قصيدته التي رفعها الى علي بك الجـارم بقدر ما كان ألمنا لصمته الطويل ولعدم أخـذه بناحية الخالد من الشعر الذي يخلد صاحبه وينعش أمته .

ونكتفي الآن بهذا التلميح وهذا التوجيـه ، فان لبى أعلام المدرسة التقليدية نداءنا وهبوا الى تزعم صفوفنا رحبنا بهم وان لم يلبوا النداء فلنا معهم غير هذا الشأن ونخشى أن تكون الحرب حامية الوطيس والنصر لا شك للحق والله المستعان .

الى هنا تنتهي كلمة « الفجر » أهديهـا للذين يزعمون اليـوم انهم يجأرون بحملة جديدة لتجديد مضمون الشعر ليكون معبرا صادقا عن خلجات الشعب وأمانيه وليحسبوا كم سنين مضت على هذا الحديث .

ليكشفوا سياسات الانجليز

لقد درج القسم السياسي او بالاحرى قسم « المخابرات » كما كانوا يسمونه على تتبع خطى كل سوداني ذي مكانة او خطر وتسجيل المعلومات الدقيقة عنه في « كرت » يعد له خصيصا ، وكان رجال هذا القسم يهتمون بتسجيل الجوانب الخاصة من سلوك الشخص المراقب ، مثل أيشرب الخمر ؟ أمقامر ؟ أم زير نساء ؟ أمصاب بالشذوذ الجنسي ؟ أهو محب للمال ويقبل الرشوة ؟ امتدين نظيف الخلق ؟ هذا بجانب تدوين لون نشاطه ومدى خطره أو أثره في وسطه الى آخر هذه المعلومات التي تكشف كشفا دقيقا عن كل جوانب الشخصية المعنية .

كانت هذه « الكروت » تعد عن كبار الشخصيات السودانية في كل قطاعات المجتمع من موظفين وزعماء عشائر ورجال دين ، وكان قسم المخابرات هذا يتتبع في دقة كل أولئك الذين يوضعون تحت المراقبة وكان يجند لهذا الغرض حشدا كبيرا من الموظفين والمأجورين الذين يتسللون خلال المجتمعات دون ان يعرفهم احد الا ما تكشفه الصدفة عن أمر بعضهم ، كما كان جميع الموظفين البريطانيين وخاصة الاداريين منهم مجندين لهذا القسم يعاونونه باخلاص كلما طلب منهم معلومات معينة عن بعض الاشخاص الذين يقعون في دائرة عملهم ... وبالاسف كان هناك موظفون سودانيون يعاونونهم في هذه المهمة الرديئة وكان اكثرهم معروفا .

كان رجال المخابرات في أول عهد الحكم والى فترة طويلــة قبل أن يقوى الوعي الوطني يوجهون أكثر اهتمامهم الى زعماء العشائر ورجال الدين وخاصة ذلك النوع من الفقهاء الذين يجوبون القرى والبوادي يجذبون اليهم السذج والبسطــاء وما اكثرهــم ... وكان مبعث هذا الاهتمام بهذا النوع من السودانيين ان الحكومة قابلت عدة ثورات عنيفة قادها هؤلاء الفقهاء باسم الدين ، ومن هؤلاء الثائر «السحيني» المعروف الذي احتل باتباعه مركز نيــالا في دارفور بأن قتــل عدد من الجنــود والموظفين كان منهم مفتش المركز الانجليزي وهنــاك آخرون قادوا عدة ثورات بعد ان زعم كل منهــم انه عيسى الموعــود ! ولما تحرك قطــاع الخريجين يقود الوعي الوطني وينشره وأنشأ مؤتمر الخريجين العام اتجه نشاط المخابرات نحو هذا القطاع وسلطت أضواءهــا عليه ... ولاول مرة تحتشد في قسم المخابرات « كروت » جديدة تحوي معلومات دقيقة عن عدد كبير من شبان الخريجين وكهولهم وهم يتجمعــون تحت راية المؤتمر حتى لا يؤخذ الحاكمون على غــرة وحتى لا يخرج المؤتمر عن الخط الذي يريده الحاكمون وقد كان لهم في صفوف الخريجين أعوان وأصدقاء ... بجانب هذا الجهــاز السري الدقيــق الذي كان يراقب ويسجل ويوجه الجهاز الاداري الحاكم في وعي ودقة أقول بجانب الاجهزة الحكومية السرية كانت هناك أجهزة سرية وطنية لا نظام لها ولا قيــادة ولا ترتبط ببعضها وقوامها بعض الكتبة (المترجمين) الذين كانوا يعملون بجانب الموظفين الانجليز يقومون بمعاونتهم في الاعمال الكتابية بالعربية والانجليزية الصادرة والــواردة وكانت ترد الى هؤلاء الانجليز رسائل خاصة من رؤسائهم يكتب على ظاهرها (سري جدا) وهذه كان محرما على الكتبة ان يفضوا غلافها وان يقرأوا ما بها بل تقدم للمسئول الانجليزي رأسا وكانت في مكاتبهم خزائن حديدية ضخمــة يودعونها هذه الرسائل بعض الاطــلاع عليها ، وفي عواصم المديريات حيث يقبع كبار المسئولين

الانجليز كان هناك موظف انجليزي هو الذي يتولى مسئولية الرسائل السرية في شدة الحرص عليها ولكن مع هذه الدقة في الاحتياط كان بعض الكتبة بواقع وطنيتهم الصادقة يحتالــون على الحصول علــى بعضهــا ويكشفون أسرار السياسة الانجليزية المودعة في تلك الخطابات .

هناك أمثلة كثيرة لوطنية هؤلاء الكتبة كان لها أبعد الاثر سأذكــر من بينها واقعتين فقط على سبيل المثــال ، فقد كان الانجليز كما نعلــم شديدي الغضب على الطلبة الذين هربــوا الى مصر يتعلموا فحاربوهم ومنعوا أهلهم من ارسال أي قدر من العون المادي اليهم بطريقة خلت من كل جانب انساني وسلطوا عليهم الباشوات حكــام مصر ليحرموهم من أدنى عون مادي يصل اليهم من المصريين فعاشوا في شظف وفقر وصمدوا للمحنة بشجاعة فذة حتى حققوا بغيتهم في التعليم العــالي وكان من بين القرارات التي أصدرها الانجليز في السودان الا يسمحوا لاي واحــد منهم بالعودة الى بلاده والعمل فيها ، كان من بين هؤلاء الطلبــة الذين هربوا الى مصر طالب ذكي مولع بأن يحصل على دراسات عليا في الادبين العربي والانجليزي نعرفه الآن جيدا وهو معاوية محمد نور الذي اجتاز امتحان القبول بكلية الطب في الخرطوم ولكن طموحه الثقافي جعله ينسل هاربا الى مصر وكان ينتمي الى أسرة (العمراب) التي كان منها بعض كبار الموظفين الذين لهم مكانات عاليــة في وظائف الحكومة واحترام في المجتمع وعند الانجليز فلحق به بعض أهله وأقنعــوه بعد محاولات لكي يلتحق بالجامعة الاميركية ببيروت حذرا من تنكيل الانجليز به كغيره من الهاربين الى مصر . والتحق بجامعة بيروت ثم عاد الى مصر يحمل ثقافــة عالية في اللغتين وكتب في صحفها ومجلاتها وفي صحيفة انجليزية تصدر في القاهرة وصارت له مكانة ثقافية محترمة ونال تقدير كبار المثقفين في مصر وكان أثيرا لدى المرحوم عباس محمود العقاد .

وعاد معاوية الى وطنــه في الثلاثينات وكان اول طالب مهاجر يعود

وأخذ بعض كبار رجال أسرته وهم كما أشرت مقاما واحتراما لدى الحكومة والمجتمع يحاولون ايجاد وظيفة حكومية له تتناسب ومؤهلاته الثقافية العالية وأخذ المسئولون من كبار الانجليز ينظرون الى هذا الموقف كسابقة قد تتلوها أمثالها من الطلبة المهاجرين العائدين فماذا يفعلون ؟ كان السكرتير الاداري المستر « نيوبولد » من دهاة المستعمرين فأراد أن يخرج بوضع عجيب وهو ان يعتبر كل طالب يعود اذا تم تعينه فيكون في مستوى خريج كلية غردون كأنه لم يتلق تعليما فوق ذلك وكتب مذكرة سرية ضمنها آراؤه في هذا الصدد مستغلا عودة معاوية محمد نور ليجعل منها أساسا لمن قد تعود به ظروف مماثلة للسودان مهما حصل من الدرجات العلمية فكأنه لم يزد على متخرج كلية غردون في مرتبه العادي . وبالطبع (رفض) معاوية هذا العرض واستطاع أقاربه بعد رضاء المسئولين ان يجدوا له منصبا في الغرفة التجارية في الخرطوم التي كان أكثر أعضاءها من التجار الاجانب . وبمرتب يزيد قليلا تقديرا لمكانة أسرته .

وذات يوم في الثلاثينات وصلت الخرطوم الصحافة المصرية ومن بينها جريدة « البلاغ » اليومية لسان حال حزب الوفد المصري الذي يمثل الى حد ما التيار الشعبي الثوري في مصر ومن هذا العدد من « البلاغ » نشرت ترجمة دقيقة للخطاب السري الذي أصدره المستر « نيوبولد » عن السياسة التي يجب ان تتخذها حكومة السودان حيال مستقبل كل طالب هرب للتعليم وعاد لوطنه ، وكانت فضيحة وضجة أذهلت الانجليز ولم يستطيعوا ان يعرفوا كيف تسرب هذا الخطاب السري جدا مترجما بدقة للعربية ونشر في جريدة « البلاغ » وحامت الشبهات حول بعض الموظفين السودانيين في مدينة (وادمدني) تمكنوا من هذه الفعلة بدافع وطنيتهم الصادقة .

عجز الانجليز عن توجيه الاتهام الى شخص او اشخاص معينين لفقدانهم الدليل على ذلك .

والمثل الثاني أسوقه من جوبا جنوب السودان حيث كان الموظفون البريطانيون يبذلون كل جهودهم لفصل الجنوب عن الشمال واسجل هنا رسالة توحي بكل التقدير والاعجاب تلقيتها من السيد اسماعيل عبد الرحيم حامد الذي كان يعمل مترجما هناك يحدثني عن الوطنيـــة الحقة لكاتب جنوبي من أبناء الدينكا اسمه عبد اللطيف مرسال نال حظا من التعليم وكان ضابطا في الجيش وتخلى عنه عندما اتجهت القوات العسكرية لحرب علي دينار في دارفور فسجن ونفي وبعد سنوات طويلة عطفت الحكومة عليه باعتباره من القلة الجنوبية التي نالت قدرا من التعليم وألحقوه كاتبا بمكتب مدير جوبا ..

ولا أحد يعرفه الآن او يذكره ممن عرفــوه ... وانا اجتري هذا الجانب الهام الذي يكشف عن عظم الدور الوطنـــي الذي كان يقوم به أولئك الافذاذ من الكتبة الابطال ، يقول السيد اسماعيل عبد الرحيم من بعض رسالته :

تكونت بجوبا جماعة سرية من الموظفين شماليين وجنوبيين وسمـــت نفسها جماعة الصداقة بين الشمال والجنوب ، وكان هدفها بث الدعاية سرا بين ابناء الجنوب وكشف اسرار السياسة الانجليزية لهم . وكان على رأس هذه الجماعة البطل المرحوم الملازم اول بالجيش السوداني سابقا ، والمترجم في الفترة التي اتحدث عنها عبد اللطيف مرسال ، يجدر بي قبل ان استرسل في الحديث ان اعرف القارىء من هو عبد اللطيف مرسال .

كان احد ضباط الحملة التي ارسلت الى دارفور لاخضاع المرحوم السلطان علي دينار ، وموقف السلطان علي دينار من الانجليز معروف .. ولما اقتربت الحملة الانجليزية في الفاشر ، أبت على الضابط الملازم اول عبد اللطيف مرسال نفسه الابية ان يحارب مواطنا شهر سيفه في وجـــه الانجليز فتمرد وانضم الى جيش علي دينار وحارب معه ، ووقع في الاسر، فأرسل سجينا الى رشيد بمصر ، وهناك امضى زمنا ليس بالقصير ، ثـــم

افرج عنه • بعد لاي عين مترجما بالمديرية الاستوائية لانه من قبيلة الدينكا بمركز التونج ، وحددت اقامته بجوبا لا يخرج منهـا الا باذن حتى في اجازته الاعتيادية • ولم يخفف السجن ولا تحديد الاقامة من غلواء بغضه وحدة حنقه على الانجليز واستمر يعمل ضدهم بكل ما يستطيع حتى وافاه الاجل المحتوم •

ومن تخطيط بارع ـ وهو يشغل منصب مترجم رئاسة المديرية طلب المرحوم عبد اللطيف من رؤسائه الانجليز ان يسمحوا له بابتداء عـمله المكتبي في الصباح الباكر كما تعود ان يفعل ايام خدمته في الجيش فاذنوا له ـ وكان يرمي من وراء ذلك أن يدرأ عن نفسه الشبهات اولا اذا مـا توالى حضوره للمكتب قبل توقيت بدء العمل ـ ثانيا ـ الى تنفيذ خطته في كشف الاسرار الانجليزية وذلك (توليفه) لعدة مفاتيح لفتح مكتب مدير الاستوائية ونائبه ومفتش الرئاسة والكاتب السري للمديرية ، وطبعا كلهم انجليز •

كانت طريقته ان يفتح هذه المكاتب في وقت مبكر ، ويجمع من كل الاوراق الملقاة على سلال المهملات ، ويفرغها في ادراجه ، ثم يضع مكانها اوراقا من عنده مزيفة ، ويعيد السلال الى مكانها حتى يوهم المراسلة المسؤول عن النظافة بأنها مخلفات الرؤساء •

بعد ذلك يبتدىء في فحصها بدقة وعناية فائقة ، فاذا ما وجد شيئـا هاما اسرع الى رفاقه واطلعهم عليها ، وكانت طريقته ان يقوم بزيارتهـم زيارة خاطفة كل في منزله دون تجمع ويسر اليه بما عثر عليه •

وفي طريف ما اذكر ان كنا نشاهد المستر شو الكاتب السري للمديرية يحرق هذه الاوراق المزيفة بنفسه بعد حضوره للمكتب امعانا في الحرص!

ولم يخطر بباله قط مرة واحدة ان الاوراق التي يحرقها يوميا لا تمت بأدنى صلة للاوراق التي القاها بالامس في هذه السلة .

ومن اساليب المرحوم السيد عبد اللطيف التي اتخذها للحصول على المعلومات السرية من الكاتب السري المستر شو ، اذ كان كلما دخل سرا الى مكتبه في الصباح الباكر قام بتغيير الكربون بكربون جديد حتى يسهل قراءة ما به في اليوم التالي وهكذا يسحب كل صباح الكربـون الذي وضعه بالامس ليقرأه ويضع آخر جديدا بديلا له دون ان يفطن المستر شو الى ذلك لانه يستبعد دخول اي شخص لمكتبه في غيبته !

وهناك اسلوب آخر كان يستعمله في ظروف خاصة وذلك عندما يكون الخطاب السري غير محكم القفل اذ كان يستعمل « المقشط » المحمـى بالنار قليلا حتى لا يحرق الظرف فيفتحه ويقرأه ثم يعيد قفله بدون كسر الختم بعد الاطلاع على محتوياته !

في تلك الفترة كان مدير الاستوائية يسمى المستر بار وقد اشتهـر بعدائه البالغ للشماليين وامعانه في الاساءة اليهم كلما وجد الى ذلك سبيلا ومن المؤمنين بوجوب فصل الجنوب ، العاملين لذلك بكل جهودهم وله في ذلك مواقف بالغة السوء . وبالرغم منه ولظروف سياسية اقوى منه أقيم بناء جامع جوبا الذي لا يعرف قصته الكثير من ابناء الجيل الحاضر وكان المستر بار يحاول جهده محاربة الجامع حتى بعد قيامه .

وفي احد الايام التقط عبد اللطيف مسودة خطاب سري كتبها المستر بار الى السكرتير الاداري والسكرتير القضائي يخبرهما فيه عن عزمـه ــ بعد التصديق منهما ــ على نزع ملكية قطعة الارض التي خصصت لبناء وقف الجامع ، واعطائها لاحد التجار الاغريق بحجة ان لجنة الجامع بجوبا

مفلسة ولا يمكنها بناء الوقف في الوقت الحاضر ويمكن اعطاؤها قطعة اخرى في المستقبل متى ما توفر لها المال لبناء الوقف . واسرع عبداللطيف ونقل هذا الخبر لجماعته ، ولما كانوا يعرفون جيدا ان الاراضي بمنطقة السوق محدودة ، فان هذا العمل ما هو الا نوع من الكيد الذي يوجهه المستر بار لجامع جوبا الذي شيد ضد ارادته بعد المظاهرات الضخمة في مصر والسودان .

اجتمع الرفاق ويحسن بي هنا ان احدد اسماؤهم فان ذلك ملك للتاريخ بعد هذا ، وهم السادة صادق أونسه الموظف بالجمارك ، عبدالحميد العتباني الموظف بالزراعة ، عبد الباقي محمد الذي كان يعمل بالمطار ، عبد اللطيف مرسال ، محمد السيد النجار الموظف بالجمارك ، اسماعيل عبد الرحيم حامد الكاتب بالمديرية .

اجتمع هؤلاء في منزل احدهم وتدارسوا الموقف من جميع نواحيه فرأوا ان خير ما يفعلونه ان ينتدبوا احدهم ليسافر الى مصر ليحمل رسالة منهم بتفاصيل الموقف الى المرحوم الشيخ سماعه امام جامع جوبا المنتدب من قبل مصر ، ليقوم بدوره بالاتصال بالمرحوم الامير عمر طوسون الذي كانت له اليد الطولى في قيام هذا الجامع .

ووقع الاختيار على السيد محمد السيد النجار لانه موظف في الجمارك ولن يفتشه زملاؤه في حلفا ، وذلك حرصا منا على تسليم الرسالة الهامة باليد والتحدث في شأنها مع الشيخ سماعه .. ولكن كيف نحصل على اجازة له ؟ والسفر الى مصر فيه ما فيه ولم تطل حيرتنا فقد كان حكيمباش المستشفى الدكتور علي خير (شقيق الاستاذ أحمد خير) رجلا نعرفه بصدق الوطنية والرجولة ، وهو أخ وصديق لنا جميعا ونطمئن اليه ،

فقررنا أن نكشف له كل شيء وان نطلب منه منح محمد السيد النجار اجازة مرضية ليتمكن من السفر لمصر ٠

ولم يتردد الدكتور علي خير لحظة في تنفيذ مطلبنا ، وقرر ان يمنحه اجازة مرضية ، ونفذ قراره دون تردد ، ولم يكن هناك ما يريب في الامر ٠٠ وسافر النجار الى مصر ومن حسن الصدف ان وجد الشيخ سماعة ملبيا دعوة للغداء عند الامير طوسون ، فأسرع اليه في دار الامير وطلب لقاءه وسلمه الرسالة الخطيرة ، فأمر عمر طوسون في نفس الوقت بتحويل الف جنيه من ماله الخاص الى لجنة جامع جوبا لتبدأ في بناء الوقف ، كما أمر سكرتيره ان يدعو الجمعية الزراعية في ذات المساء ويعرض عليها الامر لتتبرع بألف جنيه أخرى ، وحدث ذلك فعلا ٠ وفي اليوم التالي لوصول مندوبنا ، وصلت الى جوبا التلغرافات بهذه المبالغ الى لجنة الجامع ووضعت في لوحة اعلانات نادي جوبا ليصل خبرها للمدير عن طريق عيونه المنبثة بجوبا ٠٠ فأسقط في يده ، ولم يدر كيف تم هذا ٠

وبعد يومين جاءنا المرحوم عبد اللطيف ووجهه يتهلل فرحا ، فقد حصل بطرقه السرية التي حذقها على مسودة خطاب المدير المستر بار للسكرتير الاداري والسكرتير القضائي يلغي خطابه السابق بطلب مصادرة أرض وقف الجامع بجوبا لزوال السبب ٠

وبث المدير عيونه ليعرف كيف تسرب الخبر الى مصر ، ولكن الرفاق كانوا يعرفون اولئك العيون فلم يتركوا لهم ثغرة صغيرة لينفذون منها لمعرفة الحقيقة ٠

وما اكثر امثال هذه النماذج لو اردنا ان نعددها وقد خصصنا الكتبة لانهم كانوا بحكم وضعهم من الصق الموظفين السودانيين بذوي السلطة

من الانجليز وقد كان آخرون من بين من كانوا يعملون في السلك الاداري والبوليس يسرون الى خاصة أصدقائهم العاملين في الحركة الوطنية بالاسرار التي يحصلون عليها درءا لخطرها .

رحم الله عبد اللطيف مرسال واخوانه العاملين لوطنهم في صدق دون تطلع للمباهاة والتفاخر بما فعلوا .

لماذا لم يعترض عليه الانجليز ؟

مؤتمر الخريجين ... نقطة الابتداء للحركة الوطنية للمثقفين المتصلة الحلقات حتى تم تحرير البلاد واستقلالها فمنه انبعثت اليقظة والوعي الوطني بما قام به في توعية وطنية اتسع نطاقها فأصبح الشعب مهيأ لمنازلة الاستعمار لتحقيق حريته .

كيف نشأ المؤتمر ولماذا لم يعترض عليه الانجليز ؟ ذلك ما سأسجله هنا . ولنبدأ القصة من أولها .

كانت النهضة الادبية الطابع المميز لفترة الثلاثينات ، بدأت أولا كجمعيات قراءة في المنازل اشتهرت بها مدينة أم درمان ثم انتقلت الى الاندية القائمة في أنحاء عديدة من البلاد وأصبح من المألوف ان تكون هناك جمعية أدبية في كل نادي او اكثر الاندية في تلك الفترة ، وفي عام ١٩٣٦م أبرمت معاهدة بين انجلترا ومصر كان نصيب السودان منها ان يكون للسودانيين الفرصة الاولى في الوظائف الحكومية متى وجد من يحمل مؤهلاتها فان لم يوجد سد الفراغ من حاملي المؤهل من مصر او انجلترا وكانت كلية غردون وهي مدرسة ثانوية كل حظ السودانيين من المؤهل التعليمي فأحدث ذلك الاتفاق يقظة بين الخريجين ودعاهم

للتفكير في ايجاد وسيلة لالتقائهم ووحدتهم وظهرت على صفحات جريدة « السودان » الوطنية التي كانت تصدر في الخرطوم لصاحبها ورئيس تحريرها المرحوم الاستاذ عبد الرحمن احمـــد ، ظهرت عدة مقالات من بعض الخريجين تدعــو الى وحدة الخريجين دون تحديد للطريق الذي يحقق هذه الوحدة .

وكانت تقوم في نادي مدني جمعية أدبية تجمع نخبة من المثقفين فرأت ــ بعد توقيع تلك المعاهدة ــ ان تقوم بدراسات مختلفـــة تحت عنوان « واجبنا بعد المعاهدة » وكان من نصيب الاستاذ أحمد خير أن يكون موضوعه « واجبنا السياسي بعد المعاهدة » فألقى في اجتماع عام للجمعية هذه الكلمة التاريخية التي أثبتها هنا بنصها لاسباب سأذكرها فيما بعد :

سادتـــي

للحديث شجونه وكثيرا ما أفضت شجون الحديث الى طيات الضمائر وأسرار الجوانح فكشفت عن استارها وأزاحت للسامعين والمستكشفين حجبها والمجتمع كالافراد له غريزته وله ميوله وبأحاديث المجالس وصدى الاندية تبين اتجاهاته ومقاصده . وفي تعرض أعضـــاء هذه الشعبة من شعب النادي لهذا الضرب من المباحث وتصديهـــا لهذا اللون من ألوان الكلام دليل على ان مزاج الجمهور السامع قد تحول وانتقل وجعل يعرض عن كل ما لا يمت الى جوهر حياته بسبب أو يتصل بها عن قريب وكثب وليت شعري مرجع هذا التحول وذلك الانتقـــال والتطور الى دعايـــة المثقفين وجهاد المرشدين من رجال الجيل المتقدم الاعلى ما زالوا من عهد (الرائد) الى (عهد الحضارة) يهمسون في أذن الشعب بحديث الوطن والوطنية وينغمون في طول البلاد وعرضها على أوتار القوميـــة ويمهدون لهذا الانتقال الشامل والتطور الكامل ، بكل ما أوتوا من سداد العقـــل

وما اكتسبوا من نضوج الحكمة وما وهبوا من بكورة اليقظة ؟ أم ان عبر الليالي وصروف الايام التوالي ومجرى الحوادث وسير التاريخ قد أثرت بدورها في هذه الامة فنبهت السواد وطفرت بالدهماء ؟

ومهما يكن العامل الاساسي ، والسبب الجوهري فالذي يهمنا ان ذلك العهد قد انقضى بشره وبلاه وولى بضره وأذاه انصرف عهد الشعر للشعر وعهد الكلام للكلام ايام

كنا نعيش بلا رأي يوجهنا
الى الصواب ، ولا عين ولا أذن

اما الآن فهذه صحفنا لا تكتب الا في كل جدي نافع ولا تطرق الا كل قوي مفيد ولا تبحث الا المواضيع التي يرغبها السواد وتبغيها الكثرة وتتغنى بها الكتلة الناطقة ، المواضيع التي غدت حديث المائدة وسحر المجالس ، المواضيع التي تنفس عما في الصدور من ألم وتذهب ما أصابها من يأس وخيبة رجاء مواضيع السودان وأناشيد حب الاوطان وما أمتع الحديث عن الاوطان وأشهاه للسمع واللسان فهو يلعب بأوتار القلوب فيوقظها من السبات ويمدها بالقوة لان الوطن تعبير جامع لكل ما سمي من المعاني ورمز لاصدق الاشياء بشرف الانسان وأخلدها لذكرى الجسم الفاني لان الوطن فكرة قبل ان يكون وحدة جغرافية ولذة الحديث عنه ناشئة عن اتصال حديثه بالحديث عن أنفسكم وعن أمانيكم وعن أبنائكم وعن آبائكم الاولين . وهل يكون المرء أكثر تلبسا بالجد واستشعارا بالاهتمام الا حين يفكر في قرارة نفسه يجول خلال سراديبها المتعددة مستعرضا الماضي بعبره ومستوضحا الحاضر بظروفه ومستكشفا طلائع المستقبل المجهول ؟

فلهذا الاهتمام الذي يحسه المرء ازاء كل ما يتصل بحياته وللتمشي مع رغبات الجمهور المتطور تخاطف زملائي أعضـاء الجمعية فصول موضوع (واجبنا بعد المعاهدة) وتخاطفوه قائلين :

دقـوا البشائـر للدنيـا بأجمعهـا
وللعروبـة مـن مـصر الى عـدن

وقولـوا لهـا :

انـا هممنـا وأرهفنـا عزائمنـا
على النهـوض بشعب بالعلا قمـن

ولم يتركوا لي الا الناحية السياسية فارتضيت اذ لم أترك لهم تلـك الناحية . وأجبتهم :

اللـه أكبـر هذا الـروح أعرفـه
اذا تذكـرت أيامـي ويعرفنـي

كنـا ننميـه سرا في جـوانحنـا
حتى استمال الى الاجهار والعلـن

بعد هذا الشعر وهو ، ككل فروع الفن الناطق يرهف الحس ويهز الاعصاب ويحرك العاطفة فترقص الروح وتنتقل الى دنيا الاحلام وعالم الخيال وفردوس الاوهام وعدنا أيها السادة نستفيق لنرى شبح المحنـة المتجهم وعبء الحقيقة المضني وحقيقـة الواجب المحتـوم هذا اذا كان الواجب بسيطا شخصيا قليل الواجب علـوي صعب المنال واجب أمـة ناشئة ناهضة عقد بنوها العزائم وأقسموا الايمان على ان لا يرضوا دون المثل الاعلى لاحترام ذاتيتهم ودون تحقيق كامل الامانـي الوطنية حتى

يباهوا غيرهم من الامم قبل يوم القيامة بالقوميـة السودانية • نعم نعم كيف والواجب سياسي ؟؟

ولكن ماذا يكون هذا الواجب السياسي ؟

تعـاريـف

اما الواجب فهـو كل ما حوسب المرء على التقصير فيه سواء أكان الحساب نفسيا منشؤه وخز الضمير أو ضغطا خارجيا صادرا من هيمنة القانون وسلطان العرف والاجتماع والسياسة كلمة مرنة موسيقية النغـم رشيقة المبنى فخمة داوية المعنى افتتن بها الناس قاطبة وأسرفوا في استعمالها أدخلوها في كل شيء حقيقة ومجازا حتى كثر مدلولها وان لم تفقد على كر الايام والليالي سحرها وقوة مفعولها ولم تعد هي اليوم من الالفاظ التي نرجع عندها للقاموس فقد تمردت عليه واتخـذت لها في كل مكان وزمان معنى جديدا ومدلولا فريدا ولنحددها في الليلة فنقول (السياسة الاشتغال بشؤون الدولة لرعاية مصالح الاهلين) •

بقي علينا ان نعرف في غير لبس او غموض الركن الثالث من أركان الحديث وهو أشدها تعقيدا ونعني به الجماعة او الهيئة التواقة الى معرفة واجبها حتى لا تفرط فيه فيلحقها لوم ، وتواقة أيضا الى تبيان مسئوليتها حتى لا تغفل عنها فيصيبها تعنيف وندم نريد ان نعرف المسئولين أمـام أنفسهم وامتهم وأمام العالم وأمام التاريخ•فكثيرا ما يتبادر الى ذهن بعض الناس وخصوصا المقلدين في التمسك بمبادىء الديمقراطية يتبـادر الى ذهنهم المساواة بين طبقات الامة وعدم تمييز الكفاءة والاعتراف بالنبوغ حتى عند تنفيذ البرامج الشعبية وهذا لون من ألوان التفكير الخاطىء ، صوابه أن الرجال نوعان لان الواجب قسمان ، رجل يصلح للجهـاد في

مقدمة الصفوف وجبهة القتال وآخر يجب ان يبقى في مركز القيادة ودفة الشئون . وواجب الاول عملي بينما مسئولية الثاني عقلية . والسودان في اول نهضته وفجر تاريخه الحديث ومستهل حياتـه في حاجة الى رسم الخطط وتنظيم الزعامة نستخلص من هذه المقدمات ان نداء اليوم موجه الى السوداني الناطق ، السوداني المستند الى طبقة الخريجين .

الواجبـات الوطنيـة

بعد هذا أرجو أن يسمح لي زملائي ان غيرت عنوان حديثي الى ما يأتي (ما هي الخطوات التي يراها الخريجون لازمة لرعاية مصالح الاهلين ونيل الحقوق الوطنية) ؟

أجل كيف يتأتى لهم حمل الحاكمين على الاعتراف بهذه الحقـوق وكيف يعبرون عن تلك المصالح ؟ فيطالبون برفع مستوى التعليم واحترام الشعور القومي ؟ كيف يستنكرون ما يمس كرامة الامة من قوانين وما يضعف وحدتها من لوائح ؟ كيف يجهـرون في حزم وجـد بأن سياسة الادارة الاهلية والادارة المالية والمعارف العمومية وقوانين العدل ونظام شركات الاحتكار وكل ما يفرضه الحاكم من نظم وما يوزعه من عـدل يجب أن يكون موضع الشورة منهـم وان يكون لهم فيه رأي محترم ؟ وأخيرا أيها الخريجون ما وسيلتكم وما حيلتكم للاطلاع على أسرار المالية والاقتصاد والتجارة وادراك حكمة تلك القروض الضخمة وما أحاط بها من ظروف وما أثر فيها من عوامل ؟ القـروض التي بقيت محافظـة على قيمتها الاولى رغم ما أدخل على كل صفقـة مالية في العالم من تسويـة وتعديل .

الخريجـون أيـن هـم ؟

ان المرء ليتساءل كيف يضطلع الخريجـون بكل هذه الواجبات أو جلها وهم هيئة لا وجود لها ، واسم على غير مسمى ، والخريجون أفراد مشتتون في البلاد • تراهم في العاصمة كثرة ، ولكنها كثرة مختلفة الرأي متباينة المزاج • وهم في الاقاليم وعواصـم المديريات أقلية من العمـال المكدورين وآلة الحكومة المنهوكة • أو هم كما وصفهم السير هارولد مكمايكل في كتابـه « السودان الانجليزي المصري » اذا ما استسلـم السوداني العصري الى احلامه رأى نفسه عضوا ممتازا وزعيما مرتجى لهيئة اجتماعية متحضرة لديها من وفير المال ما يكفي لجلب كل أسبـاب المدنية والرفاهية لبلاده ، حتى اذا ما ثاب الى رشده ، أيقن بأنه ليس الا مستخدما بسيطا ذا أجر متواضع نشأ في بيئة ساذجة ، حقيرة في نظره ، متقيدا في حياته المنزلية بأغلال عادات همجية ، مؤمنا في سويداء قلبه بأن ثقافته ليست الا قشورا وما أحلام نهاره الا فكاهات •

يترك الشاب المدرسة ويلج معترك الحيـاة فخورا بآمال الصبـا المعسولة ، وبريق النظريات الذهبية ، وأحلام الرجولة عجولا على تطبيق ما حفظ ولقن وان هي الا أسابيع وشهور ، في جو العمل الموبوء وبيئته العليلة ، حتى تخور قواه وتضعف حيويته ويموت في نفسه الطموح ، ثم تأتي الكهولة فيفقد كل امل وايمـان في حيـاة الجهاد • أتدرون لماذا ؟ السبب سهل بسيط ، فقدان الرائد ، وانعدام القائد والدليل •

اتحاد ــ او مؤتمر ــ الخريجين

فواجبنا الاول هو الاتحاد الفكري

ضموا صفوفكم وقووا عزمكـم

فالدهـر قلب والحيـاة ثـوان

وأعني بالاتحاد الفكري انتظـام الطبقيـة المستنيرة ــ ولا أقـول المتعلمة ــ في هيئة محكمة النظام ، لاستغلال منابع القوة والنضال في هذا البلد واستغلالها في شتى النواحي في الدعاية : في التعليم والتربية ، في المالية والتجارة ، وفي الرياضة والفن ، وفي الخيرات والاجتماع ، فهذه تركيا الحديثة قامت على أكتاف المجلس الوطني الكبير . والهند الجمهورية في ثمار رجال السن فين ولم تبلغ الهند هذا المستـوى بدون المؤتمر ، وفي القاهرة الوفد ، وفي دمشق الكتلـة الوطنيـة ، وفي فلسطين المجلس الاسلامي الاعلى .

فلم يبق السودان المسئول محافظا على نظـام ندوته منذ سنة ١٩١٨ الى اليوم ؟ لم أسمح لنفسي بالتفكير في كل شيء وقد عمل الجليل وشاد العظيم من الاسس الا تدريب الصفوف وتنظيم القيادة الا الثـورة على هذا النظام العتيق البالي ، الذي لا يتمشى مع تطورات فكره وأحـوال زمنـه .

تحدث اليّ أحد كبار الخريجين منذ اسبوع فقـال ، علينا باثنين ، الاولى الاتصال بالطبقة الحاكمـة ، كل في دائرة عمله ، وبثها مطالبنـا وارشادها الى ما يسرنا وما يغضبنا أيضا ، والثانية ان نعرف بعضنا بعضا معرفة أكيدة حتى نميز الغث من السمين ، وحتى ننفـخ في الزبد فيذهب جفاء ونبقي على ما ينفع الناس . وهذا حسن وجميل لان الاولى رياضة على الجهاد والثانية الخطوة البدائية في سبيل الاتحاد . ولكني انوافقت الاستاذ المتحدث على الغاية وأخالفه في الوسيلة ، فقد آن الاوان لترك هذه الشكـاوى وتلك المناجاة بيننا وبين الحاكـم الى هيئة من رجـال الصفوف الامامية فينا ، هيئة نجلها ، ونوليها الثقة ، وندين لها بالطاعـة الحق ، والخضوع في سبيل الصالح العام . ولمن يريد مجاملتنا ويتعرف نواياانا بعد ذلك ان يستمع لرأيها ويحترم مشورتها واليكم سادتي برهاني

على ان هذا العهد قد حان حينه ، وأظلكم أوانه وأدرككم اتيانه . برهان يدل على مبلغ ضعف الروح المعنوية للاستعمار والمستعمرين . ذكر المؤلف الانجليزي Bruce Lo Khart في كتابه « العودة الى جزر الملايا » بصدر المسائل الاستعمارية . ان انجليزيا خبيرا بالشئون الشرقية حين سئل عن رأيه في اعادة المستعمرات الالمانية السابقة الى حكومة الريخ الثالث أجاب « ليس هذا الامر بذي بال لان حق تقرير المصير مبدأ أخذ يسيطر على عقول الشرقيين بسرعة مدهشة ولن يمضي ربع قرن دون ان تتلاشى مزايا الاستعمار » .

نادي الخريجين ولجنته السنوية

فواجبنا أيها السادة ان ننهض بأبي النوادي ـ نادي الخريجين لنجعله معقلا حصينا للوحدة الفكرية وحدة السوداني الحديث لنجعله نقابة عامة للدفاع عن كل ما يمس الوطن والمواطنين ، وهنالك نغرس ومن هنالك نعلن رسالة السوداني الحديث لتكون لجنة النادي منبعا للدعاية القومية ومصدر الارشاد والهداية . يجب ان يستقل الرأي المستنير في البلد ، يتحرر من قيود التقاليد المشينة ، وينفك من أسار الاغراض وعبادة الافراد ، ثم يثبت ذاتيته في شخصية ممثليه ولسان حاله .

اذا ما انتظم السوداني المستنير في رابطة او مؤتمر او نقابة مركزها لجنة النادي بأم درمان وفروعها في الاقاليم ، اذا ما نشر برنامجه القومي نكون قد عرفنا وحددنا واجبنا السياسي . وهو موضوع حديثنا هذه الليلة .

١ ـ وألفت النظر الى النفحة الادبية والاستشهاد بالشعر وكان ذلك من سمات ما يكتب في الثلاثينات وليجتذب القارىء .

٢ ــ ويتضح أيضا من هذه الكلمــة تطلــع المثقفين واهتمامهــم بالحركات التحريرية والنقابية التي تدور في العالم من حولهم ، وجــاء اختيار اسم المؤتمر اقتداء بالمؤتمر الهنــدي الذي كان يقــوده المهاتما غاندي الذي بهر العالم كله •

لم يكن القاء هذه الكلمة وحده كافيا لقيــام المؤتمــر اذ لا بد من دفعات عملية لتحقيقها وكان أول هذه الدفعــات ان قام الصحفي الكبير الاستاذ احمد يوسف هاشم بنشر الكلمة في مجلة « الفجر » التي أسند اليه تحريرها بعد وفاة صاحبها ومحررها عرفات محمد عبد الله ولم يكتف المرحوم الاستاذ احمد يوسف بنشر الكلمة بل شفع ذلك بعــدة مقالات تأييد نشرها في جريدة « النيل » اليومية كما أفسح المجال لمؤيديها على صفحات مجلة « الفجر » •

وجاءت الدفعة القوية من أعضاء الجمعية الادبية بمدني اذ حضروا لام درمان واتصلوا بلجنة نادي الخريجين وكان يرأسها المرحوم اسماعيل الازهري وعرضوا الفكرة لتتبناها لجنة النادي وتشرع في تنفيذها ولكن لجنة النادي لم تتحمس لها أولا وظنها بعضهم محاولة جانبية لادخــال عناصر جديدة تستولي على النادي وكان النادي لا يضم آنذاك الا عددا قليــلا من المشتركين اذ انفض عنه كثير من الخريجين منذ ان بدأ ذلك الخلاف التاريخي الذي ذكرته في مستهل هذا الكتاب ، وبعد بذل جهود متصلة ولقاءات عديدة بين بعض أعضاء الجمعية الادبية بمدني والخريجين بنادي أم درمان ومن ظلوا بعيدين عنه تم الاتفاق على الشروع في ابتداء تنفيذ فكرة المؤتمر ، ولما لم يكن في ذهن أحد منهم فكرة محددة عن كيف تكون البداية والتعريف بالاهداف مع تحديدها فقد كونت لجنة تمهيدية من الاعضاء الموجودين بالنادي لتعقد اجتماعات عامة للخريجين بالعاصمة

مساء كل يوم خميس يتحدث فيها بعضهم عن ما يرى ان يكون عليه المؤتمر وتسجل الآراء التي تبسط في تلك الاجتماعات ، كما اتصلت هذه اللجنة التمهيدية بخطابات بعثت بها الى الاندية القائمة آنذاك خارج العاصمة لتعقد مثل هذه الاجتماعات وتحصل على آراء الخريجين الموجودين بها وتبعث اليها وبعد تجميع تلك الآراء المتعددة من الخريجين في العاصمة وخارجها استطاعت اللجنة التمهيدية ان تعد ملخصا وافيا لها عرض في اجتماع عام بنادي أم درمان فاستبانت بعض معالم الطريق الذي يجب ان يسلكه مؤتمر الخريجين ، وكان لا بد حسب القوانين القائمة آنذاك ان تتقدم اللجنة التمهيدية للحكومة تطلب الاذن بالتصديق بقيام هذا المؤتمر ، وفي حذر بالغ منحت الحكومة التصديق موقع عليه المستر (جيلان) السكرتير الاداري آنذاك مبتعدة به عن العمل السياسي ومهما يكن فقد كان هذا (التصديق) للخريجين بقيام مؤتمرهم في الحدود الضيقة المرسومة خطوة كبيرة من حكومة كانت سياستها تتسم بالكبت والارهاب واجتثاث كل عمل وطني بقوة ، فلماذا خطى الانجليز هذه الخطوة ؟

كانت سياسة الانجليز منذ البداية تقوم على محاولة الانفراد بحكم السودان وابعاد المصريين عنه ونعرف انها عنفت في توقيع العقوبة على ثوار ١٩٢٤ لانهم كانوا يرفعون شعار وحدة وادي النيل تجاوبا مع ثورة مصر التي أشعلها سعد زغلول ورفاقه ولم تخف عنف هذه السياسة ضد كل اتجاه من المثقفين نحو مصر التي كان ينبعث منها التيار الثوري الذي يتأثرون به حتى انهم كانوا يوالون الاحزاب المصرية الثائرة وينتمون اليها في مجالسهم الخاصة ويتحدثون باعجاب فائق عن قادتها ، وعن طريق مصر أيضا كانوا يحصلون من صحفها وأنبائها على أنباء التيارات الثورية في العالم فرأى الانجليز ان سياسة القمع نحو الاتجاه لمصر والتيارات

الثورية التي تنبعث منها او تحملها من العالم هذه السياسة غير مجدية ؛ وانه من الخير ان يفسح المجال للسودانيين أنفسهم ليخلقوا نشاطا وطنيا ينبعث منهم ويلتفون حوله ويدينون له بالولاء لعل ذلك يقلل من اندفاعهم نحو مصر •

وقبيل قيام المؤتمر انبعثت صيحة تنادي (بالقومية السودانية) وقيل ان الانجليز كانوا وراء خلق هذا الاتجاه لا حبا فيه ولكن لاضعاف التيار المصري ، وأذكر ان كثيرا من المثقفين في تلك الفتـــرة حملوا على نـــداء القومية السودانية واتهموه بانه تيار مندفع بقوة الانجليز لافساد الحركة الوطنية المتجهة نحو مصر ، ومع ان المؤتمر صيحة وطنية خالصة لا شـــك فيها الا ان الانجليز اصدروا توجيها سريا في خطاب بعث به المستــــر (جيلان) السكرتير الاداري الى كل الاداريين الانجليز من صغارهم حتى كبارهم يطلب فيه منهم عدم التعرض بمنع الاجتماعات او التصـــدي للاشخاص الذين يقومون بنشاط لقيام مؤتمر الخريجين وقد وصـــلت نسخة من هذا المنشور السري حصل عليها احد الكتبة من الخزانة السرية لمفتش المركز الذي يعمل فيه وارسلها لبعض اصدقائه بأم درمان من اعضاء النادي واستغل هؤلاء الشبان هذا المنشور السري لاستمالة بعض كبار الخريجين الموالين للحكومة للانضمام للمؤتمر وقد تهيبوا ذلك في البداية، ويبدو ان الانجليز كانوا يعتمدون على ان قيادات المؤتمر ستكون مـــن اصدقائهم ومن الخريجين المعتدلين فلا يسلكوا به مسلكا وطنيا مثيرا وقد تحقق ذلك لعدة سنوات منذ قيام المؤتمر في عام ١٩٣٧ والذي نص دستوره على ان يعقد الاجتماع العام للمشتركين في اليوم الثاني من عيد الاضحى المبارك لينتخبوا انتخابا سريا ٦٠ (ستون) عضوا ويجتمع هؤلاء الستون في اليوم الثالث لعيد الاضحى لينتخبوا ١٥ عضوا ليمثلوا اللجنة التنفيذية للمؤتمر وكان المعتدلون فعلا يمثلون اغلبية الاعضاء حتى عام ١٩٤٢ حيث

شملت اللجنة والهيئة عددا لا بأس به من الخريجين المتحمسين فقدمت مذكرة المؤتمر المعروفة والتي طالب في اول بنودها بحق تقرير المصير للسودانيين فكانت بداية جدية لاتجاه المؤتمر اتجاها جديدا فيه حيوية وطنية ووضع بهذه المذكرة قضية وطنية واضحة المعالم امام الشعب ليلتف حولها وان كان بعض جوانب المذكرة مطالب لا ترقى الى المستوى الوطني الحاسم ولكنها نجحت في اثارة الشعور الوطني لدى السودانيين .

وجدير بالذكر ان هذه المذكرة قدمت والحرب العالمية الثانية تقترب في النهاية وقد اتضح نصر انجلترا وحلفائها فيها وكان السودان قد ساهم مساهمة كبيرة في الاشتراك بجانب انجلترا بجنوده وقواته وقد تقدمت بعض الشعوب التي اشتركت مع انجلترا وحلفائها في تلك الحرب تطالب بحق تقرير المصير فكان لا بد للسودان ان يتأثر بما تقدمت به الشعوب التي تماثل موقفه من مناصرة الحلفاء .

ويجدر بي ان اذكر ايضا ان المذكرة بجانب المطالبة بحق تقرير المصير احتفظت بالحق ايضا في الاتحاد مع مصر والتحالف مع بريطانيا كما فرضه اصدقاؤها في المؤتمر ثمنا للموافقة على تقديم المذكرة ومهما يكن فقد أحدثت المذكرة دفعة قوية للحركة الوطنية كما اشتد الخلاف وضوحا بين مؤيدي الاتحاد مع مصر ومناصري التحالف مع بريطانيا فبدأت نشأة الاحزاب فيما بعد على اساس هذين الاتجاهين وهذا ليس هناك مجاله عن نشأة المؤتمر وتغاضي الانجليز عن نشأته .

وللتاريخ أسجل هنا بعض الخطاب السري الذي بعث به السكرتير الاداري السير « جيلان » لسائر الانجليز في السودان وخاصة الاداريين ــ كما ذكرت هنا ــ عن موقفهم من النداء الوطني لتكوين المؤتمر اذ جاء فيه :

« ان المؤتمر حركة طبيعية جاءت في ابانها ذاكرا ان السودان جزء من هذا الشرق الذي شملته اليقظة وقامت فيه حركات تحررية عديدة ونالت بعض اقطاره حريتها ، وان السودان لا بد ان يتأثر بهذا وانه من الخير ان تفسح المجال لهذه الافكار الجديدة لكي تبرز .. وحذرهم في ختام خطابه ان يشمل هذا التسامح زعماء العشائر والعمد والمشايخ فهؤلاء يجب ان يبقوا بعيدا عن هذه الحركات الجديدة ! .. »

كما اصدر امرا بمنع كل رجال القضاء والادارة والجيش والبوليس من الاشتراك في عضوية المؤتمر .

ولكن عندما قويت الحركة الوطنية واشتد ساعدها لم يبق أثر لكل هذه التوجيهات والاوامر فناصرها الجميع وبذلك تحقق استقلال البلاد .

وبختام الحديث عن نشأة مؤتمر الخريجين ينتهي بحمد الله تعالى الجزء الثاني من الملامـح .

محتويات الكتاب